تحت الرئاسة الشرفية لصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد

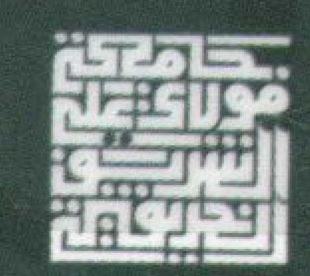
المملكة المغربية
وزارة الثقافة

جامعة مولاي علي الشريف الدورة الرابعة عشرة

# التحولات الاقتصادية والاجتماعية في عهد السلطان مولاي يوسف

10 - 11 نونبر 2006

مركز الدراسات والبحوث العلوية - الريصاني



الإيداع القانوني : 20077243
ردمـــك : 9-4141-0-9954
منشورات وزارة الثقافة 2007
سحـــب : مطبعة دار المناهل - 2007

تحت الرئاسة الشرفية لصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد

جامعة مولاي علي الشريف

الدورة الرابعة عشرة

# التحولات الاقتصادية والاجتماعية في عهد السلطان مولاي يوسف

10-11 نونبر 2006

مركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني

# تقديم

في تواصل محمود، انعقدت دورة موالية من جامعة مولاي علي الشريف العزيقة بالريصاني.وهي تعد الرابعة على التوالي التي تخصص لموضوع مولاي يوسف دون أن تُقدَّم كل الأجوبة وتُدرَج كل المشاركات.

وإذا كنا قد اعتبرنا أثناء تنظيمنا للدورة الثالثة عشرة أن الوثيرة التصاعدية في إشعاع الجامعة ستجعلنا أمام خيارات أخرى للتنظيم تستوعب التنامي الملموس لطلبات المشاركة، فإن الشروط لم تلتئم بعد لبلوغ هذه الغاية حيث اضطررنا في هذه الدورة إلى اعتماد عملية الانتقاء لاستحالة إدراج جميع المشاركات.

لقد عرضنا على أعضاء اللجنة العلمية والسادة الأساتذة في السنة الماضية، رغبتنا في تطوير هذه الجامعة على مستوى المواد وأشكال العرض والانفتاح، وقد سررنا فعلا بتدشين هذا المبتغى بالانفتاح على المؤسسات التعليمية بالمنطقة، حيث تفضلت وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي مشكورة بتجاوبها البناء مع هذا المقترح الذي نأمل أن يكون بداية لمسار تعاوني واعد. تجاوب سيتيح لبعض المشاركين إلقاء محاضرات على تلاميذ بعض المؤسسات التعليمية بالمنطقة ليس فقط لمجرد تنويع أشكال العرض، ولكن أساسا لتعزيز أسس التعاطي مع تاريخ بلادنا وبعث شعور الإعتزاز به في ظل ثقافة الصورة المنمطة التي تجعل المرء في بعض الأحيان تائها ومنبهرا بالأصنام التي تخلقها هذه الصورة ولو كانت لا تمت ل"أناه" بأية صلة. ليس في الأمر أي انغلاق أو أي دلالة للخصوصية المفرطة، إذ إن قوة الأشياء تقتضي أن نشدان الانفتاح يمر بالضرورة عبر ضمان الوجود وإلا كنا إزاء الاستلاب والذوبان.

لذلك ستكون هذه الجامعة ذات نتائج إيجابية على المدين القريب والبعيد إذا وفقت، إلى جانب أغراضها العلمية البحتة، في تحقيق الأهداف الوطنية الحيوية المتمثلة في تحصين الذات عبر معرفة تاريخها وإشاعته والاعتزاز به وبالتالي الانطلاق منه إلى آفاق واعدة.

وإذا كانت هذه الجامعة قد استطاعت ضمان انتظامها وتتطلع إلى مزيد من التطور والإشعاع، فلأن جهودا متضافرة تبذل في الخفاء والعلن لبلوغ هذه الغايات، جهود تتصدرها العناية الملكية السامية المتواصلة والرئاسة الشرفية لصاحب السمو الملكي الأمير مولاي رشيد لهذا الملتقى العلمي كما لا تقل جهود الوزارة واللجنة العلمية للجامعة والسلطات المحلية أهمية في استمرار هذا الملتقى.

لقد عرفت الدورة تداولا فكريا هاما، وتبادلا للمعلومات سواء في شكلها الموثق أو الشفوي، وتميزت أساسا بالتلاقي العلمي والأكاديمي والإنساني بين مختلف المشاركين والذي شكل في حد ذاته قيمة عليا تترتب عنها برامج ومشاريع.. ولكي نضيف لبنة إشعاعية أخرى إلى بناء الدورة وصرح الجامعة، يسرنا أن نقدم للمشاركين والمختصين والمهتمين وعموم القراء التوثيق الكامل لأعمال الدورة الرابعة عشرة من جامعة مولاي الشريف آملين أن يغني الخزانة العلمية ويوفر الوثيقة التاريخية وينمي البحث العلمي.

**محمد الأشعري**

**وزير الثقافة**

# المحور الأول : التحولات الاجتماعية

# السلطة والمجتمع بتافيلالت في عهد السلطان مولاي يوسف

لحسن تاوشيخت
المكتبة الوطنية للمملكة المغربية- الرباط

**مقدمة**

عرف المغرب عامة ومنطقة تافيلالت بشكل خاص في عهد السلطان مولاي يوسف خلخلة سياسية واجتماعية أثرت جذريا على الحياة العامة، حيث انقسم الرأي العام حول معاهدة الحماية بين الصمت الذي يعني القبول بالأمر الواقع وبين المندد بالخطاب مكتوبا كان أم شفاهيا وبين الرافض جملة وتفصيلا. أمام هذه الوضعية الصعبة كانت منطقة تافيلالت المرآة الحقيقية لما عرفه المغرب من انقسامات وتكتلات من جهة، ومن تصدع السلطة المخزنية وظهور زعامات محلية لمواجهة السلطة الاستعمارية من جهة ثانية. فما هي طبيعة السلطة أو السلطات التي تحكمت في منطقة تافيلالت ما بين 1913 و 1927 وما هي تأثيرات كل ذلك على مكونات المجتمع الفيلالي ذي التشكلات والترابطات المختلفة والمتناقضة في كثير من الأحيان و لا يوحدها ويجمعها إلا ظهور التهديد الأجنبي؟

## 1-السلطة بتافيلالت في عهد مولاي يوسف

خلال عهد السلطان مولاي يوسف، ظهرت بمنطقة تافيلالت عدة سلطات متباينة المواقف والمصالح، هذه السلطات كان لها الأثر الكبير في المسار العام الذي سيفرض نفسه بقوة على المنطقة وسيؤدي بالتالي إلى زعزعة التنظيمات التقليدية كالأحلاف أو الإتحادات القبلية، وإلى تراجع حكم المشيخات في تسيير الشؤون المحلية وأيضا إلى تقهقر دور الأعراف في التنظيم الاجتماعي والاقتصادي لساكنة المنطقة. وكان نتيجة كل ذلك أن فقدت تافيلالت الكثير من

هيبتها السياسية وأهميتها الاقتصادية فأصبحت آخر مركز لمواجهة الغزو الأجنبي وقبلة للزعامات المدعمة من لدن معظم القبائل المحلية.

أ) السلطة المخزنية

لقد تحكمت السلطة المركزية في إقليم تافيلالت من خلال تعيين أحد أمراء الأسرة الحاكمة خليفة بها، حيث تولى مولاي رشيد بن محمد بن عبد الرحمن الخلافة إلى غاية 1913 فخلفه ابنه مولاي المهدي. وإذا كان مولاي رشيد قد عُرف بحنكته في تدبير الشأن المحلي وخاصة في اجتناب التصارع مع القبائل والأحلاف المحلية التي كانت تشكل قوة لا يستهان بها، فإن خليفته مولاي المهدي لم يستطع مجاراة الأحداث المتسارعة الناتجة عن التحرشات الفرنسية بالمنطقة من جهة والدور المتنامي لزعماء المقاومة المحلية لهذا الاحتلال والمدعومين من طرف مختلف القوى القبلية من جهة ثانية. وقد أرسل السلطان مولاي يوسف بعثة مخزنية إلى تافيلالت في شتنبر من عام 1916 لتبليغ الخليفة مولاي المهدي بضرورة إقناع السكان بالكف عن مهاجمة النصارى واحترام الأوامر السلطانية، لكن دون جدوى.

أمام هذا الوضع، لم يقدر مولاي المهدي أن يتخذ القرار المناسب سواء بالإذعان للأمر الواقع خاصة وأنه يمثل الإدارة المخزنية التي وقعت معاهدة الحماية رسميا يوم 30 مارس 1912 أو باتخاذ موقف جريء مع ما يمثله من معارضة لهذه المعاهدة وبالتالي مساندة المقاومة المحلية الرافضة رفضا كليا لكل تدخل أجنبي بتافيلالت، كما فعل أخوه مولاي عبد الله. إلا أن الميول المخزنية للخليفة مولاي المهدي والمتسمة باحترام الأوامر السلطانية والمهادنة مع الفرنسيين، وإن جلبت له عطف المقيم العام للحماية الجنرال ليوطي وأيضا حماية القوات الفرنسية تحت قيادة الكولونيل دوري Doury، فإنه بالعكس من ذلك لم يحظ موقفه محليا بالإجماع. وكان من نتائج مواقف مولاي المهدي أن قام سكان المنطقة بتعيين خليفة عليهم في شخص مبارك التوزنيني ولقبوه ب"مولاي المؤقت" يساعده بلقاسم النكادي في قيادة الجيش. وظل الخليفة مولاي المهدي يتردد على السلطات العليا المخزنية والفرنسية ببوذنيب ومكناس والرباط، كما ظل مرابطا في مقر إقامته بتافيلالت يراقب الأوضاع عن كثب إلى أن باغته يوما بلقاسم

النكادي فاغتاله سنة 1919 كما قتل من قبله ولي نعمته مبارك التوزنيني، حتى يصفو له الجو لوحده ويستبد بالحكم المطلق للمنطقة.

ب) السلطة الإستعمارية

لم تمض سوى أيام معدودات على فرض الحماية على المغرب في 30 مارس 1912 وتعيين الجنرال ليوطي مقيما عاما بالرباط حتى تم خلع السلطان مولاي عبد الحفيظ وتعويضه بأخيه مولاي يوسف في 13 أبريل سنة 1912. كما عرفت منطقة تافيلالت وفاة الخليفة السلطاني مولاي رشيد فخلفه ابنه مولاي المهدي. في سنة 1913 حاولت القوات الاستعمارية الفرنسية التقدم لبسط سيطرتها على تافيلالت[1]. وفي سنة 1914 قامت القوات الفرنسية بحملات عسكرية على قصور الحوضين الأعلى والأوسط لوادي زيز. وفي 9 يوليوز 1916 استطاعت القوات الاستعمارية بقيادة الكولونيل دوري Doury من هزم ثلاث حركات للمقاومة بكل من مسكي وأولاد عميرة في أوفوس وبالقرب من المعاضيد يوم 15 نونبر من نفس السنة. وتمكنت بالتالي القوات الفرنسية من فرض سيطرتها على الحوض الأوسط لوادي زيز والاستقرار مؤقتا بسهل الدامية على بعد 36 كلم شمال الريصاني. وبفعل المقاومة العنيفة لأهل تافيلالت، لم تستطع هذه القوات الدخول إلى ناحية الريصاني إلا في 3 شتنبر من سنة 1917 بقيادة القبطان نويل Noël، حيث اتخذت قصبة تغمرت مقرا لهذه القوات تحت إشراف القبطان أوستري Oustry يساعده الدكتور مادلين Madelaine كطبيب عسكري وفرقة من الكوم قوامها حوالي 150 فردا.

كان لاحتلال الفرنسيين لقصبة تغمرت وتقاعس السلطة المخزنية عن مواجهة هذا الخطر، أن قام سكان المنطقة بالالتفاف حول مبارك التوزنيني وبتنظيم أنفسهم لمقاومة الغزو الفرنسي. وهكذا استطاعت حركة المقاومة بالرغم من ضعف عددها وعدتها من كسب معركة مهمة على القوات الفرنسية بموقع البطحاء قرب قصر كاوز بالسفالات يوم 9 غشت 1918.

[1] ) Rohlfs (Gerhard) : le Tafilelt. Paris, Comité du Maroc 1918 ; 39 pages (p 2)

وفي 15 أكتوبر من نفس السنة تعرضت الحامية العسكرية الفرنسية بقصبة تغمرت إلى هجوم خربت خلاله القصبة وقتل القبطان أوستري وعدد كبير من الجنود الفرنسيين. وفي محاولة لاسترجاع هبة ونفوذ القوات الفرنسية بتافيلالت ، قاد الجنرال بويمرو Poeymirau حملة عسكرية واسعة النطاق على المنطقة وحاصرها من كل الجهات2. إلا أن هذه المحاولات باءت بالفشل أمام عزيمة المقاومة المحلية التي ألحقت هزائم متتالية بالقوات الفرنسية، بل وجرح الجنرال بويمرو في إحداها (بمسكي سنة 1919). وكان لهذه الهزائم الأثر السلبي على معنويات القوات الغازية، مما اضطر قيادتها العليا بالرباط إلى الاستنجاد بالقاعدة العسكرية الجهوية بمكناس لإرسال المزيد من القوات والعتاد تحت قيادة الكولونيل مياد Mayade.

ومن أجل ضبط ومراقبة تحركات المقاومة المحلية وإضعافها ماديا بشكل خاص، قامت السلطات الفرنسية بتشييد قاعدة عسكرية ببرج أرفود « blocus » الذي يمثل أعلى نقطة بالمنطقة، كما شيدت قاعدة أخرى بجبل أولاد الزهراء، ثم بتأسيس عدة حصون بمختلف مداخل تافيلالت قرب قصر الدار البيضاء وفوق جبل تنغراس... ويعتبر تأسيس مدينة أرفود سنة 1919 على بعد 20 كلم إلى الشمال من الريصاني تجسيدا لهذه السياسة الاستعمارية، حيث اتخذها الفرنسيون كمقر لسلطتهم بالمنطقة وكانت المدينة تشتمل على كل المستلزمات الإدارية والاقتصادية (مقر الحاكم المحلي، مقر المراقب المدني، المحكمة، السوق الأسبوعي، الحرف...). ولنفس الغاية، حاول الفرنسيون تغيير مجرى وادي زيز ببناء عدة سدود أهمها سد أولاد الزهراء، حتى يقطعوا أهم مصدر للمياه عن واحة تافيلالت.

كما حاولوا الاستعانة بكل المخبرين والمعاونين سواء منهم الأجانب أو المحليين، لتدقيق معرفتهم بالمنطقة وبسكانها، بعد أن فشلت كل الاستخبارات السابقة التي بدأ الجمع فيها منذ 1830 مع روني كايي[3] René Caillée ومن جاؤوا بعده مثل ليوتنان كولونيل هنري

---

[2] ) Bernard (Augustin) : le Maroc. Paris, Librairie Félix Alcan, 6° édition 1921 ; 465 pages, 5 cartes h.t. ( p 374).

[3] ) Caillée (René) : voyages à Tombouctou. Paris, édition la Découverte, Librairie Maspero 1979 ; 2 volumes, 401 pages (Tafilalet : pp 335 – 357).

داستوك[4] Henri Dastugue في الستينات من القرن 19 الميلادي. وبالرغم من كل هذه المجهودات وبالرغم من الضعف التقني والحربي للمقاومة الفيلالية ومن تصدع صفوفها بفعل سياسة بلقاسم النكادي، فإن القوات الفرنسية لم تستطع قط أن تبسط سيطرتها بالكامل على منطقة تافيلالت إلا مع بداية سنة 1932 وبالضبط يوم 15 يناير على الساعة السابعة صباحا[5].

ج) سلطة الزعامات المحلية

تزعم مبارك بن الحسين التوزنيني الملقب ب"أويفروتن" أي صاحب القول الفصل في المنازعات، وأيضا ب"مولاي المؤقت" أو "المهدي المنتظر" المقاومة بتافيلالت ضد الاستعمار الفرنسي، فداع صيته بين الناس فعينوه خليفة عليهم بجانب الخليفة مولاي المهدي سنة 1914. وقد اكتسب التوزنيني شهرة واسعة خاصة بعد انتصارات المقاومة على القوات الغازية بكل من موقعة قصبة تغمرت ومعركة البطحاء سنة 1918. ووسع التوزنيني حركته، فبعث برسائل إلى مختلف قبائل آيت عطا من تافيلالت إلى درعة يدعوها إلى الجهاد، وكون مجلسا للحرب يضم ممثلين عن كل الأخماس المكونة لقبائل آيت عطا فضلا عن القبائل المكونة لحلف آيت يافلمان وبعض قبائل تافيلالت مفضلا بذلك مبدأ الأخوة الدينية على الانتماء القبلي، فانضم إلى مجلسه آيت مرغاد وآيت إزدك وآيت حديدو وعرب الصباح فضلا عن أهل تدغة وآيت خباش وآيت إعزى وبني امحمد، كما انضم إليه سيدي العربي شيخ الزاوية الدرقاوية بفركلة ومقدم قصر أبو عام محمد بن الحاج علال الملقب بولد جماعية.

وقد اتخذ التوزنيني قصر الريصاني مقرا لحكمه وعين بلقاسم النكادي رئيسا على الجميع وقائدا للجيش يساعده أربعة رؤساء حرب منهم حسن العيساوي من أبي الجعد وباعلي من تزارين إلى جانب كاتبه الخاص الفقيه محمد بن الحسن الجراري. كما قام التوزنيني بإعداد جيش

---

[4] ) Dastuge (Henri) : « quelques notes au sujet du Tafilet et Sidjilmassa », in Bulletin de la Société de Géographie. Paris, Tome XII, avril 1867 (pp 337 – 380).

[5] ) Anonyme : « la pacification du sud marocain », Renseignements Coloniaux et Documents. N° 3 année 1933 pp 49 -58 (p 49).

قوي يتجاوز عدده أربعة آلاف مقاتل، وحاول كسب تأييد زعماء المقاومة بالمناطق الأخرى فراسل أحنصال في أزيلال والحسين أوتمكا وموحا أوسعيد في الأطلس المتوسط[6] وغيرهم. هذا في الوقت الذي عارض فيه الأعيان والزعماء الموالين للإستعمار، بل وهاجم ممتلكاتهم. إلا أن هذه السياسة ومكائد المستعمرين ودعمهم من طرف الكلاوي باشا مراكش الذي هاجم منطقة تدغة لقطع الصلات عن التوزنيني فضلا عن تأليب آيت مرغاد ضده، أدت إلى تلقي سلطة التوزنيني الضربات من الخلف وكانت أشدها مضاضة تلك التي جاءته من أقرب الناس إليه وهو قائده بلقاسم النكادي. فقد أدت خلافات بين الرجلين إلى اغتيال التوزنيني من طرف قائده النكادي في أكتوبر من سنة 1919.

فخلا الجو لبلقاسم ليصبح الزعيم الوحيد بتافيلالت فاتخذ قصر الريصاني -الذي لا يزال يحمل اسم قصبة بلقاسم النكادي أو قصبة أبو القاسم الزياني- قاعدة لحكمه وجمع حوله القبائل الأكثر إخلاصا له مثل آيت خباش وآيت حمو. واستطاع أن يحقق عدة انتصارات بمنطقة درعة وقاوم بقوة التغلغل الفرنسي بتافيلالت. غير أن سياسة بلقاسم الاستبدادية وفرضه للضرائب الشرعية وغير الشرعية على سكان المنطقة وخاصة المعارضين له، فضلا عن المناورات الفرنسية، لم تجلب له إلا المزيد من الأعداء والأتعاب وسهل بالتالي الدخول النهائي للاحتلال الفرنسي إلى المنطقة صبيحة يوم 15 يناير 1932.

د) سلطة الزوايا

كباقي مناطق المغرب عرفت مؤسسة الزوايا بتافيلالت تحولا جذريا مع مستجدات الغزو الأجنبي للبلاد من القيام بالأدوار التقليدية في التوجيه الديني وإصلاح ذات البين بين القبائل المتنازعة، إلى ولوج العمل السياسي مع ما يتطلب ذلك من اتخاذ المواقف واحتلال المواقع. أغلب هذه الزوايا تقع بمشيخة السفالات وتم تأسيسها من طرف زعماء أتوا من خارج المنطقة ويطلق عليهم اسم المرابطين.

---

[6] بورلس (عبد القادر): "التوزنيني مبارك بن الحسين قائد المقاومة في تافيلالت"، معلمة المغرب. (ص 2634).

وإجمالا يمكن أن نصنف الزوايا الفيلالية من خلال موقفها من المستعمر إلى ثلاثة أصناف: الأول له موقف ضد كل أجنبي، بحيث لا يجب التعامل معه بأي شكل من الأشكال فبالأحرى تسهيل تغلغله داخل بلاد تدين بالإسلام. وقد تزعم هذا الصنف مقاومة الأجنبي وساند قادتها وخير مثال على ذلك سيدي أحمد بلمدني صاحب الزاوية المسماة باسمه والواقعة بمقطع الصفا في الجنوب الشرقي لمنطقة تافيلالت. الصنف الثاني من الزوايا انكمش دوره وانقرض مع الدخول الاستعماري ويتعلق الأمر خاصة بالزوايا الصغيرة التي لم يكن لها نفوذ قوي داخل المجتمع الفيلالي كزاوية عمار وزاوية أحمد بن بدلة وغيرها. والصنف الأخير اختار سبيل التهدئة والمهادنة للحفاظ على مصالحه أمام تضارب الأطماع بين الزعامات المحلية من جهة وبين القوات الغازية من جهة ثانية. وفي هذا الصدد يذكر الرحالة الألماني جيرهارد رولفس[7] أنه خلال زيارته لمنطقة تافيلالت اتصل بشيوخ بعض الزوايا وبالخصوص زاوية من لا يخاف لتبليغهم رسائل ووصايا لم يكشف عن مضمونها إلا أن وصف الكاتب لحرارة الاستقبال من طرف هؤلاء الشيوخ توحي بأنهم قبلوا على الأقل بقانون اللعبة والتعامل مع الأجنبي مهما كانت أهدافه ظاهرة أم خفية عليهم. من أهم الزوايا الفيلالية في هذه الفترة هي:

- زاوية تابوبكرت أو الزاوية الغازية: تقع هذه الزاوية جنوب تافيلالت بمشيخة السفالات، شيدت في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي من طرف الشريف الإدريسي العلامة والزاهد الشيخ سيدي الغازي أبي القاسم، السوسي الأصل. وتعتبر الزاوية الغازية من أشهر وأغنى زوايا تافيلالت باعتبار كثرة مريديها وزوارها الذين يفدون عليها من كل أنحاء المغرب وخاصة قبائل بني مكَيلد بالأطلس المتوسط وبعض قبائل واحة درعة.

- زاوية الماطي: توجد في أقصى الجنوب من واحة تافيلالت بمقاطعة السفالات على بعد أربعة عشر كيلومترا من مدينة الريصاني، يحدها شمالا زاوية سيدي الغازي بن القاسم، وجنوبا جبل أدرار، وغربا زاويتي من لا يخاف وسيدي إبراهيم وشرقا قصر زاوية عمار. تأسست الزاوية من طرف الشريف الإدريسي أحمد الطيب بن محمد الصديقي السجلماسي المصري الأصل الذي يرجع نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وكان هذا الولي عالما مبرزا وزاهدا أخذ

---

[7] ) Rohlfs (Gerhard) : le Tafilelt, op-cit (p 29)

العلم والفقه والتصوف على يد عدة شيوخ مغاربة كبار ومن تلامذته العالم أحمد بن عبد العزيز الهلالي صاحب كتاب "الظواهر الأفقية في شرح الجواهر المنطقية". توفي مؤسس الزاوية في ثالث محرم عام 1165 هجرية / 1751 ميلادية ودفن بضريحه الواقع داخل قصر الماطي. يخدم الزاوية طائفتان من المرابطين: فأولاد سيدي حمزة بلماحي يستقبلون الزوار، بينما يعمل أولاد بلغزال بحراسة الضريح، وبحرث الحقول وبالمتاجرة. تحظى الزاوية وشيخها بتقدير وشهرة لدى سكان تافيلالت عامة.

* زاوية سيدي علي بن أبي زينة: تقع بواد المالح غرب واحة تافيلالت على الضفة الشرقية لوادي غريس على بعد سبع كيلومترات من مركز سجلماسة. أسسها الشريف الإدريسي سيدي علي بن أبي زينة وهي تشرف على حقول زراعية بمشيختي الغرفة وواد إيفلي وكذلك على عدة أشجار من النخيل بمقاطعة السفالات. يقوم بحراسة الزاوية أحد الشرفاء الذي يتقبل الزيارات ويأوي الزوار.

* زاوية سيدي أحمد بلمدني: يرجع أصل شيخ هذه الزاوية إلى قصر النجا الواقع بواد الساورة. وكان لوصول المستعمر الفرنسي لهذه المنطقة أن اضطر الشيخ بلمدني إلى الخروج منها، فاستقر مؤقتا بقصر الطاوس على بعد ثمانين كيلومترا جنوب تافيلالت. ثم ارتحل إلى قصر مقطع الصفا، قرب وادي غريس بالجنوب الغربي لواحة تافيلالت، حيث أسس الزاوية المعروفة باسمه. واشتهر أحمد بلمدني بمواقفه المعارضة للأطماع الفرنسية في المغرب وكذا بزهده وقيامه بدور الوساطة في إصلاح ذات البين بين القبائل المتنازعة، مما جعل زاويته تحظى بشهرة كبيرة عند سكان تافيلالت والذين كانوا يترددون عليها باستمرار.

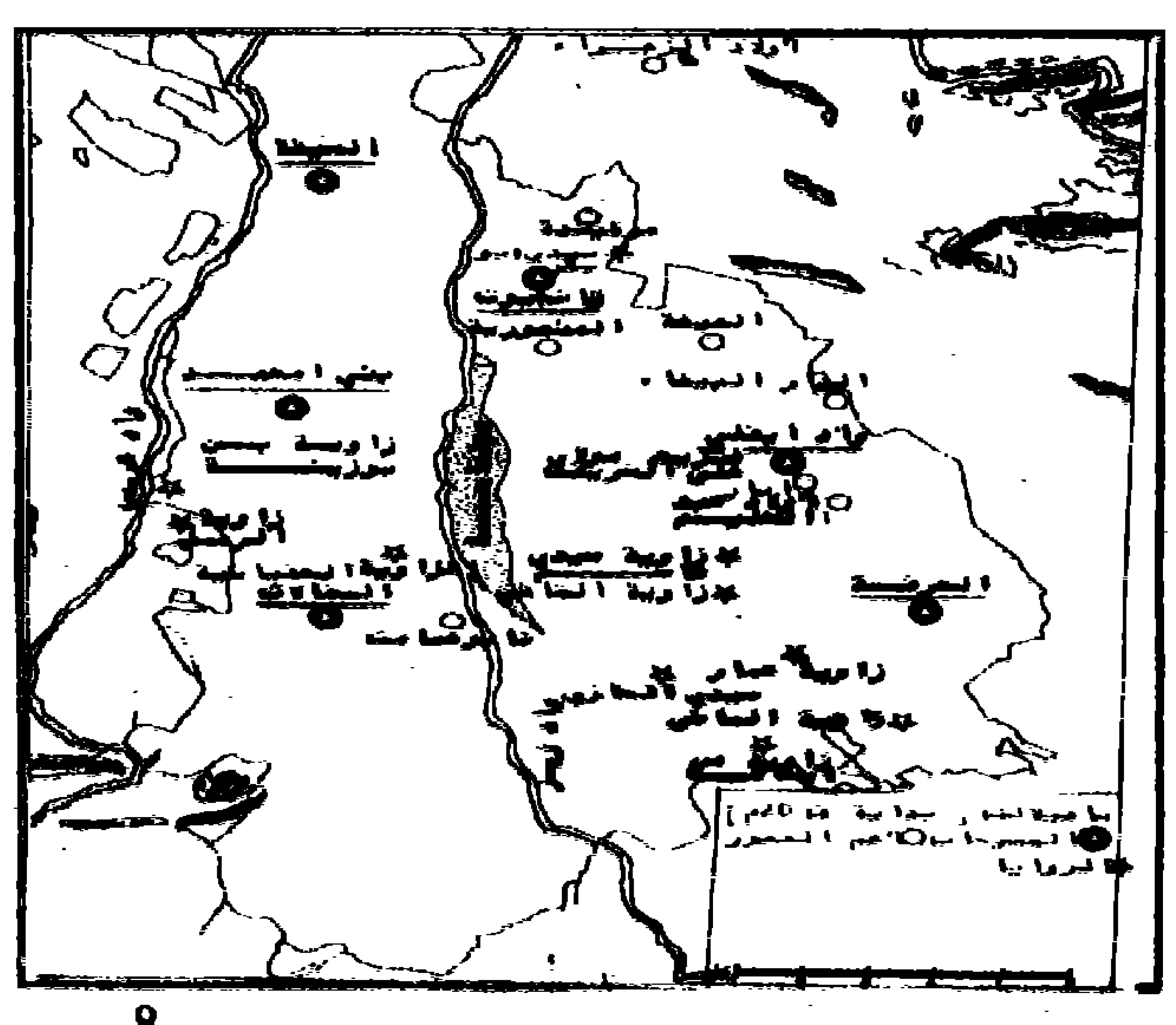
* زاوية عمار: أسست من طرف الشريف الإدريسي المراكشي الأصل العلامة الزاهد الشيخ سيدي الساسي، جد شرفاء قصر عمار. ويوجد ضريح هذا الشريف داخل قصر عمار وإلى جانبه قبور أولاده وخاصة منهم سيدي أحمد منديل. وكانت زاوية سيدي الساسي تابعة للزاوية الدرقاوية بفاس ولزاوية سيدي أحمد بن عبد الصادق بقصر الدويرة بأوفوس. وكانت زاوية عمار مشهورة جدا، إذ كانت تعرف عدة زيارات وتستقبل عدة هدايا وعطاءات من لدن مريديها وخاصة منهم ذوي منيع، وأولاد جرير وآيت خباش.

- زاوية سيدي بوبكر: تقع الزاوية قرب قصر مزكيدة بمشيخة تانجيوت، شمال واحة تافيلالت وتعتبر هذه الزاوية من أقدم زوايا تافيلالت، يقوم بخدمتها بعض سكان قصر سيدي أبو بكر والذين يتلقون الزيارات والهبات المقدمة من طرف المريدين وخاصة من قبيلة آيت خباش.

- زاوية من لا يخاف: توجد هي أيضا بجنوب تافيلالت بمشيخة السفالات، تأسست من طرف الشريف سيدي عبد الرحمان بن علي الذي كان رجل علم وزهد. يقوم بحراسة ضريح الشيخ أحد الشرفاء المنتسبين للزاوية والذي يستقبل الزوار ويتقبل هداياهم. وتتم الزيارة خاصة مساء كل يوم خميس. من روادها أذكر قبائل آيت خباش وذوي منيع. ولا تزال هذه الزاوية تؤدي دورها إلى اليوم وهي مشهورة بتافيلالت والنواحي.

- زاوية سيدي عبد الله بن علي: تقع خارج أسوار قصر من لا يخاف، أسسها الشريف سيدي عبد الله بن علي. وهي زاوية صغيرة يقوم بخدمتها بعض سكان القصر حيث يتقبلون الزيارات والهدايا.

وتجدر الإشارة إلى زوايا فيلالية أخرى أقل أهمية وهي: زاوية القاضي بواد إيفلي، وزاوية أحمد بن بدلة بالغرفة، والزاوية البوبكرية بالسيفة...إلى آخره.



منطقة تافيلالت: توزيع المشيخات والقصور والزوايا[8]

هـ) السلطة القبلية

القبلية هي مجموعة من العائلات ذات أصل مشترك تسيرها الجماعة برئاسة الشيخ أو أمغار، وقد أدى تحالف الكثير لدوافع أمنية أو اجتماعية أو اقتصادية وربما حتى سياسية إلى ظهور ما يسمى بالأحلاف أو الاتحاد مثل حلف آيت عطا وحلف آيت يافلمان. وكانت جماعة القصر "تفرض على كل السكان بمختلف فئاتهم المشاركة في بناء التحصينات كالأبراج والأسوار والمؤسسات الدينية والإنتاجية العامة (المسجد، الفندق، المعصرة...). وسعيا وراء تحقيق الأمن داخل القصر، فقد كانت المشيخة أو الجماعة تكلف بالتناوب ساكنة القصر حراسة بابه بالليل والنهار لا سيما وقت الفتنة"[9]. ففي تافيلالت يعتبر الانتماء القبلي هو العامل الرئيسي في استغلال

[8] ) Gaulis (Lieutenant) : « le Tafilalet », Renseignements Coloniaux et Documents. N° 3 mars 1928 pp 180-189 (la carte).

[9]) عبد اللوي علوي (أحمد): مذكرة وادي زيز، إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث. المحمدية، مطبعة فضالة 1996 الجزء 1 (ص 186).

المجال الفلاحي، فهو المنظم لعملية توزيع الماء بين ذوي الحقوق وهو المؤطر للصراعات المحلية، بل وهو العامل الذي غالبا ما يحدد المورفولوجية المعمارية للقصر.

في ميدان تدبير المصالح العامة، يتوفر كل قصر على جماعة تسيره وتنظمه برئاسة الشيخ الذي يتكلف بتطبيق القوانين والقرارات الصادرة عن الجماعة، وينتخب لمدة محددة ويمكن تجديد انتخابه. وتكون الجماعة مؤلفة من ممثلين عن كل سكان القصر حسب انتمائهم العرقي ووضعيتهم الاجتماعية.

يتميز القصر بتافيلالت بتواجده وسط الحقول الزراعية التي يقوم بخدمتها سكان القصر أنفسهم إلى جانب تعاطي بعضهم للحرف والتجارة. وتختلف أهمية القصور حسب انتمائها لإحدى المشيخات المكونة للمنطقة وأهمها مشيخة واد إيفلي التي يغلب عليها النشاط التجاري وهي مقر الإدارة المحلية، بينما تخصصت مشيخة السفالات في التجارة والصنائع وخصوصا النجارة. وارتبطت مشيختي السيفة وبني امحمد بالزراعة بشكل خاص. وإذا عرفت بعض القصور بنشاطها التجاري مثل تابوعصامت وأبو عام، فإن بعضها الآخر تخصص في الصنائع مثل مولاي عبد الله الدقاق في الخزف ومنوكّة في الدباغة. من حيث التنظيم الداخلي للقصر، يمكن القول إن الشكل من المعمار بتافيلالت يمثل شكلا من أشكال التضامن الجماعي والاجتماعي، ذلك أن لكل قاطن بداخله سواء كان فردا أو عائلة مكانته وحقه في المشاركة الفعلية في تدبير شؤون الحياة اليومية للقصر والتي تضبطها قواعد التعاون والتعاضد بمختلف تجلياتها.

و) السلطة الاقتصادية

في تافيلالت غالبا ما تكون مصادر المياه ووسائل الإنتاج مشتركة ويتم توزيعها بدقة، ويتجلى ذلك في تجاور الحقول "الجمامن". والأكثر من هذا غالبا ما يوزع الحقل الواحد بين مالك الأرض ومالك الشجر ومالك حق السقي. ويعتبر الماء المحدد الحقيقي لقيمة كل حقل زراعي بتافيلالت، ويتم التحكم فيه بواسطة السواقي والخطارات وعبر تنظيمات وأعراف محلية. فمشكلة قلة الماء وضرورة التغلب عليها بالتنظيم والتوزيع الدقيقين، يمثل من المشاغل الأساسية لسكان تافيلالت منذ عهد سجلماسة التي اعتمدت كل الوسائل اللازمة في ذلك مثل الناعورات

والآبار والخطارات. ذلك "أن الظروف البيئية والمناخية القاسية التي كانت تعاني منها المنطقة جعلت سكان الواحات مؤهلين أكثر من غيرهم لابتكار تقنيات استنباط المياه الجوفية...من هنا كانت تقنية أغرور كما هو الشأن بالنسبة لتقنية الخطارة وليدة حاجة السكان للماء الجاري بصفة مستمرة لممارسة النشاط الزراعي بشكل منظم دون الاعتماد فقط على مياه الفيضانات التي يغلب عليها طابع التذبذب والموسمية"[10].

فالماء هو عصب الحياة بتافيلالت منذ عصور سجلماسة وإلى اليوم، حيث من يملك حق الماء يملك زمام الفلاحة بالمنطقة. ويتم تقسيم استغلال الماء بكمامن تافيلالت بشكل دقيق عبر تنظيمات ومصالح متعارف عليها جيلا بعد جيل. نفس الأهمية يحتلها سوق أبو عام الذي كان يتحكم في المبادلات التجارية بين توات وكورارة وتندوف من جهة وبين بشار ووهران والقنادسة من جهة ثانية والحواضر المغربية الكبرى كفاس ومراكش من جهة أخرى. وكان لأهمية الماء بتافيلالت وأيضا لسوق أبو عام أن أصبح التحكم فيهما يمكن من بسط السيطرة على أهم مصادر الثروة بالمجتمع الفيلالي وبالتالي ضبطه وتسييره. وهذا ما فطنت إليه السياسة الاستعمارية الفرنسية من خلال تأسيس مدينة أرفود وخلق سوق أسبوعي بها، ثم التحكم في مجاري المياه المتجهة نحو تافيلالت من خلال بناء السدود والقنوات. هذا فضلا عن تشجيع اليد العاملة المحلية للهجرة نحو المدن والضيعات الفلاحية والمناجم المكتشفة حيث توجد فرص العمل، والأهداف الخفية من ذلك إفراغ المنطقة من طاقاتها وخدمة المصالح الاقتصادية للمعمرين.

## 2- المجتمع بتافيلالت في عهد مولاي يوسف

كان يبلغ عدد سكان تافيلالت خلال بداية القرن الرابع عشر الهجري / العشرين الميلادي حوالي 45 ألف نسمة يتوزعون على أكثر من 150 قصرا وقصبة. وتسيطر على الواحة أربع قبائل هي: السفالات وتضم حوالي 3000 عائلة، بني امحمد وتشتمل على 3300 عائلة، آيت خباش وعددهم حوالي 1000 عائلة وآيت بورك ويبلغ عددهم 500 عائلة. كما تم خلال هذه

---

[10]) عبد اللوي علوي (أحمد): المرجع السابق (ص 102).

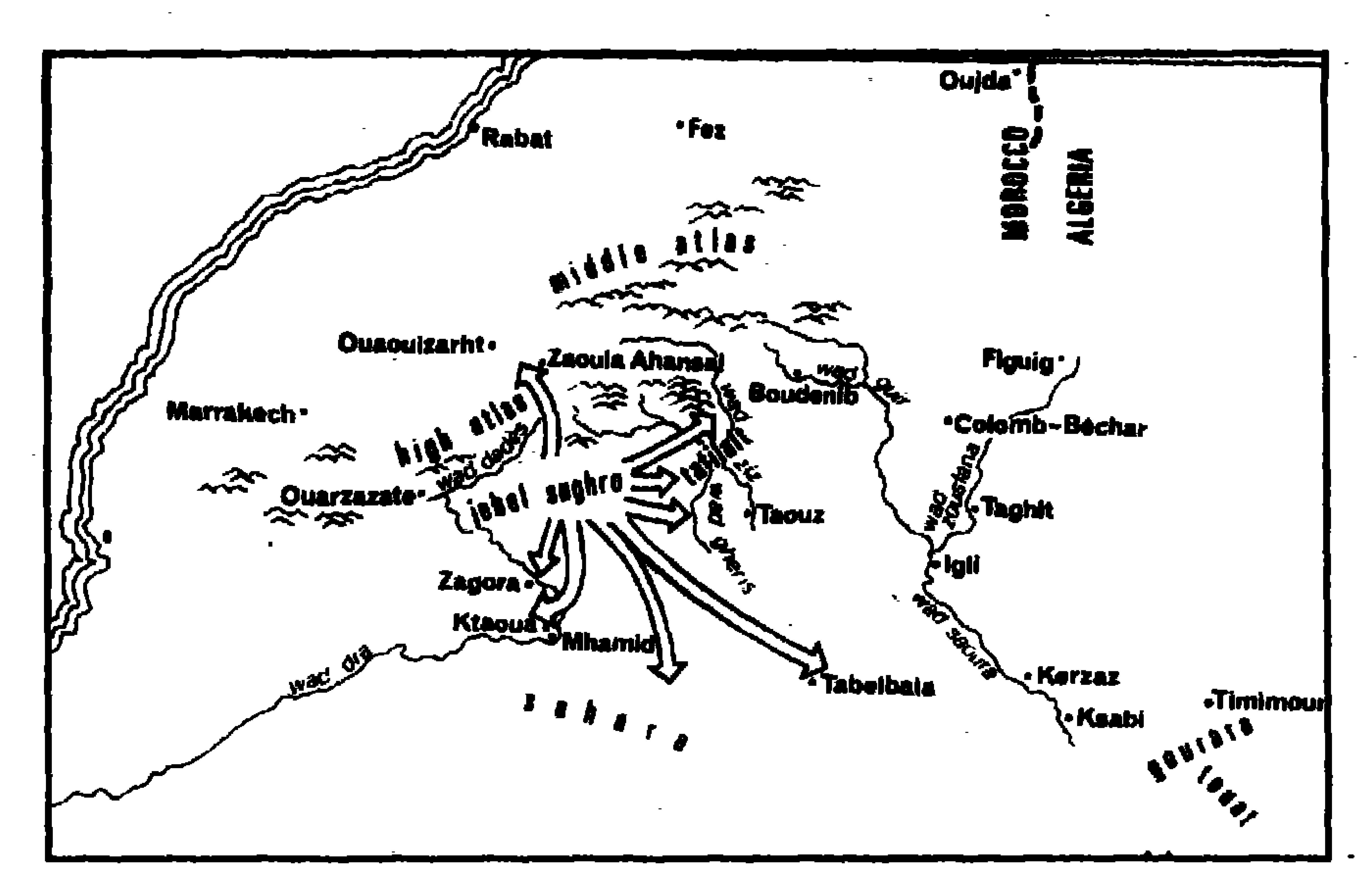
الفترة تقسيم تافيلالت إلى ست مشيخات رئيسية تحكمت فيها بشكل خاص الانتماءات العرقية والدينية والمصلحية التي يمكن تحديدها كما يلي :

- حلف آيت عطا ويتكون أساسا من آيت خباش، وآيت إعزى ويربطهم عقد أخوة مع عرب بني امحمد.
- حلف آيت يافلمان ويضم بشكل خاص آيت مرغاد، ولهم مصالح مشتركة مع عرب الصباح بالسيفة وعرب السفالات.
- الشرفاء والمرابطين من العلويين والأدارسة ويرتكز دورهم في الوساطة والصلح بين القبائل المتصارعة.
- أهل الذمة وخاصة من اليهود وكانوا يتعاطون للتجارة ولبعض الحرف.
- المعدمين ويُستغلون كخدم في المنازل أو كخماسة في الحقول

جدول لأهم مشيخات تافيلالت:

| أسم المشيخة | عدد القصور | عدد السكان |
|---|---|---|
| مشيخة تانيجيوت | 16 | 6000 |
| مشيخة السيفة | 22 | 8000 |
| مشيخة بني امحمد | 18 | 6500 |
| مشيخة واد إيفلي | 36 | 9000 |
| مشيخة الغرفة | 20 | 6000 |
| مشيخة السفالات | 40 | 9000 |
| المجموع | 152 | 44500 |

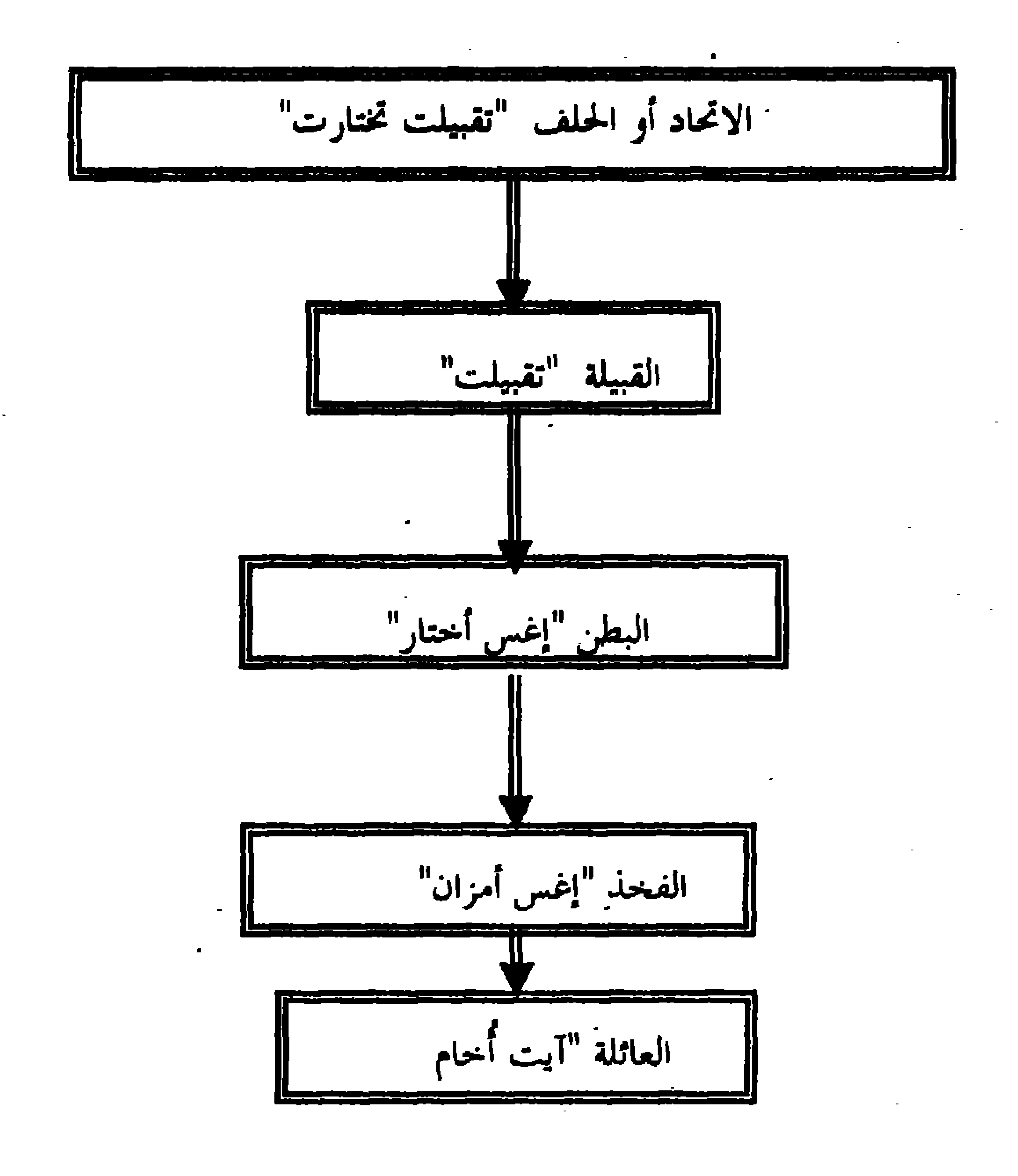
من هذه الأحلاف يمكن ذكر الاتحادية العطاوية بجبل صاغرو والتي اتخذت من قصر "إغرم أمزدار" مقرا لها. وكان من نتائج هذا التنظيم أن تقوت قبائل آيت عطا وأخذت تفرض نفسها على باقي القبائل المجاورة، فامتد نفوذها شمالا حتى سهل تادلة، وجنوبا إلى واحة درعة وشرقا إلى وادي ملوية.



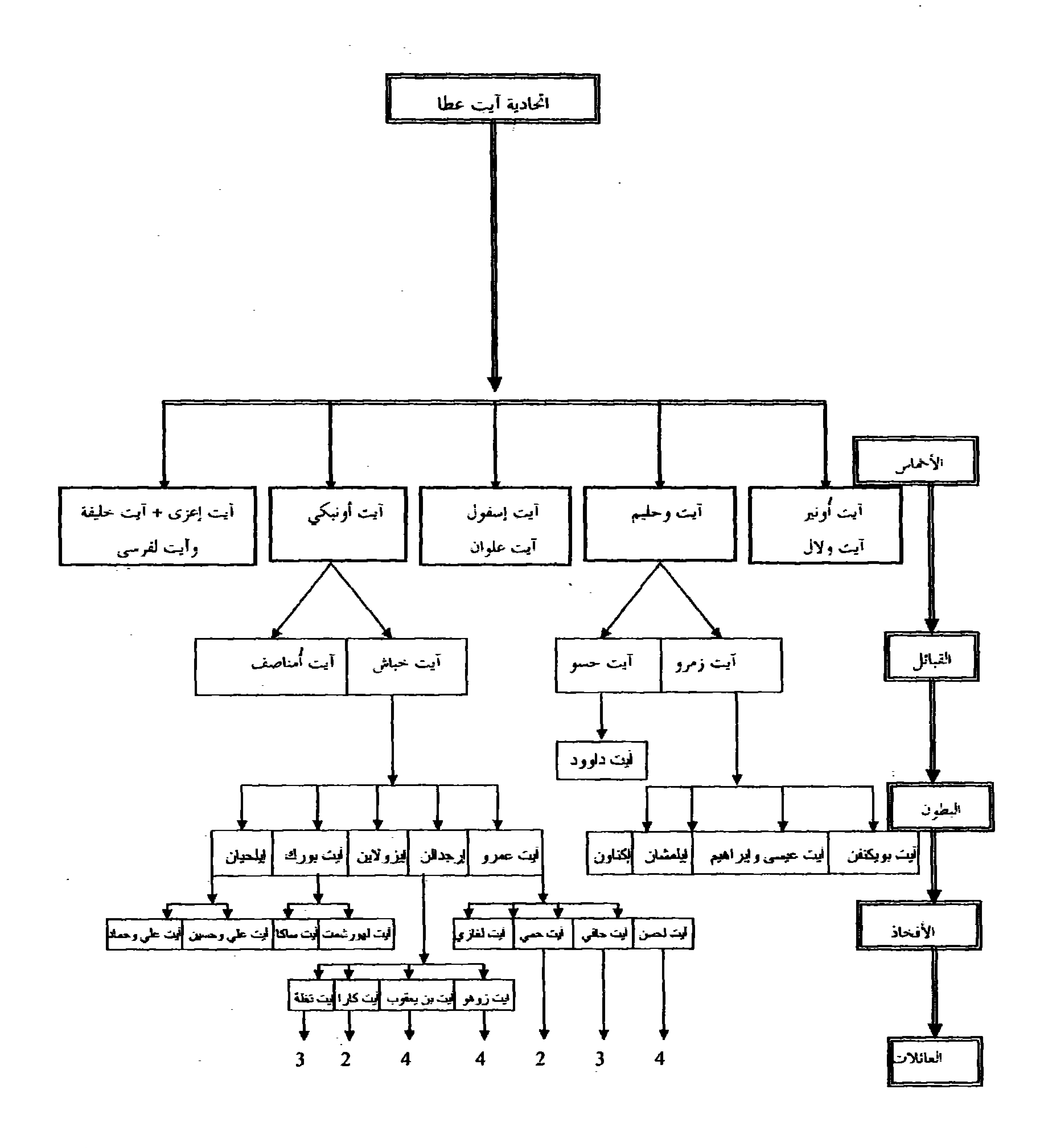

خريطة انتشار آيت عطا[11]

يتكون الحلف العطاوي من مجموعة من القبائل ذات الأصل الموحد وذات الأهداف والمصالح المشتركة وهي تشكل ما يُعرف بخمس أخماس. وكل خمس يشتمل على قبيلة واحدة أكثر ترتبط بالقرابة الأبوية، إذ تنحدر من جد واحد تسمى باسمه. وكل قبيلة تضم عدة بطون أو فصائل يجمعها قصر أو دوار واحد. وكل بطن يتركب من مجموعة من الأفخاذ "إغسان: العظام" المرتبطة بالقرابة الدموية، ويتولى رئاستها كل شخص معروف بشجاعته ونزاهته وماله وجاهه. وكل فخذ ينقسم إلى عدة عائلات تتكون بدورها من مجموعة من الأفراد الذين ينتمون لأصل واحد أو دم واحد، فضلا عن الأتباع والخدم وكلهم يخضع لرئيس الخيمة وهو أكبرهم سنا.

[11] 11..Dunn (Ross E.): Resistance in the desert. Madison, The university of Wisconsin Press 1977 (p 73).




وتنقسم اتحادية آيت عطا إلى خمس أخماس ويتميز كل خمس من هذه الأخماس بحياة خاصة به ترتبط بالقرابة الأخوية بين مكوناته وبالمصالح المشتركة وبوجود منافع موزعة على شكل أراضي زراعية أو مراعي جماعية، كما يتوفر على جماعة مستقلة وعلى محكمة محلية، ولكن في ارتباط ومشورة دائمين مع الجماعة الأم ومحكمة الاستئناف بإغرم أمزدار. هذه الأخماس هي:


اتحادية آيت عطا
الأخماس
آيت أونير
آيت ولال
آيت وحليم
آيت إسفول
آيت علوان
آيت أونبكي
آيت إعزى + آيت خليفة
وآيت لفرسى
القبائل
آيت زمرو
آيت حسو
آيت خباش
آيت أمناصف
أيت داوود
البطون
أيت بوبكنفن
أيت عيسى و إبراهيم
إيلمشان
إكناون
أيت عمرو
إرجدالن
إيزولاين
أيت بورك
إيلحيان
الأفخاذ
أيت لحسن
أيت حاقي
أيت حمي
أيت لغازي
أيت لهورشمت
أيت ساكا
أيت علي وحسين
أيت علي وحماد
أيت زوهو
أيت بن يعقوب
أيت كارا
أيت تغلة
العائلات
3
2
4
4
2
3
4

يظهر مما سبق أن التنظيم المحكم لاتحادية آيت عطا والذي يرتكز على رابطة القرابة والمصاهرة والمصلحة المشتركة. ويترسخ هذا التنظيم في كيفية تسيير المحكمة العليا بإغرم أمزدار من جهة، ومن جهة أخرى في التناوب على انتخاب الرؤساء الكبار خلال كل سنة من بين الأخماس التي تمثل الاتحاد الذي يشرف عليه شيخ عام "أمغار نوفلا" أو "أمغار نوسكاس" أو "أمغار نتوكا". وتتحدد صلاحيات الشيخ العام في:

- تعين وتنظيم عملية الانتجاع؛
- فض النزاعات بين القبائل المكونة للاتحاد والتفاوض مع الأحلاف المجاورة؛
- تمثيل السلطة التنفيذية والسهر على تطبيق القرارات الصادرة عن اجتماعات مجلس الشيوخ؛
- القيام بالدفاع عن الأراضي والمصالح المشتركة.

ينتخب "أمغار" مبدئيا في يوم 17 مارس من كل سنة حينما يجتمع ممثلي القبائل سواء عند ضريح دادا عطا أو داخل الأرض المحرمة بتفراوت بآيت عطا بالقرب من إغرم أمزدار وتارة في تزارين وأحيانا في الأطلس الكبير. ويحضر عملية الانتخاب ممثلي جميع الأخماس وجماعة من شرفاء مولاي عبد الله بن احساين بزاوية تامصلوحت.

**خاتمة:**

لقد شهدت منطقة تافيلالت منذ بداية التحرشات الاستعمارية الفرنسية بالحدود المغربية الشرقية وخاصة بعد احتلال واحات توات وكورارة في أواخر القرن 19 م وبعد احتلال بودنيب سنة 1908 وبعد توقيع معاهدة الحماية سنة 1912، مخاضا عسيرا لما يمثله الغزو الأجنبي من تحديات صعبة تتطلب التعبئة والمواجهة. أمام هذا الخطر الخارجي المحدق انكمشت الخلافات والمنازعات الداخلية بين الأحلاف والقبائل، بل واتحد الجميع لمقاومة هذا التهديد للمصالح المشتركة. وبالفعل فإن المقاومة بتافيلالت دونت بطولاتها بمداد من الفخر والاعتزاز في السجل الذهبي للتاريخ المغربي المعاصر، حيث استطاعت بالرغم من ضعف حالها وقلة حيلتها أن تلقن المستعمر المدجج بالعدة والعتاد دروسا في الكفاح والدود عن حوزة البلاد مهما كان الثمن. فتافيلالت بفعل ثقلها التاريخي وبعدها الحضاري وعمقها الروحي، استنفرت كل قواها الحية وهبت عن بكرة أبيها مدافعة عن حوزة الوطن.

# المجتمع المغربي من خلال أعمال ضباط الاستعلامات

صالح شكاك
ثانوية عبدالله الشفشاوني

## تمهيد

تحاول هذه المداخلة الإجابة عن السؤال التالي:أين تتجلى أبعاد السياسة الأهلية في أعمال ضباط الاستعلامات في عهد السلطان المولى يوسف، خاصة وأن الفترة تزامنت و عهد المقيم العام ليوطي الذي كان أحد صناع وموجهي أعمال هؤلاء الضباط؟.

وتنطلق هذه المداخلة من البعد الاجتماعي في سياسة ليوطي، ومن خطبة ألقاها الكولونيل هانري بيريو في شهر مارس 1918 في فوج الضباط المرشحين للعمل في مصلحة الاستعلامات.

وشكلت هيئة ضباط الاستعلامات ( الشؤون الأهلية فيما بعد) قطب الرحى التي تمحورت حوله السياسة الاجتماعية للحماية. فقد اشتغلت هذه المصلحة على الإعداد السياسي للعمليات العسكرية وساهمت في دراسة القضايا الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بالأهالي. وتشكل هذه الدراسات مرجعية أساسية للبحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب خلال الفترة المعاصرة.

## 1.ضباط الاستعلامات والغزو السلمي

شكلت سنة 1907 بداية فعلية لتأسيس "البيروات العربية" متخذة من التجربة الجزائرية نبراسا لها. وشكل احتلال المغرب الشرقي والشاوية أرضية لاشتغال تجربة جديدة في هذا المجال. وكان إحداث مصلحة الاستعلامات أولوية لدى المستعمر الفرنسي. فمنذ احتلال الشاوية، نظم القائد العام لقوات الإنزال هذه المصلحة اعتمادا على ضباط مختارين من الشؤون الأهلية بالجزائر وتونس. وعند نهاية 1909 ، أصبحت هذه الهيئة مستقلة، وعين على رأسها

الرائد سيمون . وفي سنة 1913 أصبح هذا الضابط السامي مديرا على رأس مصلحة الاستعلامات بالمغرب. وفي سنة 1915، انتقلت الرئاسة للمقدم بيريو الذي استمر يدير شؤون هذه الهيئة إلى حين وفاته المفاجئة في دجنبر 1918 [1].

وكان الضباط يخضعون لتكوين يدوم تسعة أشهر، يتعرفون فيه على الخطوط العريضة والضرورية للقيام بالأعمال المنتظرة منهم، ومنها التعرف على الجغرافية الطبيعية والاقتصادية لإفريقيا الشمالية، تاريخ العالم الإسلامي، الفقه الإسلامي، العادات الأمازيغية، القانون الإداري المغربي، نظام الملكية العقارية... مع التركيز على معرفة اللغة العربية واللهجات البربرية... [2].

ومما أعطى لضباط الاستعلامات مكانة متميزة ضمن النسيج الاستعماري الأسبقية التي كان يعطيها المقيم العام ليوطي للعمل السياسي على العمل العسكري. وذلك بالتركيز على جمع المعلومات من مضانها، وضرورة معرفة الناس من أجل التأثير عليهم بتفضيل الإقناع على التخويف [3].

وكان كل ضابط استعلامات مطالبا بكتابة تقرير احترافي حول القبائل. وقد نشرت أولى أعمال هؤلاء الضباط في مجلات كانت تصدر من الجزائر، كالجمعية التاريخية الجزائرية وجمعيات جغرافية الجزائر ووهران... ثم في مجلات صادرة من المغرب كالأرشيفات البربرية وإفريقيا الفرنسية والمجلة الجغرافية المغربية...

و لم تتعاون مختلف الإدارات الفرنسية فيما بينها من أجل دراسة المغرب ومعرفته فقط، بل أنتجت أسماء وازنة كان لها الدور الريادي في معرفة الكثير من القضايا الاجتماعية والإثنولوجية وغيرها مما طبع المجتمع المغربي أثناء الفترة المعنية بالدراسة.

وبلغ عدد مكاتب الاستعلامات إلى غاية 1913، 64 مكتبا، 47 منها في غرب المغرب و 17 في المغرب الشرقي، عمل فيها حوالي 194 ضابط. وإذا كان عدد هذه المكاتب قد انتقل إلى 113 مكتبا سنة 1917، فإن عدد الضباط انتقل إلى 273 ضابط في يوليوز 1925، بينما لم يتعد الضباط من أصول مغاربية أربعة سنة 1913 ونفس العدد سنة 1925 [4].

إن التركيز على مبدأ المعرفة من أجل رد الفعل، جعل الدولة الفرنسية تقدم الدعم اللامشروط لوسائل الإعلام والتجسس حتى توجه الجهود لمسح المغرب. وكان مبدأ ليوطي في هذا المضمار ينبني على ثلاثة مبادئ أساسية5:

-البحث الاستعلامي للمنطقة المراد اقتحامها لإفراز تناقضاتها ، وذلك بجمع المعلومات الجغرافية والطبوغرافية، والتأكد من صحتها وتتميمها من خلال أكثر ما يمكن من الجولات الريادية التي يقودها الضابط بنفسه[6].

-ضربها بتلك التناقضات لبعثرة صفوفها ووحدتها، وذلك بالشروع في الدراسة الإثنوغرافية والإثنولوجية والسياسية للقبائل والبث فيما يفرق بينها ويجمع، وفي أشكال التكتل كاللفوف وتأثير الدين والمؤسسات كالرباطات والزوايا والشخصيات ذات النفوذ...[7].

-إعادة النظر في هياكلها والتصرف بها لتفي بالغرض الاستعماري، وذلك بالقيام ببعض المنجزات المرتبطة بالتعليم والصحة والأشغال العمومية والجرد الاقتصادي لتجنيد خيرات المنطقة والشروع في استثمارها...[8].

وكان الشعار الذي تتبناه إدارة الحماية في هذا الباب أنه بالإمكان" تحقيق الانتصار العسكري بالقوة بفضل تفوق السلاح، إلا أن ذلك لن يكون إلا عابرا بينما يتحقق الغزو النهائي، المتعلق بالعقول والقلوب، بسلطة الذكاء والروح"[9]. وقد أوصى ليوطي بذلك في إحدى خطبه بأن تظل السياسة الأهلية روح الحماية، داعيا للتشبث بها بباعث الوطنية وداعي الاعتقاد، متمنيا لمن يتولى بعده التمسك بهذه السياسة مثل ما تمسك بها هو[10].

## 2.تادلة في المشروع الاستعلاماتي: أعمال بول مارتي نموذجا

انطلاقا من الشاوية، نهجت إدارة الاستعلامات سياسة المراقبة والترقب من بعيد، وظلت عيونها على المنطقة، تتبع وقائعها وتخطط لاختراقها. ولهذه الغاية، ركزت الدوائر

الاستعمارية على تجميع أكبر قدر ممكن من المعلومات تتعلق بقبائل المنطقة من حيث مكوناتها الديمغرافية والاجتماعية ومن حيث أوضاعها الاقتصادية والسياسية.... أو من حيث موقعها من الأحداث وموقفها منها. ويمكن اعتبار ما كتبه دوفوكو أثناء عبوره المنطقة في صيف 1888، والمراسلات التي تمت بينه وبين بعض الدوائر الفرنسية بالدار البيضاء وطنجة وبين الحاج ادريس الشرقاوي طيلة 1904-1905 باكورة ما كتب حول المنطقة[11]، وأرضية مكنت من قراءات و تأويلات مختزلة حول صورة مغرب ما قبل الاستعمار[12].

عمقت إدارة الاستعلامات معرفتها بتادلة،ووفرت للسلطات الاستعمارية إمكانية استغلال التناقضات بين المجموعات البشرية، واستمالة زعماء المقاومة بالاحتفاظ بهم على رأس القبائل. لقد كانت إنجازات هؤلاء الضباط تقدم عموما على شكل منوغرافيات أو « بطاقات القبائل» تمهيدا للاحتلال الفعلي لتادلة .

ففي شهر نونبر 1908، أرسلت الإدارة الفرنسية المتمركزة بالدارالبيضاء، ضابط المخابرات العسكرية بول مارتي إلى أبي الجعد في مهمة لجمع المعلومات من مضانها.

وهكذا حرر هذا الضابط أولى دراساته عن المنطقة بابن أحمد بتاريخ 16 دجنبر 1908 تحت عنوان « دراسة حول تادلة» وفيها قدم تصوره الشامل لقبائل المنطقة[13].

ومباشرة بعد هذا التقرير، توارت التقارير حول الإقليم. فكتب الضابط فارلي هانوس دراسة حول الوضع السياسي لقبائل تادلة مابين مارس وماي من سنة 1909. وأنجز الضابط سوميان عدة تقارير حول المنطقة، فكتب حول بني خيران في دجنبر 1909، وحول ورديغة في يونيو 1910. وفي 15 أبريل 1912 قدم ثالث دراسة . وفيها ركز على ثلاث كونفدراليات وهي : ورديغة، بني خيران، السماعلة[14] . وقدمت أولى الدراسات الجيولوجية والهيدروغرافيا تحت إشراف العقيد سيمون[15].

ولد بول مارتي في 6 يوليوز 1882 ببوفاريك بالجزائر، درس المرحلتين الإبتدائية والثانوية بالجزائر العاصمة. انخرط في صفوف الفوج الأول للزواف في 9 نونبر 1901، قضى خمس سنوات في الجنوب التونسي كمترجم عسكري. وفي مارس 1908 انضم إلى جيوش الإنزال بالدارالبيضاء حيث اشتغل بمصلحة الاستعلامات وكلف بجمع المعلومات حول تادلة[16] . ثم اشتغل كمترجم شخصي للجنرال موانيي ما بين يناير ويوليوز 1909 . ومنذ أكتوبر 1912 ، التحق بداكار كمدير للشؤون الإسلامية لدى الحكومة العامة لافريقيا الغربية. وعند عودته إلى المغرب،في سنة 1921 ، اشتغل في حقلي الشؤون الأهلية والتعليم. وتوفي بتونس في 11 مارس 1938 [17].

ويوجد هذا التقرير في ستين صفحة، مدونة بخط يد المؤلف. خصص المحورالأول للجغرافية الطبيعية، فقدم وصفا متكاملا للحدود والسطح والمناخ والهيدروغرافية. وفي معرض حديثه عن الجغرافية البشرية كمحور ثان، تعرض للأصول البشرية للقبائل ولأهم المحطات التأريخية التي عرفتها تادلة، ثم عرف بالسكان المستوطنين للإقليم ( ورديغة، بني خيران، السماعلة، بني زمور، آيت الربع، بني موسى، بني عمير، بني مسكين، أبي الجعد).

وخصص للجانب الاقتصادي حيزا من الدراسة بحيث درس القطاعات الاقتصادية وأبرز أهم خطوط الاتصال ونقط الأسواق.... وفي هذا الإطار قدم عن كل مجموعة بشرية معطيات هامة شملت، المواقع ، المكونات القبلية ، عدد الخيام ،لائحة بالزعماء ، نقط الماء، الرعي، المسالك... ولم يفته أن يقدم معلومات عن مدينة أبي الجعد، فعرف بدروبها وبأحيائها، وأوضح وضعية التجارة والحرف بها دون أن يغفل الزاوية الشرقاوية ومكانتها في المدينة والمحيط.

وفي محور خصصه، بول مارتي، للحياة السياسية، بين آثار الصراع العزيزي الحفيظي والاحتلال الفرنسي للشاوية على المنطقة.

وانطلاقا من هذا التقرير، خلص بول مارتي إلى اقتراح كيفية التدخل اعتمادا على استمالة الأعيان وتكوين الصفوف ومحاربة تقارب القبائل كخطوة أولى ثم الاخترق العسكري كخطوة ثانية، فإنشاء أربعة مراكز عسكرية عين لها مواقعها ثم مفتاح للناحية للربط بين هذه المراكز والاتصال بالمراكز الخلفية بالشاوية.

أفادت الدراسة التي أنجزها بول مارتي كثيرا في الاختراق العسكري للمنطقة سنة 1910 ، ثم في الاحتلال النهائي حيث كتب الجنرال مانجان منوها بهذا العمل وأهميته في الاحتلال. وإذا كان هذا العمل وغيره من الأعمال التي أنجزها ضباط الاستعلامات لم تعف جيوش الاحتلال من المواجهات العسكرية مع المغاربة. فإنها أفادت كثيرا في التعرف على المجتمع المغربي. وكشفت عن الكثير من القضايا التي كانت تمس شرائح اجتماعية واسعة من المجتمع .

**خاتمة**

إن التجربة و الوعي بالمسؤولية، جعل ضباط الاستعلامات يتحرون الدقة فيما كتبوه، فاستغلال مثل هذه التقارير في القرارات السياسية والعسكرية، تطلب أكثر ما يمكن من الواقعية والموضوعية...وعليه، فلا يمكن غض الطرف عن هذه المنجزات، فقد مكنت من سد فراغ مهول عن تطور المشروع الاستعماري في المغرب وعن الأوضاع التي كان عليها المجتمع المغربي خلال هذه الفترة. فالمكسب العلمي يظل مكسبا علميا مهما كانت الظروف التي أنجزته ومهما كانت الخلفيات التي من وراءه.

وتساهم هذه التقارير كذلك في معالجة إشكالية أساسية في تاريخ المغرب المعاصر، ألا وهي إشكالية الانتقال من مجتمع" مستقل" إلى مجتمع "مستعمر"، أي الانتقال من مجتمع ما قبل رأسمالي إلى مجتمع خاضع لإكراهات رأسمالية مفروضة من الخارج.

ولعل عدم الاستغلال المكثف لمثل هذه التقارير يعود بالأساس إلى ما تتطلبه من تقصي ومتابعة، وإلى قلة الدراسات المنوغرافية التي تمكن من استثمار هذه الدراسات لمعرفة المجتمع

المغربي في أدق تفاصيله، مع إمكانيات واسعة للمقارنة والبحث في مظاهر التشابه و الاختلاف. فالدراسات الشمولية لن تكون ذات جدوى دون توسيع دائرة الأبحاث المنوغرافية.

هوامش

1- Goudard (Capitaine), Le service des affaires indigènes du Maroc, La Revue d'Infanterie, V, 86, mars 1935, pp.487-488.
2- Ibid., p.495.
3- André, Adam, Bibliographie critique de sociologie, d'ethnologie et de géographie humaine du Maroc, Alger, 1972, p.27.
4- Cité par, Daniel Rivet, Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc, 1912-1925, L'Harmattan, Paris, 1988, pp.46-47.

5- إبراهيم، بوطالب،البحث الكولونيالي حول المجتمع المغاربي في الفترة الاستعمارية، حصيلة وتقويم، البحث في تاريخ المغرب، حصيلة وتقويم،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 1989،14، ص . 122.

6- Henri, Berriau(Colonel) , L'Officier de Renseignements au Maroc , Bulletin du Comité de l'Afrique Française , Renseignements Coloniaux, n° 7 et 8, 1918, p.86.
7- Ibid ; p.87.
8- Ibid ; p.88.
9- Jean, Paillard, Bâtisseurs d'Empires, Les officiers de renseignements au Maroc, Action Française, 21/10/1935.

10- علي، الطرابلسي، سمط اللئالي في سياسة المشير ليوطي نحو الأهالي، المطبعة الرسمية، 1925، ص . 184.

11- Charles, De Foucauld, Reconnaissance au Maroc, Société d'éditions géographiques, Paris, 1939.
- Georges, Gorée, Au service du Maroc, Ed. Bernard-Grasset, Paris.

12- دانيال، ريفي،"خطاب الفوضى المغربية وتنوعاته في بداية القرن العشرين"، ترجمة محمد المؤيد،أمل، عدد 5، 1994، ص 87.

13- Paul, Marty, Notice sur le Tadla, Ben Ahmed, 18 décembre1908.
14- Sumian, Notice sur les Ourdigha, Beni Khiran, Smaàla, 15 avril 1912.
15-Renseignements géologiques sur la région Chaouïa, Bulletin du Comité de l'Afrique Française, n°6, pp. 234-239.

16- Arthur, Pellegrin, Un Africain, Le Lt- Colonel Paul Marty, Sa vie et son œuvre, Edition De La Kahena, Tunis, 1939, p.14.
17- Ibid ; pp. 17-18.

# علاقة المرأة الشريفة بالسلطة

فاطمة العيساوي

كلية الآداب بنمسيك– الدارالبيضاء

## تقديم

أبدأ بملاحظتين أساسيتين:

**أولا**: اخترت الحديث عن هذا الموضوع لأسباب كثيرة أهمها:

– طبيعة المكان الذي نتواجد به ( مركز الدراسات العلوية )، والاهتمام بتاريخ المرأة الشريفة بدون شك يدخل ضمن اختصاصاته.

– الشرفاء جزء من النظام المخزني ولذلك لابد من البحث في تاريخ الوجه المؤنث لهذا النظام.

**ثانيـــا**: فيما يخص علاقة المرأة الشريفة بالسلطة سنركز على جانب واحد من هذه العلاقة؛ لما له من أهمية في تاريخ المرأة بالمغرب عموما ولما أثاره من نقاش وما عرفه من مستجدات في عهد السلطان مولاي يوسف، هذا الجانب هو ضابـــط زواج الشريفات.

## 1. " الضابط المخزني المؤسس لزواج الشرفاء ":

أثيرت في الوثائق اليوسفية ووثائق الحماية مسألة هذا الضابط بشكل جاد في عدة مراسلات سلطانية مع القضاة والنقباء، وحتى مع الفرنسيين.

ويقضي هذا الضابط بعدم زواج الشرفاء بالعوام؛ وتبرر نفس الوثائق هذا المنع بسببين رئيسيين همـــا:

- الحفاظ على النسب الشريف: كما يفهم من هذه الوثيقة " لا يخفى ما لجانب المخزن من الاهتمام بأمر الشرفاء العلويين من التحافظ على عدم دخول ما يشين نسبهم ولذلك كان التشديد قويا في قصر زواج الشريف بابنة عــه دون غيرهــا[12] ".

- التخوف من عنوسة النساء الشريفات: كما يؤكد ذلك ما جاء في هذه الرسالة " إن الضابط في زواج الشرفاء العلويين هو أن لا يتزوجوا بغير الشريفات بنات عمهم ليبقى نسبهم محفوظا وليلا تبور الشريفات[13] ".

وقــد كان تقنين زواج الشرفاء بالعوام موجها بصفة خاصة إلى النساء الشريفات لأن الواقع التاريخي يثبت بأن الشرفاء الذكور كان في إمكانهم عقد الزيجات مع النساء العاميات وكذا الإنجاب مع المستولدات؛ بينما كان يمنع على النساء الشريفات منعا كليا الزواج مع غير الشرفاء. ونجد تبرير ذلك في كتب النوازل التي تقول بأن الشرف يثبت من جهة الأم؛ فقد ذكر الورزازي في نوازله عندما " سئــل عمن أمــه شريفة هل يثبت له الشرف ويحترم بحرمته أم لا فأجاب قال الإمام العابسي كل من كانت أمه شريفة يثبت له الشرف ولذريته الشرف ويحترم بحرمة الشرفاء ويسلك في مسلكهم[14] ".

---

[12] رسالة موجهة إلى قاضي سلا في 7 شعبان 1331 / 6يوليوز 1913 ، كناش مخزني رقم 1330 ص 94 مديرية الوثائق الملكية الرباط.

[13] رسالة موجهة إلى النقيب مولاي سليمان العلوي بالرباط في 17 شعبان 1331 / 16 يوليوز 1913 ، كناش مخزني رقم 1330 ص 94 مديرية الوثائق الملكية الرباط.

[14] أجوبة الورزازي. مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د 2655 ص 2 ؛ وهناك كتابات سابقة للو رزازي تؤيد هذه المسألة منها " إسماع الصم في إثبات الشرف للأم " لمحمد بن أحمد بن محمد الشهير بابن مرزوق التلمساني المتوفى سنة 842 هـــ / 1438 م ، مخطوط بالخزانة العامة تحت رقم د 4783 .

## 2.خرق ضابط زواج الشريفات

رغم الحرص الشديد على ضرورة التمسك باحترام ضابط زواج الشرفاء فقد أثيرت في بداية عهد السلطان مولاي يوسف مسألة خرقه؛ وليس معنى هذا أن عدم الالتزام بحرفية الضابط كان أمرا طارئا؛ فقد سجل ذلك عدة مرات خلال القرن التاسع عشر؛ ولكن في الجهات النائية؛ أما في العقد الثاني من القرن العشرين فتتحدث الوثائق اليوسفية عن عدة خروقات فيما يخص هذا الضابط في كل من مدن الرباط وسلا وفاس والدار البيضاء. أي على مقربة من المخزن المـــركزي؛ فقد جاء في رسالة موجهة إلى الخليفة سيدي محمد المهدي ما يلي: " وبعد فقد أخبر الشريف النقيب مولاي عبد الله بن العباس العلوي أن الشرفاء صاروا يتسارعون للتزوج بالعاميات ويذرون بنات أعمامهم مهملات كما تشوق بعض العوام للتزوج بشريفة علوية وذلك كله خرق للضابط المؤسس من قديم في حصر زواج الشرفاء بعضهم بعضا[15] ".وطيلة السنوات الممتدة من 1331 إلى 1338 هـــ ( 1912 -1919 ) امتدت هذه الخروقات وامتد النقاش حولها بين الأطراف المعنية من ممثلي المخزن. نقرأ في رسالة موجهة إلى نقيب شرفاء الرباط ما يلي: " وبعد فقد أجاب القاضي الفقيه السيد محمد الرندة[16] عن تشكيك بخرق الضابط في زواج الشريفات العلويات بأنه لا علم عنده بضابط غير كون شريفات العائلة الملوكية لا يتزوجن إلا بأبنـــاء عمهن ولا يمس ( كذا ) هذا بخارق وأما ذكور الشرفاء فمعلوم تزوج بعضهم بغير العلويات كتزوجك أنت ببنت بوعزة ولد أعرشان[17] ". وقياسا بالمكانة العلمية التي كانت للفقيه محمد بن عبد السلام الرندة؛ يمكن معرفة أهمية رأيه وحدود النقاش الذي كان دائرا حول مسألة ضابط

---

[15] السلطـــان في 26 شعبان 1332 / 20 غشت 1914 ك 1330 مصدر سابق.

[16] هو محمد بن عبد السلام الرندة الأندلسي الرباطي ، الفقيه العلامة المشارك، تولى قضاء الرباط و رئاسة الاستئناف بها ثم وزارة العدلية، توفي في 1365 هـــ / 1946 . موسوعة أعلام المغرب، تنسيق وتحقيق محمد حجي ج 9 ، بيروت، دار الغرب الاسلامي 1996 ص 3208 .

[17] في متم شهر صفر 1338 / 23 نونبر1919 . المصدر السابق ص376 .

زواج الشريفات خلال عهد السلطان مولاي يوسف. أما موقف المخزن فقد كان متشددا في أغلبه تجاه هذه الخروقات؛ وقد كان هذا الموقف يتراوح بين عدة إجراءات منها:

1 . توجيه رسائل قوية اللهجة إلى النقباء من أجل" التشديد عليهم في المنع وقوفا مع الضابط المذكور[18] "وأمـــر القضاة والعدول بألا يأذنوا " في تزوج ذوات النسب العلوي وذويه بمن ليس من نسبهم بأي وجه كان إلا بإذن شريف خاص[19]. "

2 . التشجيع على فسخ زواج المخلين بالضابط، نقرأ في رسالة موجهة إلى نقيب مدينة سلا ما يفيد ذلك، جاء فيها: " وبعد وصل جوابك عن شكاية سيدي محمد من رشيد بأنه كان طلق زوجته وأراد مراجعتها فمنع منه بأنه كان تزوج في غيبتك بامرأة عامية لا يناسب تزوجه بها لما شرحته من حالها وحين حضرت ووجدته متزوجا بها فوعظته وحذرته فاتعظ وطلقها وبعد طلاقها بأربعة أيام ندم على فراقها وطلب منك مراجعتها فعلقت رجوعها له على إذن جناب المخزن وأطلعنا بذلك شريف علم سيدنا فصار أعزه الله منه على بال وأمر دام علاه بعدم مساعدته على مراجعتها وعليه فـــلا تساعده على رجوعها لعصمته عن الأمر الشريف أسماه الله والسلام[20] ".

3 .العقوبة بالسجن التي كانت تطال الزوجين والعدلين الذين حررا عقد زواجهما؛ كإحدى الشريفات التي حاولت التملص من الضابط بالتوجـــه من ســـلا إلى الدار البيضـــاء للعقد عليها " وقد جعل المخزن اللازم في ذلك من تربية الزوجين والعدول الخائضين في عقد النكاح لهما بدون إذن ولكن حيث كان العقد صحيحا شرعا حسبما أمر بذلك قاضي الدار البيضاء وكانت التربية بلغت حدها

---

[18] رسالة موجهة إلى الخليفة سيدي محمد المهدي. المصدر السابق ص 165 .

[19] رسالة موجهة إلى نقيب العدوتين بالرباط في 8ربيع الثاني 1331 / 17 مارس 1913 ، كناش مخزني رقم 1330 ص 94 مديرية الوثائق الملكية بالربـــاط.

[20] رسالة موجهة إلى نقيب ســـلا في 23 شعبان 1338 / 12 أبريل 1920 . نفـــس المصدر ص 389 .

في الزوجين معا فقد أدركتهما شفقة مولانا نصره الله ووافقهما على تلك الزوجية حيث وقع ونزل وأعلمناك لتكون على بال[21] ...

## 3.المستجدات الطارئة مع الحماية الفرنسية

الجديد في موضوع ضابط زواج الشرفاء هذا هو مشاركة الفرنسيين في الخوض فيـــه؛ وقد رصدنا ذلك على مستويين:

1. التدخل في منح الإذن في الزواج بين الشرفاء والعوام؛ وتمثل هذا المستوى حالة تدخـــل المكلف بأشغـــال البلدية بالرباط والكاتب العام للإقامة الفرنسية في هذا الأمر كما توضح ذلك الوثيقة التالية:

" المحب المحترم جناب القبطان مسيو نورمان الفرنسوي المكلف بالأشغال البلدية بالرباط بعد السلام التام فقد وافانا مسطورك في قضية الشريف سيدي محمد بن المامون العلوي الذي يروم إعطاء الإذن المخزني في التزوج بغيـــر الشريفة لكون ذلك محجرا عليهم بأمر مخزني وأنه لوجود أناس منحوا الإذن بمثل ذلك سابقا طلبت مباشرة حصول الشريف المذكور على مرامه وصار بالبال وقد عرضت المسألة على نظر الكاتب العام وصدر خطابه في ذلك لوزير العدلية بما اقتضاه الحال وستتم المباشرة على يد المذكور وتعلم بنتيجتها ودمتم في هناء دائم والسلام[21] ".

2. المواجهة مع نقيب الشرفاء بالتدخل في مهامه والحد من سلطته ونفوذه فيما يتعلق بضابط زواج الشرفاء. وكنموذج على ذلك حالة مولاي عبد الحفيظ نقيب الشرفاء العلويين بمدينة الدار البيضاء الذي جرت بشأن منعه من إجبار شريفة على الزواج عدة مراسلات من أطراف متعددة:

---

[21] في 4 جمادى الثانية 1331 / 11 مايو 1913 . المصدر السابق ص 81 .

-الكتابة العـامـــة للإقـامــــة

ـــ مصلحـــة المراقبيـــن المدنييـــن بالـــربـــاط

ـــ المراقب المدنـــي لجهـــة الشـــاويـــة بالدار البيضـــاء

وتلخص حالة هذه القضية رسالة موجهة من مفوض الحكومة الشريفة إلى المراقب المدني رئيس جهة الدار البيضاء وقد جاء فيها ما يلي:" يشرفني أن أوجه لكم ضمن هذه المراسلة نسخة رسالة للسيد Jean، المهندس المعماري بالدار البيضاء، في موضوع إحدى خادماته الأهليات.فهذه المرأة شريفة علوية؛ ويريد مولاي عبد الحفيظ، نقيب الشرفاء العلويين بالدار البيضاء إجبارها على التزوج من أحد شرفاء هذه المدينة. ولما رفضت هذه الشريفة طلب مولاي حفيظ القاضي والباشا بسجنها إلى حين الحصول على موافقتهـــا.

وقد استقبلت أمس النقيب المذكور، الذي زارني وألح لدي من أجل الحصول على استعمال وسيلة الإكراه هاته، ولم يفتني أن أنبهه إلى مدى الأسف والإزعاج الذين ينتجان عن استعمال هاته الوسائل. فالشريفة المذكورة، نظرا لأنها سبق لها الزواج، تصبح شرعيا حرة في رفض الزوج الذي يراد فرضه عليها. ومن جهة أخرى فإن سلوكها جيد ولا تمارس الدعارة أبدا ولذلك فإن النقيب ليس له أن يخاف منها أن تلطخ سمعة الشرفاء ولا في أن تتسبب لهم في أية فضيحـــة.ويظهر أن النقيب الذي يجب عليه أن يتوقف عن استعمال مثل هذه الحجج يعتبر أن المخزن لم يعد يدعمه كما يجب لكي يقوم بمهامه.

أنا لا أتجاهل أبدا السلطات المخولة له بواسطة الظهير الذي بيده. وأنـــا أول من يقدم له كل المساعدة الممكنة، كما أنني بشكل عام أتحاشى بحذر كبير كل تدخل في القضايا التي يكون الشرفاء طرفـــا فيها.

ومع ذلك فإنه يبدو، في هذه الحالة الخاصة، أن مولاي حفيظ يعطي الدليل على ضيـــق فـــي الأفق، مؤسف جدا، لكي لا أقول شيئا أكبر"[22].

نخرج من هذه الوثيقة بعدة استنتاجات نذكرمنها:

- المطالبة باستخدام وسيلة الإكراه البدني بالنسبة للشريفة المذكورة لإجبارها على قبول الزواج من شريف لم تكن أمرا جديدا؛ فقد سبق أن ذكرنا من قبل أن عقوبة السجن خلال عهد السلطان مولاي يوسف كانت تطال الزوجين والعدول العاقدين لهما، وهذا يدل على رغبة المخزن اليوسفي في المواجهة بصرامة كل من يبادر إلى خرق ضابط زواج الشريفات مقتديا في ذلك بردود فعل المخزن تجاه هذا الخرق خلال القرن التاسع عشر[23].
- لابد من الربط بين تزايد خرق ضابط زواج الشريفات ووجود الحماية الفرنسية وهذا بـــدوره يقودنا إلى نتيجتين: 1. سياسة ليوطي القائمة على احترام تقاليد الأهالي لم تكن دائما مطبقـــة على أرض الواقع2. اختراق سلطات الحماية للمخزن التقليدي الذي كان يقال أنه مجال عمل السلطان، فكل ما هو عصري ومادي من اختصاص الحماية الفرنسية وكل ما هو تقليدي وروحي ( الشرفاء، الزوايا ، الأضرحة...) فمن اختصاص المخزن.

---

[22] في 14 نونبر 1924 وتوجد هذه الوثيقة ضمن وثائق المغرب بالأرشيف الديبلوماسي بمدينة نانط بفرنسـا.

[23] رسالة من القائد البرزوني إلى السلطان في 4 ذي القعدة 1314 / 6 أبريل1898 مح 325 خ ح.

# بعض التحولات الاجتماعية على عهد السلطان مولاي يوسف:

## تعليم المرأة نموذجا

محمد اليزيدي

كلية الآداب ظهر المهراز– فاس

حضيت التحولات الاقتصادية والسياسية بمغرب الحماية باهتمام العديد من الدارسين والباحثين، كما شكلت مواضيع خصبة وحقولا معرفية تناولتها بالدراسة والتحليل العديد من الكتابات الاستعمارية، بالمقابل ظل البحث في حقل التحولات الاجتماعية ضحلا ولم يتم مقاربة مختلف جوانبه بشكل دقيق ومعمق، إن ما نروم القيام به في هذه المساهمة هو الإحاطة بالتغيرات التي عرفتها المرأة المغربية عامة والمرأة الفاسية بشكل خاص مركزين بشكل أساسي على قضية التعليم.

### تعليم الفتيات بمدينة فاس ( 1914 – 1956 )

رغم الوضع الحساس الذي كانت تحتله المرأة داخل المجتمع المغربي، وتحفظ غالبية الناس في إرسال بناتهم إلى " المسايد"، فإن ذلك لم يمنع من وجود " كتاتيب لتعليم القرآن عرفت بدور الفقيرات ( أو الفقيهات) كن يعلمن في دورهن (...) صيانة لهن عن الخروج إلى أمكنة عامة، كمسايد الأطفال، فكانت البنت بهذا المعهد تتلقى مبادئ القراءة والكتابة وسورا من الذكر الحكيم"[24]، كما كانت العائلات الميسورة تستعين بالفقيرة أو للاالطالبة الموجودة في

---

[24] – الجراري ( عبد الله ) ، من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين ، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مطبعة الأمنية ، الرباط ، 1971 ، ص : 63.

البيت في تعليم الفتيات القراءة والكتابة وإمامة النساء في الصلاة[25] ،لذا لم يكن تعليم الفتاة غائبا بالمرة عن المجتمع المغربي ، حيث لم يتوان الفرنسيون أنفسهم عن الإشارة إلى هذه المسايد التي اعتبرها بيرتيي مدارس قائمة بذاتها، وأن عددها بمدينة فاس يصل إلى خمسة عشر مدرسة موزعة على الحارات الآتية :

1 – المخفية،2 – سيدي محمد بلفقيه، 3– فندق اليهودي، 4- الكدان، 5–رأس الجنان، 6- غرنيز، 7– زقاق الحجر، 8 – درب مينة، 9- عقيبة بن صوال، 10 – زنيقة حجامة، 11 – العيون ،12- القواس،13 – سيدي أحمد بن يحيى، 14 – درب بن المواز،15 – وترتادها العديد من الفتيات اللواتي يتعلمن القراءة والكتابة[26] قبل أن يغادرن نهائيا هذه المؤسسات غداة بلوغهن سن 12 أو 13 سنة ، بيد أن هؤلاء الفتيات يشكلن استثناء إذ لا ينظر للمرأة المتعلمة بعين الرضا لأنها تحيد عن الصواب"[27] ونفس الرأي " يورده مشوبلير" ، ويضيف " إن الرجل يجد في جهل المرأة وسيلة لتأكيد قوته، وهيمنته عليها وإبقائها في حالة دونية"[28]. ورغم وجود هذه المسايد فإن عددها كان قليلا، واقتصر في الغالب على بنات الفئات الغنية، وتمركزت على الخصوص في المدن الكبرى، وهو ما يفسر وجود أكثر من مائتي بنت تتعلم القراءة والكتابة في مدينة فاس قبل الحماية[29] ، فما هي التحولات والتغيرات التي ستطرأ على وضعية المرأة بعد توقيع معاهدة الحماية؟

---

[25] – Masson ( Mlle), « Note sur la femme Marocaine », in Entretiens sur l'Evolution des pays de civilisation arabe , T. III, 3ème année, 1938, p. 73.

[26] – Péritié, « Les Medrasas de Fès », **Archives marocaines, XVIII, 1912**, p. 312.

[27] – Ibid , p. 313.

[28] - Bellaire (Ed. M.). « L'enseignement indigène au Maroc », **R.M.M. Tome 15,** 1911, p. 449.

[29] – الحجوي ( محمد بن الحسن )، **المحاضرة الرباطية في إصلاح تعليم الفتيات بالديار المغربية**، مطبعة النهضة، تونس، د.ت.، ص.36.

- دعوة الحجوي لتعليم الفتاة

امتلك الحجوي من الجرأة وسعة العلم ما جعله يخوض في قضية لم يسبقه إليها أحد، لذا كان أول من كتب وحاضر في الموضوع، ودفعه موقفه هذا إلى الاصطدام برجال المؤسسة المخزنية المتشددين في تعليم الفتاة. لقد أقام الحجوي دعوته على مبادئ عمدتها الإجتهاد ومصدرها معرفته الفقهية الواسعة، كما يظهر ذلك جليا في محاضرته التي ألقاها بتونس سنة 1923، حيث يقول: "الموافق لدينا وعوائدنا وقابلية أمتنا أن نربي البنات على تعلم العقائد الدينية والفقه الضروري وآداب الدين وما تيسر من القرآن العظيم، وهذا لا يخالف فيه مسلم لأن النساء شقائق الرجال في الأحكام فتعلمهن ــ مع ذكر هذا المضمون في المناسبات السانحة التي تكفل الإشعاع والذيوع مع وسائله التي توصل إليه ــ واجب بلا شك"[30]، ويقول في مسامرة ألقاها براديو المغرب يوم الخميس 19 رمضان المعظم 1358 " وتعليمهن من واجبات الدين تعليما يناسب وظيفتهن في المجتمع"[31]، ولاقى الحجوي في دعوته هذه معارضة من قبل الصدر الأعظم محمد المقري، وعدد من العلماء المختلفين معه في الرأي نتبينها من خلال أعمال الدورة الثانية للمحاضرات والمسامرات بالمعهد العالي للدراسات المغربية المنعقد بالرباط سنة 1925 / 1344[32]، والتي شارك فيها الحجوي بموضوع " تعليم الفتاة ومشاركتها في الحياة" . وأثناء إلقاء محاضرته تدخل الرئيس المقري وأوقف المحاضر قائلا : " إن الدين الإسلامي لا يساعد على تعليم البنت تعليما يجعلها تشارك الرجل وتزاحمه في الحياة ، وملقيا في نفس الوقت سؤالا على الشيخ أبي شعيب الدكالي، فما قولك أيها الأستاذ في الموضوع ؟ : أيجوز هذا أم لا يجوز ؟ فأجابة الشيخ بالمنع (...) وللحين سقط في يد المحاضر الحجوي فجلس دون أن يتم

---

30 - الحجوي ( محمد بن الحسن )، المحاضرة الرباطية ... ، مصدر سابق ، ص .1.

31 - نفسه، المعارف وجهود الحكومة، م. خ. ع. رقم : 199 ، ص.9.

32 - وعند سعيد بن سعيد العلوي، سنة 1921، في الوطنية والتحديثية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997. ص : 73.

المحاضرة[33]، ولم يكن هذا الرد ليثني عزيمة الحجوي أو يلجمه، فحرص على ضحد رأي معارضيه وإبطال مزاعمهم باستكناه أصول التشريع ( الكتاب والسنة) وبعض مقاصد الشرع، ونقد شبهات المنع عن المخالفين " هذا وإني أعلم أن الذين أنكروا علي الحث على تعليم البنات لهم قصد حسن وغيره حملتهم على ذلك، وقصدهم هو سد الذريعة خوف الوقوع في العار وفي مفاسد ربما تنشأ عن تعلمهن، لكني أقول لهم : إن هذا رأي متطرف عن الشريعة الإسلامية في منع النساء من العلم، وأحقق لكم أنه لا مفسدة، إذا علمن التعليم الذي أريده، على الكيفية التي أوضحتها"[34].

إن الزاوية التي كان ينظر منها الحجوي لتعليم الفتاة لم يكن ليتفهمها الوسط المغربي آنذاك لقد كان هدف المندوب المخزني أن لا تتعلم الفتاة المغربية على أيدي الأجانب لأن " الواجب يفرض علينا تعليم البنات ولا نتركها لغيرنا من دون مراقبتنا"[35]، لما في ذلك من خطر عليها وعلى المجتمع المغربي حيث يقول الحجوي : " ولعله عن قريب سيجيئ يوم نندم فيه غاية الندم على ترقية البنت، ونجدها أفلتت من يدنا جاهلة لعلومنا الصالحة لنا، فتتعلم علوما لا تليق بنا وتكون أعظم كارثة عاناها المغرب"[36]، وبناء على ذلك رفض الحجوي تعليم الفتاة على الطريقة الأوروبية لما في ذلك من مفسدة وآثار وخيمة على المجتمع،" ... ولا نربي البنت تربية أوروبية ولا نعلمها لغة أجنبية"[37] ثم يضيف و" إنما المفسدة في تعليمهن تعليما إفرنجيا"[38].

---

[33] – الجراري ( عبد الله ) ، من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين ، الجزء 1 ، مرجع سابق ... ، ص : 68.

[34] – الحجوي ( محمد بن الحسن ) ، **المحاضرة الرباطية** ... ، مصدر سابق، ... ص: 28.

[35] – نفسه ، **كناشة بنيقة المعارف**، مخ.خ . ع. تحت رقم 127، ص. 184.

[36] – الحجوي ( محمد بن الحسن )، " تعليم الفتيات لا سفور المرأة " ، في **الاجتهاد والتحديث سلسلة الفكر الإسلامي المعاصر**، مركز دراسات العالم الغسلامي مالطة 1992، ص. 215 – 216.

[37] – نفسه ، المحاضرة الرباطية ... ، مصدر سابق، ... ص3

[38] – نفسه ، ص : 28.

## – الحماية وتعليم الفتيات

يدخل اهتمام الحماية بالمرأة المغربية في إطار سياستها الهادفة إلى غزو المجتمع المغربي وإعادة تشكيل بنياته بعيدا عن كل ما من شأنه النهوض بمستواها الثقافي والاجتماعي ، ذلك أن حضور المرأة في خطاب الاحتلال كان نابعا من الفلسفة الاستعمارية وأبعادها العميقة القاضية باختراق الإنسان المغربي والمس بقيمه و مقدساته، يقول دلاسوس: " إن الوسط المحلي ينقسم إلى قسمين ، وإذا انصب اهتمامنا الحضاري على قسم دون آخر سيصعب إيجاد اتفاق بين عالمين أحدهما يفكر وأخر لا يفكر"[39] . وتتأكد مرجعية الاستعمار ومنطلقاته من خلال ما كتبه برونو" علينا أن نعلم جليا أن هدفنا ليس هو تقدم المواطن المغربي، أو عتق العبيد أو تحرير المرأة" [40] بل كان هدف الفرنسيين الوصول إل مبتغاهم عن طريق استعمال هذا العنصر ، فهي أداة تأثير على الأسرة رجالا وفتيانا ، واستدل الفرنسيون على دورها الهام " بأنهم عجزوا عن الوصول إلى كثير من أبناء العائلات، بسبب وقوف المرأة في وجوههم وامتناعها عن السماح للأبناء بالدخول للمدرسة الفرنسية"[41] ، ويزكي بول مارتي الاتجاه نفسه في كتابه " مغرب الغد " فيقول: " إن تعليم المرأة سيعين لا محالة على تليين مواقف العائلات اتجاه التعليم( ...) والحيلولة دون توجه الشباب للبحث عن زوجة متعلمة في مصر والمشرق كما حدث بتونس"[42] ، وبناء على هذه المرجعية اتجهت إدارة التعليم لإنشاء أولى مدارس الفتيات بسلا سنة 1913 من قبل إحدى المستعربات التي اقتنعت أنها لا يمكن أن تنطلق إلا مما هو موجود : أي مشاغل الطرز الموجودة بمدينة سلا، وذلك بمساعدة من " المعلمة " سليمانة، وهكذا ظهرت أولى مدارس الفتيات بالمغرب، بيد أن لوطورنو يتحفظ من إطلاق مصطلح مدرسة على هذه

---

39 – Delassus (A), La conquête morale des indigènes, lib. Pour tous, 1913, p. 63.

40 - Brunot ( L ) , « Aux conscrits de l'enseignement indigène », B.E.P.M, N° 24, année 7, 1921, pp. 444-445.

41 – الوزاني ، حياة وجهاد ، دار الغرب الإسلامي، 1982، ص287.

42 - Marty (P.), Le Maroc de demain, publication du C.A.F.,1925, p. 198.

المؤسسة التي لم تكن تدرس فيها أي مادة باستثناء الطرز والخياطة، وسرعان ما امتدت التجربة لتشمل مدن الرباط 1914 ومكناس 1915 ، إلا أنها لم تستمر طويلا عكس ما حدث بالنسبة لمدارس الصويرة سنة 1915 ، والبيضاء سنة 1916 ، ووجدة سنة 1918 ، ومراكش سنة 1919[43] . فما هي البدايات الأولى لظهور تعليم نسوي بمدينة فاس؟.

## – البدايات الأولى لفتح مدارس الفتيات بفاس

### أ – محاولة سنة 1914

غالبا ما يرتبط الحديث حول هذا النوع من التعليم بالجدل الذي آثارته محاولة مدير ثانوية مولاي إدريس فتح مدرسة خاصة بالفتيات في العشرينيات، وما أثار ذلك من ردود فعل في الوسط الفاسي، غير أن " كودفروي دمومبين" يورد أن التجارب الأولى ترجع لسنة 1914 ، حيث استطاعت إحدى الفرنسيات المستعربات جمع بعض الفتيات المنحدرات من أوساط غنية لتلقينهن بعض المهن اليدوية وتعليمهن اللغة الفرنسية واللغة العربية الفصحى، إلا أن رحيل المعلمة المستعربة عجل بفشل هذه المحاولة[44] .

إن ندرة المعلومات حول هذه البدايات وعدم إيلائها ما تستحق من عناية من قبل الدارسين ، دفعتنا للبحث آملين استجلاء هذا الغموض ، وبالفعل فإن الفترة كانت غنية وسجلت محاولات تنظيم تعليم نسوي بمدينة فاس من طرف مفوض إدارة التعليم " بل"، وقد وقفنا على مختلف تقارير هذا الأخير ومراسلاته في الصناديق الخاصة بتعليم الفتيات ضمن محفوظات مركز الأرشيف الدبلوماسي الفرنسي بنانط[45]، فخلصنا منها إلى أن البدايات الأولى ترجع لسنة 1915 ، وبالضبط 7 أبريل حيث تم فتح أولى الفصول بدرب بوعياش، ضم ما بين 24 و 25 تلميذة ينتسبن لأعرق العائلات بمدينة فاس. وأخذت البلدية على عاتقها تمويل

---

[43] - Le Tourneau (R.), "L'enseignement des filles musulmanes au Maroc", Fonds le Tourneau Aix-en-Provence 7 POM, 23, p.2.

[44] -Demombynes ( R.G), L'oeuvre française en matière d'enseignement au Maroc, lib. Orientaliste, 1928, p. 153.

[45] A.D.N., Série D.I.P., Carton 6.

المدرسة وتجهيزها على الطراز المغربي[46] . ولم توفر ميزانية إدارة التعليم سنة ( 1915 – 1916) أي دعم لهذا المشروع، واستمرت البلدية في تمويله ما دامت الاستفادة منه تكتسي طابعا محليا على مستوى مدينة فاس . وكان الإشراف على هذه المدرسة موكولا إلى زوجة مفوض التعليم" بل" وإحدى المعلمات الفرنسيات ، وللإشارة تعرضت هذه المدرسة لسرقة محتوياتها في 11 ماي 1915[47]، واستحسنت العديد من العائلات هذه التجربة ، مما دفع " بل " إلى الإقدام على فتح فصل خاص اقتصر فيه التدريس على بنات خمس عائلات عريقة : مولاي علي الكتيري ملاك، وإدريس بن عبد الجليل خليفة الباشا ومولاي إديس العمراني باشا سابق بالدار البيضاء، ومحمد غرنيط محتسب فاس الجديد والجزائري مدير مدرسة اللمطيين ، حيث حضرت التلميذات إلى المدرسة مصحوبات بخادماتهن، فلم تكن العائلات لتقبل بذهاب الفتيات إلى المدرسة لوحدهن[48].

– إنشاء مشغل خاص بالفتيات الفقيرات

لم تلق محاولة " بل" هذه الدعم من قبل إدارة التعليم مما جعله يتوجه نحو " سانت أوليز" Saint Aulaire لتوفير الإمكانيات الخاصة بهذا المشروع الذي لم يكن يكتسي طابعا تجاريا، إذ انحصرت مهامه في اختراق الأوساط الفقيرة والمتوسطة التي ظلت بعيدة عن التأثير الفرنسي وتكوين " خادمات للبيوت الفرنسية" كما أكد على ذلك " بل"[49].

إضافة إلى ذلك كان من المزمع خلق مدرسة خاصة بالتربية النسوية إلا أن ذلك لم يعرف النور[50]، ولا نجد بعد سنة 1916 أي إشارة لتعليم نسوي بمدينة فاس ، مما يدفعنا إلى القول: إن مشاريع " بل" ، قد آلت إلى الزوال بعد مدة قصيرة من وجودها نظرا لعدم إقبال

---

46 - Ibid., Bel (A), Rapport sur l'enseignement des fillettes indigène, avril 1916.
47 -Ibid., Bel (A), Ecole des fillettes indigènes, N° 70.m 9 juin 1915.
48 - Ibid., Bel (A), Rapport sur la création d'un cours pour les fillettes, 20 janvier 1916.
49 -Ibid., Bel (A), Ecole des fillettes indigènes, N° 70.m 9 juin 1915.
50 - Paye (L), **Introduction et évolution de l'enseignement moderne au Maroc,** imp. Arrisalat, 1992, p. 312.

الوسط الفاسي عليها من جهة ، وتحفظ إدارة الحماية في المضي قدما في تعليم الفتاة من جهة أخرى.

### – محاولة 6 مارس 1923.

أثارت محاولة فتح مدرسة خاصة بالفتيات سنة 1923 ومعارضة المجلس البلدي لذلك جدلا كبيرا تداوله مارتي في كتابه " مغرب الغد"[51] ، ومحمد حسن الوزاني في كتاب " حياة وجهاد" [52]، إلا أن العديد من الحيثيات والظروف التي أحاطت بهذا الموضوع وكذا موقف بعض الشخصيات النافذة سواء داخل المؤسسة المخزنية أو فئة العلماء لا نجد لها أي صدى مما حتم علينا العودة إلى التقارير الأصلية لمدير ثانوية مولاي إدريس بول مارتي، التي يستفاد منها أن هذا الأخير أنيطت به مهام خلق مدرسة للفتيات من قبل مدير التعليم جورج هاردي كلما سنحت الظروف السياسية بذلك، وبالفعل تداول مارتي الفكرة مع العديد من الأعيان ومفوض إدارة التعليم بمدينة فاس " جوليفي" Jolivet ، فلاقت الفكرة ترحيبا من قبل الوسط الفاسي وتكللت مجهودات المعلمتين المستعمرتين بتسجيل 30 فتاة [53] ينتمي بعضهن إلى شخصيات مهمة في المخزن المغربي فكان منهن لأحمد المقري أخ المصدر الأعظم ثلاثة فتيات، والخليفة بوعشرين بنتان وللقاضي محمد بلعربي العلوي مثل ذلك[54]. و لإضفاء الشرعية على هذه المدرسة تقرر وضعها تحت وصاية المجلس البلدي الذي رحب العديد من أعضائه بشكل فردي بهذه المبادرة " إلا أن كسب الفرد على حدة لا يعني إقناع الجماعة، فبعد اجتماع المجلس تبين لي بشكل جلي أن القناعة الجماعية لم تكن هي قناعة كل عضو على حدة، فإذا كانت المشاريع السابقة، كالمعهد العلمي الملحق بالقرويين والمعهد الفلاحي والمدرسة المهنية، قد حظيت بموافقة الكل، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لمدرسة الفتيات، فبعد نصف ساعة من النقاش تحول

---

[51] - Marty (P), **Le Maroc de demain** .., op. cit. p.199.

[52] – الوزاني ( محمد حسن ) **حياة وجهاد**، مرجع سابق، ... ص .288.

[53] - **A.L. M. I.**, Dossier enseignement des filles, Création d'une école musulmane à Fès, 16 mars, 1923.

[54] - Ibid.

أنصار المشروع بالأمس إلى أشد معارضيه"[55] وحاول ماري التدخل لإقناع المجلس بإعطاء أمثلة على التقدم الذي عرفته مدارس الرباط وسلا وبعض البلدان العزيزة على المغاربة، كمصر، وسوريا، وتركيا حيث تتابع الفتاة دراستها العليا منبها إلى الخلل الذي سينجم نتيجة انعدام التوازن في التعليم بين الرجل والمرأة ، إلا أن شيئا من هذا لم يقنع المجلس الذي برر رفضه بكون نساء فاس لسن كمثيلاتهن، فهي المدينة الوحيدة التي طلب فيها الرجال من السلطان إقرار ظهير يمنع بموجبه النساء من التنزه بالمدينة الجديدة، كما صرح أعضاء المجلس : " إننا لا نتحكم في نسائنا وهن أميات فكيف سيصير الأمر إن أصبحن متعلمات"[56] . وأصبحت القناعة أكيدة على أن الوقت لم يحن بعد لتعليم الفتيات وفضل ماري عدم الدخول في مواجهة التيار المعارض تلافيا للمشاكل التي قد تنجم عن ذلك،وعول على النجاح الكبير لمدرسة الرابطة اليهودية التي كانت تضم أكثر من 40 فتاة ، وعلى النهج الذي سار عليه الشرق الإسلامي في تغيير وجهة نظر الفاسي اتجاه تعليم الفتاة.

### - موقف الحجوي والقاضي بلعربي العلوي

إذا كانت مواقف الحجوي من تعليم الفتاة معروفة من خلال كتبه ومحاضراته، فإن موقفه من فتح مدرسة فاس سنة 1923 لا نجد له حديثا يذكر، إلا ما وقفنا عليه من إحدى المراسلات الخاصة الموجهة من مدير مصلحة التعليم الإسلامي " لوي برونو" إلى بول ماري، والمتضمنة لرأي الحجوي الذي صرح قائلا: " كان من الواجب عدم عرض هذه القضية على المجلس البلدي لأن السياسة العامة لا تدخل ضمن اختصاصاته"[57]، غير أن ما أثار اهتمامنا بشكل كبير هو الموقف المؤيد لضرورة تعليم الفتاة من طرف أحد رموز السلفية المغربية وهو القاضي محمد بلعربي العلوي، وإن كنا لم نقف على إشارات إلى موقفه ذلك في المصادر عدا ما ذكره الجراري في كتابه " أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين ": " ولما كان عليه جمهور الشعب

[55] –Marty (P), **Le Maroc de demain** ..., op. cit, p. 199.

[56] - Ibid., p. 200.

[57] - **A.L.M.I**, Enseignement des filles : Note adressée par Brunot au Directeur du CMI, n° 28 mars 1923.

المغربي من معارضة في تعليم البنت وتثقيفها ، قام وزير العدلية الشريف محمد بلعربي العلوي فألقى محاضرة في تحبيذ هذا التعليم وضرورته للفتاة المغربية بواسطة الإذاعة المغربية يوم ثالث عيد الفطر عام 1362 هـ ، موافق ثالث أكتوبر1943 [58] ومما جاء في محاضرة القاضي العلوي "...كان الواجب أن تذرع بدرع من العلم حصين و تسلح بالمعارف و الأخلاق الدينية الفاضلة للقيام برعايتها و إمارتها أتم قيام و أحسنه، أما إذا أسندت إليها هذه المهمة و حملت هذا العبء الثقيل و هي عزلاء من كل علم و معرفة خالية من كل تربية و تجربة، فإنها تعجز لا محالة فتضيع ولايتها وينبني بيتها على جرف هار [59]:" ... إلا أن موقف العالم محمد بلعربي العلوي لا يعود لهذا التاريخ، بل يرجع إلى فترة جد متقدمة من بداية العشرينات، فقد تمت الإشارة سابقا إلى تسجيل ابنتيه بالمدرسة التي كان من المزمع فتحها سنة 1923، إلا أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، وقد بلغ من حماس بلعربي و إيمانه بموقفه أن تدخل غداة رفض المجلس البلدي لهذا المشروع لدى "مارتي"مطالبا بضرورة فتح هذه المدرسة بابنتيه و 12 فتاة سيتكلف بإحضارهن من البادية، كما رشح نفسه لرئاسة لجنة رعاية المدرسة[60]،غير أن مارتي لم يحبذ الاقتراح واعتذر عن ذلك.

وإذا كان موقف القاضي العلوي بهذه الدرجة من الحدة و الإصرار، فإن لنا أن نتساءل عن فتور ردود الخصوم وهم كانوا أعق لدعوة الحجوي من قبل و أشد خصومة له.

ثم لماذا اكتفى مارتي في كتابه "مغرب الغد" بالإشارة إلى أن أحد القضاة كان من وراء الدعوة لفتح مدرسة سنة 1923، و لم يشر إلى جهود القاضي محمد بلعربي العلوي؟.

---

[58] - الجراري ( عبد الله )، من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين ....، مرجع سابق، ص.76.

[59] - نفسه، ص.77.

[60] -**A.L.M.I, Dossier enseignement des filles, Marty, création d'une école musulmane à Fès, Mars 1923.**

## – انعكاسات التعليم على الوسط النسوي بمدينة فاس

إلى حدود أواخر العشرينات لم يطرأ تغيير يذكر على وضعية الفتاة في مدينة فاس، وقد وقفنا على ذلك من خلال الدراسة القيمة التي أنجزتها الآنسة " كواشو" Goichon ما بين فاتح غشت و فاتح نونبر 1924 ، وهي عبارة عن تقرير عن المرأة الفاسية في 92 صفحة، تم تقديمه لـــ " بول مارتي" قبل أن يتم نشره خمس سنوات بعد ذلك في مجلة دراسات إسلامية [61] . فباستثناء مطالب الشبيبة بتكوين زوجات متعلمات وانحصار هذه الفئة في أعداد قليلة[62]، لا نجد معلومات تتعلق بانعكاسات التعليم على الوسط الفاسي إذ ركزت " كواشون" اهتمامها على الخصوص بالعلاقات الاجتماعية (الزواج ـــ تربية الأطفال...)، والجوانب الصحية والطبية، لذا بقيت المرأة الفاسية محافظة على مكانتها بعيدة عن التحولات التي كانت تشهدها الحركة النسوية في المشرق"، فالحملة التي قادها قاسم أمين ما بين سنتي 1899 و 1908، أو الحركة التي قادتها هدى الشعراوي سنة 1920، حيث أنشأت الاتحاد النسوي المصري ومجلة المصرية " والمظاهرات النسوية بسوريا ما بين 1921 و 1941[63]، لم تتردد أصداؤها بشكل كبير في المغرب ، وكان من اللازم انتظار تخرج أولى أفواج الشبيبة المتعلمة التي تبنت مشكل تعليم الفتاة وأصبحت تدافع عنه متخذة من الصحافة منابر للدعوة للنهوض بوضعية المرأة المسلمة، حيث ظهرت عدة مقالات في جريدة " عمل الشعب" ومجلة " مغرب" التي كانت تصدر بباريس، ومن جهته ساند القصر هذه الدعوة من خلال تشجيع الأميرة عائشة التي كانت " تستنهض همم نساء وفتيات المغرب وذلك بحظهن على الاقتداء بزعيمات النهضة في مصر

---

[61] - Goichon « La femme de la moyenne bourgeoisie Fasiya », **Revue Etudes Islamique**, mai 1929.

[62] - Idem, Rapport sur la femme musulmane à Fès, 1924, p. 58.

[63] - Boubakeur (H), « La musulmane Nord – Africaine d'aujourd'hui », **Rytmes du Monde, N° 1950, p. 28.**

وعلى السير على النهج الذي سارت عليه المرأة المشرقية"[64].رغم هذه الدعوة بقيت الحركة النسوية في المغرب بعيدة عن الأشواط التي قطعتها نظيرتها في المشرق إلا أن ذلك لم يمنع من تغيير نسبي في تعامل الأوساط المغربية وعلى الخصوص النخبة المثقفة مع تمدرس الفتاة، إذ انعكس ذلك على أعداد الفتيات المقبلات على التعليم وبالخصوص في الوسط الحضري، فبمدينة فاس بلغ عدد المتمدرسات سنة 1952 حوالي3000 تلميذة، كما ارتفع معدل المواظبة على الحضور بالمدارس ليصل إلى 90% مما دفع بعض الملاحظين للقول: إن أهم تغيير شهدته أزقة فاس العتيقة هو وجود هذا العدد الكبير من الفتيات [65]. تزامن ذلك وظهور بعض العادات الجديدة التي لم يكن أحد يتوقعها إذ تخلت 30 % من تلميذات إعدادية باب الحديد عن الحجاب، و لم يكن ذلك ليثير غضب المجتمع عليهن، بل على العكس فالتلميذة السافرة دخلت في العادة[66] ، إلا أن واقع الأمر لم يكن بهذه الصورة التي تقدمها إدارة التعليم من خلال نشرتها، حيث كان أحد الآباء وهو شخصية بارزة يحمل معه الجلابة والحجاب ليصحب ابنته معه إلى المدينة حتى يسلم من الانتقاد[67]، لذلك لم يكن يقبل العديد من الفاسيين سفور الفتاة" . لقد كانت الفتيات يرتدين الجلابة، وإن حدث وخرجن سافرات كن يتعرضن للقذف والشتم في الطرق، مما كان يجعلهن مضطرات للرجوع إلى اللباس التقليدي" [68]، ذلك أن هذه العادات الجديدة لم تكن تساير وثيرة التطور البطيئة للمرأة الفاسية، لأنها لم تكن وليدة قناعات بقدر ما كانت ناتجة عن تأثر الفتيات بمعلماتهن وبالوسط الأوروبي الذي أصبح يجاورهن. فتطور المرأة بمدينة فاس ظل قاصرا و لم يتعد بعض الرغبات مما يجعلنا نبتعد كثيرا عن التصديق بالدعاية

---

[64] - دادي ( مرية) ، " وقفات على هامش خطاب الأميرة عائشة بطنجة ، 11 أبريل 1947 "، في . **زيارة السلطان محمد بن يوسف إلى طنجة السياق والحدث والدلالات**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط 1998 ، ص : 190.

[65] - **B.E.P.M**, année 39, N° 217, 1952, p. 13.

[66] - Ibid ., p. 14.

[67] - Villeme (L), « L'évolution de la vie citadine au Maroc », **Cahier de l'Afrique et l'Asie**, Ed. Peyronnet, p. 98.

[68] - **Livre D'or de l'Ecole ADOUA**.

الفرنسية في هذا المجال" فليست هناك منافسة حول المناصب، ولا عدد كبير من الفتيات الحاصلات على الدبلومات، فكل ما هناك عدد قليل من المعلمات، والممرضات، ويرجع ذلك أساسا إلى الإمكانيات المحدودة وانحصار ذلك في المدن... و الفتاة المسلمة بالمدن وعلى الخصوص الغنية لم تع معنى التحرر( ...)، إذ ينحصر هذا المفهوم عندها في العناية بأناقتها ولباسها والتجمع في المقاهي والسفر والرحلات، لذلك ظل هذا التطور فوضويا ما دامت المرأة المسلمة لم تفهم بعد أن لها مسؤولية في الحياة الخاصة والعامة"[69] وبالمقابل حافظت العديد من العائلات على تربية بناتها وفق طريقة تقليدية بمعزل عن التأثيرات الأوربية والعصرنة التي كان مبالغا فيها خاصة بمدينتي الرباط وسلا، ولم يقبل عليها بمدينة فاس سوى الفئات المتوسطة المكونة من التجار الجدد وسكان فاس الجديد . فلا زال الاحترام" والحشومة" والرأي العام عوائق تحول دون تطور المرأة بمدينة فاس[70].

إن إعجاب المغاربة بالتطور الكبير الذي عرفه الحقل التعليمي ببلدان المشرق العربي، ودعوتهم لاستقدام أساتذة من مصر وسوريا، جعل الإدارة الفرنسية تتحرى بشكل دقيق عن الأوضاع التعليمية في هذه البلدان ولاسيما مصر التي شكلت نموذجا يحتذى به في تعليم الفتاة، حيث أنجزت تقريرا سريا عن تطور التعليم بالعديد من البلدان العربية مستهدفة من ذلك التقليص من حجم المجهودات المبذولة، فبالنسبة لمصر أكد التقرير " أن أعداد الأميين بمصر يفوق ما هو عليه الحال بالمغرب العربي حيث لا يتعدى انتشار التعليم ضفاف نهر النيل، وتنحصر الاستفادة في سكان المدن الكبرى: القاهرة ، الإسكندرية ، بورسعيد"[71] ويتلافى التقرير المقارنة بين ما قطعه التعليم النسوي بمصر وبين ما هو عليه الحال بالمغرب، إذ أن الفتاة المصرية ذهبت بعيدا في تعليمها ، ففي مصر أصبح التعليم إجباريا بالنسبة للتلاميذ المتراوحة أعمارهم ما بين 7 و 12 سنة منذ عام 1933 ، وبلغ عدد الفتيات المتمدرسات سنة 1941 حوالي 422.135

---

[69] - **Boubakeur (H), « La Musulmane Nord Africaine d'aujourd'hui » ... , op. cit p. 32.**

[70] - **Villeme (L), « L'évolution de la vie citadine »..., op. cit, p. 104.**

[71] - **A.D.N., Série D.I.P., Carton 85,** Rapport confidentiel sur l'Enseignement dans les pays Arabes, 13 avril 1946, N° 3, C. p1.

فتاة، وتتابع أكثر من 435 طالبة دراستها بكليات: الآداب والطب والحقوق والصيدلة [72]، في الوقت الذي لم يكن فيه المغرب يتوفر على تشريع خاص بتعليم الفتيات، حيث كان النقاش لا يزال محتدما حول ماهية التعليم الذي يجب أن تقبل عليه الفتاة المغربية، فلم يتجاوز عدد المتمدرسات 10075 فتاة سنة 1945[73]، بالإضافة إلى ندرة المؤسسات التعليمية الابتدائية والثانوية . أما الجامعات والمدارس العليا الخاصة بالعنصر النسوي فلم يتم التفكير في إيجادها أصلا، صحيح أن الوجود المسيحي بمصر ساعد كثيرا في هذا المجال، لكن تبقى دعوة الرواد أمثال قاسم أمين ورفاعة طهطاوي، وتطور أنظمة التعليم منذ سنة 1897 أهم العوامل التي ساعدت على النهوض بتعليم الفتاة المصرية. أما في المغرب فإننا نجد كل من دعا إلى تعليم الفتاة " ظل ينظر إلى هذا المشكل انطلاقا من أفكاره العصرية من جهة ومرجعيته التقليدية من جهة أخرى، فهو يرى من الطبيعي أن تكون شريكة حياته متعلمة، لكنه يخشى أن يكون هذا التعليم سببا في تحررها وهو ما يخشاه ويعارضه، فهو لا يتصور أن يكون للمرأة دور آخر غير دور الزوجة أو الأم..."[74].

لقد ظل الخطاب الإصلاحي في قضية تعليم المرأة متحفظا وحذرا يتردد بين الإقبال والإحجام، وبين الإشارة المطلقة للتغيير والجمود المتوجس خيفة من كل تحديث، محكوما في حدوده وآفاقه، وأبعاده بشروط فرضتها ظرفية المغرب آنذاك، واعتبرت مؤشرا دالا على صعوبات التحديث والتغيير في المجتمع المغربي[75].

[72] - **A.D.N., Série D.I.P., Carton 85,** Rapport confidentiel sur l'Enseignement dans les pays Arabes, op. cit ., p. 3.
[73] - D.G.I.P., Bilan, 1945-1950 …, op. cit., p. 110.
[74] - Le Tourneau (R), « L'évolution de la famille musulmane en Afrique du Nord », **la France méditerranéenne et africaine, année 1, fascicule 3, 1938**, pp. 14- 15.
[75] – العلوي ( سعيد بن سعيد ) ، الوطنية والتحديثية ، مرجع سابق ... ص .50.

# الجزائريون المسلمون بالمغرب

# في عهد السلطان مولاي يوسف: 1912-1927

محمد أمطاط

ثانوية أبي بكر الصديق- الرباط

كانت بالمغرب قبل سنة 1912 أعداد وافرة من الجزائريين المسلمين ، تعود أصول أغلبيتهم إلى الهجرة الجزائرية الكبرى التي أعقبت احتلال الجزائر سنة 1830. حلوا بالمغرب باعتباره (دار إسلام) تطبق فيه الأحكام الإسلامية، ويخضع لسلطة سياسية يمثلها السلطان تسهر على ضمان أمن وسلامة المسلمين وتأديتهم لمختلف شعائرهم، مقابل تحول الجزائر إلى (دار حرب) بعدما تغلبت عليها الجيوش الفرنسية. وقد بذلت فرنسا طيلة القرن التاسع عشر مجهودات واسعة لاستقطابهم وتوظيفهم في إطار مخططاتها الاستعمارية بالمغرب، عبر ما كانت تسميه ب "التسرب السلمي". وإذا كانت فئات قليلة قد انساقت نحو الطروحات الفرنسية، فإن الأغلبية أعلنت ولاءها لسلاطين المغرب، وجددت ارتباطها في بيعة المهاجرين الشهيرة لعام 1895 للسلطان المولى عبد العزيز. وقد أخذ المهاجرون تدريجيا يندمجون في المجتمع المغربي حاملين لقب "واسطيين"، وأصبحوا إحدى مكونات الأمة المغربية المتعددة الأصول، وتميزوا بإثرائهم لرصيد البلاد الحضاري وخاصة الفكري، ووقع التنويه بعلمائهم في كتب الإخباريين المغاربة[76] .

---

[76] حول تفاصيل الحضور الجزائري بالمغرب بين سنتي 1930 و 1912 ، أنظر : محمد أمطاط، **الجزائريون بالمغرب ما بين سنتي 1830-1962** ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكدال، الرباط، 2005، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ المعاصر( مرقونة)، ص.ص.22-42 و77-143

لكن في سنة 1912 استكملت فرنسا احتلالها لمنطقة المغرب الكبير، بفرضها لنظام الحماية على المغرب، مما شكل مرحلة جديدة في التاريخ المعاصر لشمال إفريقيا ككل. من هنا فالموضوع المقترح والمعنون ب: **الجزائريون المسلمون بالمغرب في عهد السلطان مولاي يوسف 1912-1927** يحاول دراسة وضعية جالية مغاربية ضمن نسق مجتمعي مغاربي خاضع للاستعمار ، من خلال فتح النقاش حول مجموعة من القضايا الهادفة إلى تحقيق فهم متكامل للبناء السوسيولوجي للمجتمع المغربي تحت الإستعمار خلال فترة حكم السلطان مولاي يوسف 1912-1927 ، وهي الحقبة التي تميزت بعدة تحولات والانتقال من أنظمة اجتماعية وسياسية نوعية إلى شكل مفروض من الأجنبي يزاوج ما بين النظام "التقليدي" و"الحديث".

إن مناقشة هذا الموضوع يفرض في بدايته تحديد السياق القانوني الذي كان يحكم الجزائريين المسلمين بالمغرب، في أفق مواكبة المتغيرات التي طالتهم من الناحية الاجتماعية، وتحديد مؤثراتهم على المجتمع المغربي، ومواقف كل طرف من الآخر خلال فترة أصبحت فيها كل بلدان المغرب الكبير تحت الاستعمار.

## 1- الوضع القانوني للجزائريين المسلمين بالمغرب

أدخل المقيم العام الجينرال ليوطي ( 1912-1925 ) عددا من التشريعات الحديثة إلى المغرب، لكنه امتنع عن استصدار تشريع خاص بالجنسية المغربية[77]. ورغم ذلك لابد من الإشارة إلى ظهير صدر في 8 نونبر1921 ، الذي أكد أن الأجنبي المولود في المغرب من أبوين مزدادين فيه يعتبر مغربيا[78]. لكن صدر في نفس التاريخ مرسوم فرنسي[79]، نص على أن

---

[77] تتمثل أسباب ذلك في :وجود مبدأ الخضوع الدائم للسلطان، و غياب تشريع علماني للأحوال الشخصية، وتقسيم المغرب إلى عدة مناطق نفوذ (فرنسية وإسبانية ودولية) مستقلة تشريعيا بعضها عن بعض. وبالتالي فصدور أي تشريع يهم الجنسية مثلا في منطقة الحماية الفرنسية ولا يطبق في المناطق الأخرى سيعمل على القضاء على وحدة الجنسية المغربية:أنظر تفاصيل ذلك عند :

Pierre Ghiho, *La nationalité marocaine*, Rabat- Paris, 1961, p. 10.

[78] الجريدة الرسمية، عدد 479، بتاريخ 6 دجنبر 1921، ص. ص. 1091-1092.

الأجنبي المولود في المغرب من أبوين مزدادين فيه يعتبر أيضا فرنسيا. وتطبيقا لفكرة ترجيح كفة قانون الدولة الحامية على قانون الدولة المحمية في ميدان القانون العام التي كان يعتمد عليها القضاء الفرنسي، فإن المحاكم الفرنسية كانت ترجح المرسوم الفرنسي على الظهير المغربي، وبذلك فإن هذا الأخير لم يكن له أي أثر قانوني. فما هي العناصر الجديدة في مسألة الجنسية في عهد الحماية؟

أول عنصر جديد هو وجود نظام الحماية نفسه. فرغم سيطرة فرنسا على القسم الأكبر من البلاد، فقد ظلت الجنسية المغربية حاضرة لأن المغرب حافظ على شخصيته القانونية في نظر القانون الدولي، رغم أنه أصبح دولة محمية[80]. لكن فرنسا كانت تحتل – في نفس الوقت – كلا من الجزائر وتونس وهما بلدين مسلمين ينتمي إليهما عدد من الأجانب المسلمين المقيمين بالمغرب، لذلك حرصت على استمرار التمييز بين المنتمين إلى هذه البلدان الثلاث خاصة بالنسبة للجزائريين الذين كانت تعتبرهم "رعايا فرنسيين".

والعنصر الجديد الثاني هو تكليف المحاكم الفرنسية بالنظر في قضايا الجنسية. وبذلك فعند حصول تنازع بين الجنسيتين المغربية والفرنسية مثلا، فالقاضي الفرنسي يقوم بترجيح قانون الجنسية للدولة التي يحكم باسمها على أي قانون آخر[81]. باعتبار أن كل جزائري، مسلم أو يهودي، غادر الجزائر– وهي إذاك ترابا فرنسيا – قبل سنة 1889 و لم يثبت عليه أنه غادرها بقصد عدم الرجوع، لا يتم اعتبار أصوله من فاقدي الجنسية الفرنسية، فيظل هو فرنسيا لازدياده من أصول فرنسية حتى ولو كانت إقامته خارج الجزائر طويلة جدا، في المقابل إذا لم يتمكن المعني من إثبات أن مغادرة أصوله كانت بنية العودة، يتم اعتبارهم قد فقدوا الجنسية الفرنسية وبالتالي فإنهم وفروعهم يصبحون مغاربة[82]. كما أن كل يهودي جزائري في المغرب

---

[79] Bulletin Officiel, n° 476 du 6 décembre 1921, p. 1866.
[80] P. Guiho, op. cit., p. 9.
[81] موسى عبود، **الوجيز في القانون الدولي الخاص المغربي**، الدار البيضاء، 1994، ص. 48.
[82] م. ن.، ص. 50.

خضع في نظام الأحوال الشخصية للقانون العبري عوض القانون المدني الفرنسي بصفته مواطنا فرنسيا، يفقد الجنسية الفرنسية[83].

وبذلك كانت النصوص القانونية الفرنسية تعتمد على مرسوم 4 يوليوز 1865 الذي يعتبر الجزائريين المسلمين "رعايا" فرنسيين، وهذه الصفة تجعلهم خاضعين لقانون الأحوال الشخصية الإسلامي[84]. وذلك فان إقامتهم بالمغرب وخضوعهم للشريعة الإسلامية لا تعني أنهم تصرفوا بنية عدم الرجوع، لأنهم لو ظلوا في الجزائر، لتصرفوا بنفس الطريقة. وبذلك لم يفقدوا صفتهم كفرنسيين ، لكن باعتبارهم رعايا فرنسيين (Sujets français) وليسوا بمواطنين فرنسيين (Citoyens français) ، وبالتالي لا يمكن اعتبارهم مغاربة. وهذا ما كان يدفع بعض الجزائريين المسلمين المقيمين بالمغرب وخاصة من فئة النخبة[85] إلى المطالبة بالحصول على المواطنة الفرنسية، مادامت تشريعات 1865 و1889 قد منحتهم مواطنة من درجة ثانية باعتبارهم "رعايا" فرنسيين فقط.

وأمام إلحاح الجزائريين المسلمين، وخاصة الأطر العاملة في مختلف الأجهزة الاستعمارية سواء في المغرب أو الجزائر أصدرت الولاية العامة للجزائر قانون 4 فبراير 1919، والذي تم تعميمه على كل الجزائريين في الإمبراطورية الفرنسية بما فيها المغرب. وقد ربط هذا القانون مسألة الحصول على حقوق المواطنة الفرنسية بمجموعة من الشروط[86]، وبذلك يوضعون في

---

[83] م. ن.

[84] أنظر مضمون هذا القانون والحيثيات المحيطة بتطبيقه عند: محمد أمطاط، **الجزائريون بالمغرب** ...،م.س.، ص.ص. 77-80

[85] نعني بالنخبة المثقفة، الفئة المتنورة من الأطر الجزائرية التي حصلت على مستوى دراسي مهم بالجزائر، و منحت لها وظائف إدارية في مختلف أجهزة الحماية. كانت تنعتها الأدبيات الفرنسية بالمتطورين (Les évolués) مقابل عامة الجزائريين بغير المتطورين (Les non évolués).

[86] تحدد المادة الثانية هذه الشروط في :بلوغ سن 25 سنة وأن يكون الطالب غير متزوج بأكثر من واحدة أو أن يكون عازبا. وأن لا يكون قد حوكم من قبل بجناية أو جريمة. ويكون قد أقام في الأراضي الفرنسية سنتين

إطار القانون المدني الفرنسي ويتخلون مباشرة عن نظام أحوالهم الشخصية الإسلامية في كل المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق والنسب وحالة الأشخاص والأهلية وأخيرا الإرث والوصية.

لقد تعرض هذا التشريع لفشل ذريع سواء في الجزائر والمغرب، فاجأ السلطات الاستعمارية في البلدين. ذلك أن الولاية العامة كانت تعتقد أن عدد الجزائريين الذين يتوفرون على الشروط الضرورية لهذا القانون يتجاوز 400ألف شخص في شمال إفريقيا. لكن مع مرور الوقت ثبت العكس، فما بين سنتي 1919 و1930، لم تتجاوز طلبات التجنيس2435 حالة، و تم قبول فقط 1793منها[87] . أما في فاس مثلا، فلم يحصل فيها سوى 26 جزائريا مسلما على صفة مواطن سنة 1919[88]. ومرد ذلك أن الجزائريين -رغم أنهم كانوا "رعايا" فرنسيين - لا يمكن لهم أن يكونوا فرنسيين مواطنين إلا إذا تخلوا عن حالتهم الشخصية كمسلمين، بينما مطالبهم كانت موجهة نحو حقوق أكثر تسمح لهم بالاندماج التدريجي في الأمة الفرنسية دون شرط التخلي عن الالتزامات الدينية التي يخضعون لها.

في هذا الإطار أصبح أغلب الجزائريين المسلمين في نظر القانون العام الفرنسي فقط فرنسيين من الدرجة الثانية، مادام الحصول على حقوق المواطنة الفرنسية مرهون بترع "إسلام الجزائر والجزائريين". وبهذا احتفظت الغالبية العظمى من الجزائريين المسلمين بالصفة الفرنسية

---

متواليتين على الأقل. وعلاوة على هذه الشروط، لابد أن تتوفر في الطالب إحدى الصفات التالية:الخدمة في الجيش الفرنسي أو معرفة القراءة والكتابة باللغة الفرنسية أو أن يكون مالكا لعقار أو مزرعة أو مسجل في لوائح الضرائب أو أن يكون موظفا رسميا أو عضوا في أي مجلس من المجالس المحلية بالجزائر أوحاصلا على وسام فرنسي.أو أن يكون أحد والديه مواطنا فرنسيا.أنظر:

**Extrait du Bulletin Officiel du Ministère de la Guerre, 1er tri. 1919, p. 665., 333 D.I., C.A.D.N.**

[87] **Claude Lazard, L'Accession des indigènes algériens à la citoyenneté française, Paris, 1938, p. 37.**

[88] **Mohammed Yakhlef, , "La colonie algérienne de Fès à l'époque du Protectorat 1912-1956", Mémorial Germain Ayache, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines à Rabat, Série : Colloques et Séminaires, n° 32 , Casablanca 1994., p. 43, note 18.**

لكن في إطار "رعايا" فرنسيين وليس مواطنين. فكانت هذه اللامساواة بين الجزائريين المسلمين والفرنسيين حاضرة بقوة، ولم تساهم طيلة الفترة الاستعمارية بالمغرب في إيجاد التلاحم والاستقرار بين "الشركاء" المفترضين في الاستعمار.

إن دراسة الجانب القانوني وما تم التوصل إليه لا يمكن أن يفهم بشكل جلي إلا بعد التطرق للبناء الاجتماعي للجزائريين المسلمين للتمكن من تحديد مدى التأثير المتبادل بينهم والمغاربة مسلمين ويهود. وهو العنصر الذي يمكن تحقيق فهم أعمق له من خلال دراسة جوانب من حياقم الاجتماعية .

## 2 - الأوضاع الاجتماعية للجزائريين المسلمين

### 2 - 1 - الوضعية الديموغرافية : النمو والتوزيع

لتتبع الأحوال الديمغرافية للجزائريين المسلمين بالمغرب في فترة ما بين الحربين، لابد من الاعتماد على مجموعة من الإحصاءات التي أنجزتها إدارة الحماية بالشكل الذي كانت تنجز به في فرنسا، ولو أن الطرق المتبعة في القيام بها والظروف المحيطة بها لم تكن تساعد على التوصل إلى نتائج يمكن الاعتماد عليها كثيرا.

فمنذ أول إحصاء قامت به سلطات الحماية إلى حين الكشف عن نتائج إحصاء 1926 لوحظ تزايد تدريجي في عدد الجزائريين المسلمين:[89]

| السنوات | عدد الفرنسيين | عدد الجزائريين المسلمين | % الجزائريين المسلمين من الساكنة الفرنسية | % الجزائريين المسلمين من الساكنة الأجنبية | % الجزائريين المسلمين من الساكنة العامة |
|---|---|---|---|---|---|
| 1921 | 4656 | 3964 | 8.5 | 7.69 | 0.11 |
| 1926 | 66.22 | 7779 | 11.7 | 7.42 | 0.18 |

موقع الساكنة الجزائرية المسلمة ضمن الفرنسيين بالمغرب بين 1921 و 1926[90]

[89] منذ إحصاء 1926 أصبح الجزائريون المسلمون يوضعون في إطار : "رعايا" فرنسيين (Sujets français)، أما اليهود الجزائريون، فكانوا يدمجون في إطار مواطنين فرنسيين (Citoyens français)

تضاعف عدد الجزائرين المسلمين بين سنتي 1921 و 1926 وأصبح قرابة 8000 نسمة أي ما يقارب 12% من مجموع المستوطنين الفرنسيين و 7.42% من مجموع الساكنة الأجنبية. وهي أرقام تبدو متواضعة جدا بالمقارنة مع مجموع الساكنة العامة بالمغرب، لكن قيمتها تظهر في الأدوار التي قامت بها لصالح إدارة الحماية والوظائف التي شغلتها وحتى المشاكل التي طرحتها طيلة عقدين. لكن عددهم يتزايد أكثر إذا تم اعتبار الجزائريين (مسلمين ومسيحيين ويهود) الذين ولدوا في التراب الجزائري، حيث أصبح عددهم في إحصاء 1926 أكثر من 18 ألف وبالتالي فنسبتهم من مجموع الأجانب قاربت 18 %. ذلك أن المعمرين الإسبان والإيطاليين الذين استوطنوا الجزائر منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبح لهم أحفاد متجنسون بالجنسية الفرنسية هاجروا ضمن عدة موجات نحو المغرب، بعد استتباب نظام الحماية[91].

أما على المستوى الديموغرافي فإن الانطلاق من عينة ساكنة وجدة من الفرنسيين - مواطنين ورعايا - تدفع إلى ملاحظة أساسية و هي تجاوز المواليد لـ40 ‰، وهي نسبة كبيرة تجد تفسيرها في تحسن الأوضاع الاقتصادية، مع إمكانية الاستفادة من عدة تعويضات اجتماعية على رأسها منح الولادة التي نصت عليها عدة قرارات مقيمية في عهد ليوطي، والتي لم تكن تميز

---

[90] بتصرف عن:

-André Adam, Casablanca, essai sur la transformation de la société marocaine au contact de l'Occident, tome 1, C.N.R.S., Paris 1972, p. 164, note 8 et tableau n° 20, p. 165.

- Jacques Breil, "Quelques aspects de la situation démographique au Maroc", B.E.S.M., n° 35, octobre, 1947, p. 134.

- Secrétariat général du Gouvernement, Résultats statistiques du Recensement de la Population de la zone française de l'Empire chérifien effectué le 8 mars 1931, , Service de l'Administration Générale du Travail et de l'Assistance, Imprimerie nouvelle, Rabat, 1932, p. 10.

[91] محمد أمطاط. .. ، م.س.، ص.232.

بين المواطنين والرعايا[92]. مثلما تسجل نسبة الوفيات تقاربا نسبيا بين المجموعتين، مع ارتفاع محسوس لدى المسلمين منهم. ومن غير المستبعد أن يعود السبب إلى استمرار الضعف في ضبط القواعد الصحية والوقاية وعدم تحسن أساليب التغذية لدى غالبيتهم.

| أصول السكان | عدد السكان (ن) | عدد المواليد (ن) | % عدد المواليد | % عدد الوفيات | % الوفيات | % التزايد الطبيعي |
|---|---|---|---|---|---|---|
| فرنسيون مواطنون (بما فيهم اليهود الجزائريين) | 4908 | 204 | 41.56 | 102 | 20.7 | 20.78 |
| الجزائريون مسلمون (رعايا فرنسيون) | 2471 | 107 | 43.30 | 54 | 21.1 | 21.42 |

النمو الديمغرافي لساكنة وجدة من الفرنسيين حسب سجلات مكتب الحالة المدنية بوجدة في 1925[93]

عموما يندرج السلوك الديمغرافي للفرنسيين بالمغرب ــ عند تفوق نسبة التزايد الطبيعي ل 20 ‰ ــ في المرحلة الأولى للانتقال الديمغرافي التي تسجل ارتفاعا للمواليد وانخفاضا نسبيا للوفيات. وسيلاحظ تباين كبير بين المجموعتين المسلمة من جهة والمسيحية واليهودية من الجزائريين في سلوكهما الديمغرافي عند صدور نتائج إحصاء 1936. ومن المحتمل أن السلوك الديمغرافي للمغاربة ــ لو تم تسجيله في هذه الفترة ــ سيكون مغايرا، نظرا لاستمرار سيادة عقلية إنجابية تقليدية لدى غالبيتهم.

أما من حيث توزيعهم، فالملاحظ أن حوالي 6000 جزائري مسلم كانوا يقطنون في أهم المدن المغربية، خاصة مدينتي وجدة وفاس لاعتبارات جغرافية وتاريخية، ومدينة الرباط

---

[92] م.ن.، ص.ص.157-159.

[93] **Jean de Redon, *Essai sur la démographie de la ville d'Oujda de 1907 à nos jours*, C.H.E.A.M., 1953, pp. 13-14**

باعتبارها عاصمة إدارية جديدة للبلاد، والباقي عن 7779 جزائري الذين تم إحصاؤهم في عام 1926، كانوا يسكنون في مختلف المدن الأخرى وأرياف المغرب دون احتساب الجنود الجزائريين الملحقين بالقوات المغربية.

| المدينة | عدد الجزائريين المسلمين (ن) |
|---|---|
| وجدة | 2959 |
| الدار البيضاء | 485 |
| فاس | 2612 |
| تازة | 476 |
| الرباط | 186 |
| القنيطرة | 184 |
| مراكش | 305 |

توزيع الساكنة الجزائرية المسلمة في أهم المدن حسب إحصاء 1926[94]

2-2 - فئاتهم

انقسم الجزائريون المسلمون إلى فئتين رئيسيتين : الفئة الأولى من عامة الجزائريين ذات مستوى اجتماعي جد متواضع، كانت تتكون في أغلبها من قدماء الجنود الذين أنهوا خدماتهم العسكرية بالمغرب. عاش جلهم دون عمل قار مقتصرين على مداخيل تقاعدهم، فتم

[94] Paul Decroux, Les Algériens musulmans au Maroc. Condition juridique et sociales, Paris, 1938, p. 96.

تشغيل نسبة قليلة منهم كمخازنية أو شواش أو مساعدي الدرك في السنوات الأولى للحماية، قبل أن يتم الاحتفاظ بهذه الوظائف للمغاربة[95]. يضاف إليهم أعداد من الحرفيين (في الخشب والنسيج بالخصوص) وبعض التجار الصغار (بيع المواد الغذائية أو اللحوم) وبعض مسيري الخمارات السرية[96]. ولوحظ استثناء في وجدة حيث احتكار الجزائريين لتجارة الخضر في السوق البلدي[97].

أما الفئة الثانية، فتشكلت من النخبة المثقفة وهي قليلة العدد، مكونة بالخصوص من موظفين حلوا في أغلبهم بالمغرب في بداية تنظيم الحماية، حيث كان الفرنسيون في حاجة إلى أطر تجيد استعمال اللغات العربية والفرنسية والأمازيغية، وملمة بالممارسات الدينية الإسلامية والعادات والتقاليد المحلية في جميع مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية[98]، وذلك من أجل ربط علاقاتهم مع المغاربة. فكانت الجزائر خزانا لكل هذه الكفاءات، حيث أخذت تتوافد على المغرب منذ السنوات الأولى للحماية أعداد من الإطارات يتكونون في أغلبهم من : مدرسين ورؤساء مكاتب ومراقبي الأحباس وموظفي البريد وأصحاب مهن حرة كالمحامون والبنكيون. تخرج أغلبهم من مدارس الجزائر، تلمسان وقسنطينة، مع ملاحظة غياب أطباء أو مهندسين، بسبب ضعف هذه التخصصات في الجزائر[99]، وكونوا جالية "ملحقة" بالمستوطنين الأوربيين.

وعموما، ففئة النخبة لم تكن تشكل في عموم الجزائريين المسلمين إلا نسبة جد قليلة، مثلا في وجدة حيث تتواجد سنة 1926 قرابة 3000 جزائري، كانت لا تتجاوز 300 عنصر[100].

[95]Paul Decroux,Statuts des Algériens au Maroc, C.H.A.E.M., 1938. op. cit.., p. 3.
[96]Ibid
Les Algériens musulmans…, op.cit., p.97. [97]
[98] Jean Jacques Rager, *Les Musulmans algériens en France et dans les pays islamiques*, Paris, 1950, p.34.
[99]P.Decroux, *op.cit.*, p. 98.
[100]*Ibid.*

2 - 3 - نمط الحياة

في مجال السكن كان الجزائريون المسلمون في وجدة لا يعيشون في حي خاص بهم بل توزعوا على كل أحياء المدينة، وأغلبهم – حوالي 70 %-كانوا يسكنون من منازل مكونة من غرفة إلى غرفتين في المدينة الجديدة[101]. أما في المدن الأخرى كالرباط والدار البيضاء وفاس، فعاشوا بين المدينة القديمة والمدينة الأوربية[102].

من جهة أخرى عاش الجزائريون المسلمون نمط عيش مختلف، حيث كانت حياة الجزائري المسلم في داخل البيت خاضعة لوضعية زوجته: أوربية أو "متأوربة" أو تقليدية، مثلما كان يخضع الأثاث وسط البيت لهذه الخاصية. وفي الشارع كان المندمجون في النمط الأوربي أي عناصر النخبة يضعون القبعة ويلبسون السروال العصري خاصة في المنطقة الأطلنتية، بينما ظلت الشاشية والقفطان أو الجلابة لباس المحافظين أو المندمجين في النمط المغربي[103].

أما في الزواج، ففئة النخبة من الجزائريين - الموظفون بالخصوص – كانوا يتزوجون في أغلبهم من جزائريات. وساعدت العطل السنوية التي يقضونها بالجزائر في ذلك، خصوصا وأن الأسر المغربية "البورجوازية" ظلت في بداية عهد الحماية غير منفتحة على الأجانب والجزائريين على السواء ، مع وجود استثناءات قليلة في الزواج بأوربيات وخاصة الفرنسيات[104]. أما عناصر الفئة العامة، فأغلبهم تزوجوا بمغربيات قريبات من أوضاعهم الاجتماعية[105]. وكان الحفل يتم على الطريقة المغربية وعقد النكاح يتم على يد عدلين، وكثيرا ما كان آباء المتزوجات يلحون على التصريح في العقد بعدم إجبار الزوجة على الالتحاق

[101] M. Lemaille, "Les Algériens à Oujda en 1937", *B.C.A.F.*, n° 5, mai 1937., p. 250.

[102] P. Decroux, *Statuts des Algériens..., op. cit.*, p. 3.

[103] P. Decroux, *Les Algériens musulmans..., op. cit.*, pp. 98-99.

[104] محمد أمطاط، .. ، م.س.، ص.243

[105] P. Decroux, *op. cit.*, p. 101, note 1.

بالزوج، إذا ما رغب في العودة إلى الجزائر[106]. أما الزواج بين مغاربة وجزائريات فقليل جدا باستثناء في وجدة[107].

## 2 - 4- التعليم

كانت أغراض المخطط التعليمي للحماية سياسية بالدرجة الأولى لخدمة الاحتلال الفرنسي. عندما اعتبرت المدرسة كوسيلة أساسية لإخضاع النفوس واستمالة القلوب[108].فأسست الحماية المدارس حسب معايير عرقية ودينية واجتماعية[109]. وبهدف تثبيت التلاميذ الأمازيغيين من المغاربة في قبائلهم وإبعادهم عن كل إطلاع ممكن باللغة العربية أو أي تأثير إسلامي، أكد برنامج الحماية الموضوع منذ سنة 1914 على إلغاء اللغة العربية من هذا النوع من المدارس. وقد أوكلت السلطات التعليمية مهمة التدريس فيها لمدرسين جزائريين من أوساط قبايل الجزائر الذين تنصروا بتأثير من سلك الرهبان الإخوان البيض[110].

فكيف كان موقع التلاميذ الجزائريين المسلمين في المنظومة التعليمية لجهاز الحماية؟

كانت الأجيال الشابة من الجزائريين المسلمين تبحث عن مزايا التعليم الفرنسي الذي يمنح لها شهادات الدولة (Diplômes d'Etat ) تتيح لها ولوج وظائف سامية في أجهزة الحماية. لكن الانتساب للمدارس الفرنسية بالنسبة لهم، رغم أنهم "رعايا" فرنسيين، كان يحتاج إلى

---

[106]Ibid.

[107] محمد أمطاط، .. ، م.س.، ص.244

[108] محمد كنبيب، **يهود المغرب**، 1912-1948، ترجمة إدريس بنسعيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة، 8، الدار البيضاء، 1999 ، ص. 47

[109]Daniel Rivet, *Lyautey et l'institution du Protectorat français au Maroc1912-1925,* tome 2, L'Harmattan, Paris, 1988 , pp. 244-245

[110] محمد كنبيب، م. س.، ص. 48.

ترخيص مسبق من مديرية التعليم العمومي. وإذا كان الحصول عليه ممكن، في باقي المدن الأخرى، ففي وجدة خضع قبول التلاميذ لنفس المعايير المطبقة على المغاربة[111]، مما سحب على الكثير من الجزائريين فرصة الاستفادة من مزايا هذا النوع من التعليم[112]. ولوحظ ذلك في وجدة حيث كانت للأطفال الجزائريين في المقابل، مكانة مهمة في المدارس الفرنسية -العربية الثلاث للمدينة، وكلها مدارس مهنية، لأن عددهم كان يساوي تقريبا عدد التلاميذ المغاربة مقارنة بساكنة أقل بثلاث مرات[113].

ويبدو من تخصصات هذه المدارس أنها موجهة لأبناء الفقراء-مغاربة أو "رعايا" جزائريين، أما أبناء النخبة الجزائرية فكانوا يلجون التعليم الثانوي، حيث سجلت الثانوية الفرنسية بوجدة سنة 1927 انتساب 18 تلميذا جزائريا من بين 38 تلميذا مسلما، وفي سنة 1929 كانوا 25 من بين 80 تلميذا[114]. واستمر نفس العدد تقريبا يلج هذا النوع من المدارس، وقد لوحظ فيما بعد وجود 20 من تلاميذ الجزائريين في ثانوية البنين (Lycée des garçons) و4 تلميذات في ثانوية البنات (Collège des jeunes filles) بوجدة. وكانت رغبة عائلاتهم قوية في انتقال أبنائهم للدراسات العليا في تخصصات مثل الطب والصيدلة بالجزائر أو الترشيح لمباراة المترجمين بالرباط بعد الاستفادة من تكوين خاص في معهد الدراسات العليا المغربية[115]، خصوصا وأن هذا الأخير كان يشجع منذ مدة طويلة مجيء تلاميذ مترجمين من الجزائر لاستكمال التكوين، حيث كان يقدم لهم منحا خلال مدة دراستهم بالرباط[116].

---

[111] Lucien Paye, *Introduction et évolution de l'enseignement moderne au Maroc, dès origines jusqu'à 1956*, Rabat, p. 256.

[112] قدمت مثلا في 1924 عشر عائلات من تاوريرت طلباتها لتسجيل أبنائها في المدارس الفرنسية دون جدوى: *Ibid.*

[113] M. Lemaille, *op. cit.*, p. 258.

[114] L. Paye, *op. cit.*, p. 257, notes 1et 2.

[115] *Ibid.*

[116] P. Decroux, *Les Algériens..., op. cit.*, p. 98

الملاحظ أن التعليم المفتوح في وجه أغلبية الجزائريين المسلمين-رغم أنهم "رعايا" فرنسيين -كان مزدوج الأهداف، فمن جهة يدمجهم على قدر محدود في المنظومة التعليمية للحماية دون أن يسمح لهم بولوج مناصب عليا أو التنافس عليها. ومن جهة ثانية يمنح لهم قسطا من التكوين الدراسي كزملائهم المغاربة لتشكيل يد عاملة مؤهلة وضرورية في الحياة الاقتصادية لمغرب الحماية. وما يؤكد السياسة الاقصائية في التعليم التي تعرض لها الجزائريون المسلمون، استمرار ارتفاع نسبة الأمية لديهم بشكل أكبر مما هي عليه لدى الفرنسيين المواطنين، حيث قاربت 75%[117].

## 2 - 5 - الجانب الديني

كان أغلب الجزائريين يدين بالإسلام رغم وجود نسبة جد قليلة من الذين تنصروا في الجزائر بعد تكوين ديني حصلوا عليه من الآباء البيض. وتحكمت في التزام الجزائري بالتعاليم الإسلامية قولا وفعلا ظروف الوسط الاجتماعي والتربية والعمر. فالمندمجون في الوسط المغربي كانوا أكثر تطبيقا لهذه التعاليم من نظرائهم الذي عاشوا في نمط حياة شبه أوربي. مع ملاحظة أن غالبية قدماء الجنود الجزائريين المتقاعدين كانت تقترب من المحرمات خاصة شرب الخمر، لكن عندما يتقدم بها العمر تعود إلى تطبيق تعاليم الإسلام التي أهملتها طويلا[118].

أما علاقة الجزائريين المسلمين بالزوايا فبارزة خاصة في وجدة، حيث كانت توجد فروع للزاويتين العيساوية والطيبية، وكان مقدموها من الجزائريين. وكان تأثيرهما المحلي لا يستهان به، حيث كانتا تستقطبان العشرات من الأتباع وتعملان كصلة وصل بين مثيلاتهما في الجزائر والمغرب. لكن بفعل صراعات داخلية، أصبحت الزاوية العيساوية يتقدمها مغاربة بينما ظلت الطيبية مختلطة[119]. كما ارتبط العديد من الجزائريين المسلمين، وخاصة نساؤهم بعدة مزارات مثل سيدي إبراهيم بنواحي مراكش أو سيدي يحيى بالقرب من وجدة[120]. ومن جهة

---

[117] Yvette Katan, Oujda, une ville- frontière du Maroc (1907-1956), Musulmans, Juifs et Chrétiens en milieu colonial, Editions l'Harmattan, Paris, 1990, p. 567

[118] P. Decroux, *Les Algériens…, op. cit.*, p. 104.

[119] M. Lemaille, *op. cit.*, p. 258.

[120] P. Decroux, *op. cit.*, p. 104.

أخرى أنشأ مسلمو الجزائر في وجدة جمعية الأعمال الخيرية الإسلامية التي لعبت أدوارا اجتماعية هامة[121].

## 2- 6 - الجانب الثقافي

تم تسخير بعض عناصر النخبة الجزائرية في ميدان الصحافة المغربية خاصة في جريدة السعادة، والتي كان يديرها لفترة الجزائري إدريس بن محمد الخبزاوي[122]، بغرض إضفاء صبغة "عربية إسلامية" عليها خشية نفور القراء المغاربة منها، ثم الجريدة الرسمية في طبعتها الفرنسية[123]. مثلما سار جزائريون آخرون في تأسيس صحف، كانت بمثابة أبواق للدعاية الفرنسية، مثل جريدة صادرة بفاس باللغة الفرنسية –خلال الحرب العالمية الأولى– تحت اسم "أخبار تلغرافية" (Les nouvelles télégraphiques) على يد عبد الله بن وطاف[124].

من جهة أخرى برزت أسماء أخرى تولت إنشاء صحف أو مجلات لخدمة أغراض معينة. ففي إطار إنشاء صحافة مستقلة عن سلطات الحماية، ظهرت بطنجة – خلال الحرب العالمية الأولى– صحيفة أسبوعية عربية باسم "إظهار الحق"على يد أبي بكر بن عبد الوهاب

---

[121] هي مؤسسة اجتماعية أقامها الموظفون الجزائريون بوجدة منذ 1920، ترأسها مترجم جزائري هو سي رحال. ثلث أعضاء مكتبها مسير من الجزائريين و عدد المنخرطين بها 100 ، تتراوح ميزانيتها السنوية ما بين 130 و 140 ألف ف.ف. تشرف على دار عجزة وميتم وتقدم حساء شعبي استفاد منها إلى جانب فقراء الجزائر بعض المعوزين من المغاربة:

M. Lemaille, *op. cit.*, p. 260.

[122] محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، ج 3، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 2002، ص.168.

[123] أمثال محمد الصالح بن علي الجزائري، أنظر عنه : م.ن.، ص.293 ،والباي إبراهيم حميدة ، أنظر عنه :جامع بيضا ،" الجريدة الرسمية"، **معلمة المغرب الأقصى**، الجزء التاسع، نشر مطابع سلا،1989 ،ص2972

[124]Le Livre d'Or du Maroc, Dictionnaire des Personnalités Passées et Contemporaines du Maroc, Paris, 1930, p.27

الجزائري الذي شغل سابقا ترجمان الوفد المغربي في مؤتمر الجزيرة الخضراء[125]، وذلك قبل أن تتأسس في الرباط مجلة "المغرب" على يد محمد صالح ميسة سنة 1932. والتي شارك في تحريرها نخبة من شيوخ المغرب من أبرزهم مفتي سلا أبو بكر زنيبر، ومندوب المعارف محمد الحجوي[126]. و كانت كلها منابر يغلب عليها طابع التجديد والإصلاح.

واحتلت الجرائد الفرنسية الصادرة بالمغرب والجزائر، الصدارة عند القراء الجزائريين. تلتها الصحافة الجزائرية باللغة الفرنسية التي كانت تقرأها بكثرة الهيئة التعليمية والموظفون وخاصة جريدتي صوت الأهلي لقسنطينة ( LaVoix indigène de Constantine) وصوت عامة الناس (La Voix des Humbles) الناطقة باسم المعلمين الجزائريين[127]. أما الصحف العربية الصادرة بالجزائر، فقراؤها كانوا قليلين . من جهة أخرى وبحكم التكوين المتواضع في اللغة العربية، فلم يكن الجزائريون يقرأون في أغلبهم إلا الكتب الفرنسية، مقابل نسبة قليلة كانت تتابع الإصدارات المصرية والسورية التي تصل إلى بعض المدن المغربية[128].من جهة أخرى كان الجزائريون نشيطين في مجال الثقافة الموسيقية، ومؤسسين ومسيرين لجمعية موسيقى الغرفة الأندلسية بوجدة منذ سنة 1925 التي اختصت في تقديم دروس في الموسيقى، وقد أولاها – فيما بعد– السلطان محمد بن يوسف اهتماما خاصا عند زيارته لوجدة[129].

عموما يمكن القول بأن الوضع الاجتماعي إذا كان قد أبان عن وجود تباين واضح مابين النخبة والعامة، فإن ذلك سينعكس على علاقتهم بالمغاربة والفرنسيين بالمغرب خلال فترة حكم السلطان مولاي يوسف.

---

[125] أبوبكر الصبيحي،" أبو بكر بن عبد الوهاب العلوي"، **معلمة المغـــرب الأقـــصى**، م.س.، ص2980

[126] محمد حجي،" محمد صالح ميسة"، م.ن.، ص2989

[127]M. Lemaille, *op. cit.*, p. 259.
[128]Ibid., p. 260.
[129]Ibid.

## 3-علاقات الجزائريين المسلمين مع المغاربة والفرنسيين

خلال مقيمية ليوطي كانت العلاقات جيدة بين مختلف الطوائف الجزائرية من مسيحيين ومسلمين ويهود، بحكم أنهم مرتبطين بنفس الأوضاع ونفس الأهداف. فأصبحت كل طائفة تحس بالتضامن كباقي الطوائف مع الأوربيين. وكان المسلمون الجزائريون لا يشعرون بأي تمييز بحكم "انتمائهم" إلى فرنسا، ويعتبرون أن تطورهم نحو الاندماج في الأمة الفرنسية سواء من الناحية القانونية أو الاجتماعية أكيد. وأن فرنسا مضطرة إلى الدفع بهذا التطوير ليكونوا قدوة للسكان المغاربة[130].

لكن مقابل هذا التعاون بين الجزائريين المسلمين والدولة الحامية وخاصة في العقد الأول للحماية، كانت تتأسس قطيعة مع المجتمع المغربي المسلم. فالمغاربة لم ينظروا إليهم في بداية الحماية نظرة ايجابية بحكم صفتهم كرعايا فرنسيين حلوا بالبلاد للسيطرة عليهم. لكن في نفس الوقت ظلوا مضطرين للجوء إليهم لقضاء مصالحهم كوسطاء مع الإدارة الفرنسية، خصوصا وأن غالبية المغاربة لا تعرف القراءة أو الكتابة أو التحدث بالفرنسية. وما زاد في ذلك، نظرة الاحتقار التي كانوا يشعرون بها من الجزائريين المسلمين أكثر من الفرنسيين[131].

وقد كانت هذه القطيعة في التضامن بين مسلمي الجزائر والمغاربة في صالح المؤسسة الاستعمارية. فكانت تظهر في عدة جهات من المغرب وخاصة في مدينة فاس « كراهية ضد العنصر الجزائري»[132]، والتي تزايدت بتقدم سنوات مقيمية ليوطي، فالفاسي مثلا كان يلاحظ على الجزائري- رغم أنه مسلم - تكلمه العربية بصعوبة وضعف شعوره الديني[133]. كما أن قبول الجزائريين للجنسية الفرنسية ومطالبة بعضهم - صراحة -بأن يكونوا فرنسيين حقيقيين

---

[130] Y. Katan, op. cit., p. 440.
[131] Ibid.
[132] Y. B., La ville de Fès et ses rapports avec le monde Nord Africain, septembre 1930, 3 H17, A.O.M.
[133] Ibid.

وتعاطي الكثير منهم لشرب الخمر،زاد في هذه الكراهية[134]. واتخذ اتجاههم المهاجرون الجزائريون القدامى نفس مواقف الكراهية والاحتياط والحذر الذي اتخذه منهم الفاسيون[135]، خصوصا وأن البعض من الجزائريين المسلمين كان يشرف داخل المدينة القديمة أو فاس الجديد على مقاهي الغناء ومنازل الدعارة ومحلات بيع الكحول[136]. فانتقل نعتهم لدى غالبية المغاربة من واسطيين — وهو نعت ظل مرتبطا بإطار جغرافي هو المغرب الأوسط — إلى نعت جديد قدحي مرتبط بوضعهم القانوني عندما أطلق عليهم " دوزيام فرنسيس" أي فرنسيون من الدرجة الثانية.

لكن منذ نهاية العشرينات من القرن الماضي أخذت نظرة المغاربة تتغير تدريجيا إزاء الجزائريين المسلمين. فلم يعودوا يعتبرونهم خونة أو مرتدين، بل يتعاملون معهم كإخوة مرتبطين معهم بمصير واحد ، عندما اقتربوا منهم وسكنوا معهم في أحيائهم، بل أصبحت الكثير من العائلات المغربية تسعى للارتباط بنظيراتها الجزائرية[137]. مما حدا ببعض الأصوات الفرنسية إلى توجيه نداء إلى الإقامة العامة، لبذل مجهود إضافي لصالح الجزائريين بإحصائهم وتأطيرهم إداريا ووضعهم تحت وصاية سلطات المراقبة الفرنسية، تم تلبية مطالبهم ليظلوا مرتبطين في أغلبهم بفرنسا خشية الارتباط بالمغاربة[138]. لكن هذا الرهان لم يتحقق.

أمام هذا التطور الإيجابي الذي حصل اتجاه المغاربة، بدأت بوادر انكسار ل "جسور الإخاء" إزاء الفرنسيين. حيث اعتقد الجزائريون المسلمون أنه تم تجاهل مطالبهم وتعرضوا

---

[134]Ibid.

[135] روجي لوطورنو، **فاس قبل الحماية**، ج. 1،، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، جزءان، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986 ، ص. 295.

[136]P. Decroux, *Les Algériens musulmans…, op. cit.*, p 97.

[137] محمد أمطاط، .. ، **م.س.**، ص.254

[138]M. Lemaille, *op. cit.*, p. 258.

للتحقير، رغم خضوعهم لضريبة الدم بشكل مخالف لما هو عليه الحال في الجزائر[139]. إلى جانب ما مس موظفيهم في إدارات الحماية من حيف عقب قرارات1926[140]، والتي أسقطت عنهم مجمل الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها زمن مقيمية ليوطي. كما أن فرنسيي الجزائر و الميتروبول لم يعد لهم أي إحساس بانتماء العنصر الجزائري المسلم إليهم، فقد أصبح بالنسبة لهم من "الأهالي"، إلى جانب معاداة أغلبيتهم لليهود مغاربة أو جزائريين[141].

وعليه، أخذ التقارب بين الجزائريين المسلمين والمغاربة يتطور تدريجيا ــ على عكس ما كانت تهدف له سلطات الحماية ــ خصوصا بعد الحرب العالمية الثانية عندما توحدت الحركات الوطنية في المغرب الكبير على مستوى مطالبها في التحرر والوحدة.

إذا كان العهد اليوسفي قد تميز بحصول تداخل ما بين النظام" القديم" و"الجديد"، فإن ما يمكن تسجيله هو الدور الوازن للسلطان مولاي يوسف باعتباره سلطة شرعية ودينية في الحفاظ على طابع التعايش مابين الجزائريين المسلمين والمغاربة مسلمين ويهود، وقبوله العمل مع جزائريين مسلمين في مخزنه من أمثال قدور بن غبريط ومحمد المعمري[142]. وذلك بالرغم من

---

[139] لا يستفيد الجزائريون المسلمون في المغرب من نسبة الإعفاء المرتبطة بالقرعة التي توجد فقط بالجزائر.

[140] هو قانون نقل الموظفين الجزائريين المسلمين الذين احتفظوا بنظام أحوالهم الشخصية في إطـــار رعايا فرنسيين من إطار فرنسي (Cadre Français) إلى إطار مغربي واندماجي (Cadre Marocain et Assimilé )، ففقدوا تدريجيا الامتيازات التي يستفيد منها نظراؤهم الفرنسيين.

أنظر تفاصيل هذه القوانين في :

Bulletin Officiel., n° 690 du 12 janvier 1926, pp. 46-49.

[141] محمد أمطاط، .. ، م.س.، ص.245

[142] م.ن.، ص.ص.153-156

تأثيرات نظام الحماية الساعية إلى خلق نوع من القطيعة ما بين جارتين – المغرب والجزائر–
كثيرا ما أثبت التاريخ تواصل علاقاتهما التاريخية. فظل المغاربة خلال فترة حكم السلطان المولى
يوسف يحتكمون في الغالب إلى مبدأ حسن الجوار و الاعتزاز بالماضي التاريخي المشترك و
استشراف الآفاق المستقبلية الواعدة للبلدين.

# الجماعات اليهودية المغربية: 1912-1927

محمد حاتمي
كلية الآداب- فاس سايس

يستوجب النبش في مواضيع لها علاقة مباشرة بتطور الجماعات اليهودية المغربية زمن الحماية، التخلص من مجموعة من الأفكار المسبقة والصور النمطية التي عادة ما تعيق البحث وتغله وتجعله رهين كليشيهات جاهزة أكثرها لا يمت للواقع بصلة. ولعل أبرز الصور النمطية وأكثرها تأثيرا بشكل سلبي تلك التي تفيد بأن اليهود -على عكس المسلمين- عاشوا في وضع حسن وأنهم نالوا الحظوة وتشبعوا بالأفكار الليبرالية وارتشفوا بمثل الجمهورية الفرنسية (حرية ومساواة وإخاء)، فأضحوا متحررين ومتعلمين وماديين إلى أقصى الدرجات مما حال دون انخراطهم في مسلسل رفع التحديات الكبرى التي واجهها المسلمون في سبيل التشبث بشخصيتهم واسترداد استقلالهم وتكريس ما اعتبروه مصادر كرامتهم. وعلى الرغم من أن المتتبع لمسلسل التطور التاريخي الذي مرت به الجماعات اليهودية في ظل الحماية قد لا يجد بدا من التسليم أحيانا بالعديد من العناصر المكونة لهذه لصورة النمطية، فإن ما تجدر الإشارة إليه هو أن ما نعنيه عادة بالجماعات اليهودية لا يدل في حقيقة الأمر على كيان منسجم مسته المؤثرات والمستجدات بقدر متكافئ، فتمخض عنها نتائج من نفس الحجم والطبيعة. والحقيقة أنه لم تعمم الاستفادة من فوائد ومزايا الإمبريالية حيث سجلت درجات مختلفة للانتفاع والإنعام حصلت فيها بعض الفئات -وهي قليلة جدا- على نصيب وافر، وأخرى على قسط لا يمكن التقليل من أهميته، في حين ظلت الغالبية العظمى من اليهود المغاربة في وضع دوني ولم تستفد لا

ماديا ولا معنويا من زمن الحماية، بل إن وضعها الاجتماعي والاقتصادي زاد تعقيدا واضمحلالا.

وتتطلب الموضوعية المنهجية التذكير بمجموعة من الحقائق التاريخية واستحضارها أثناء التحليل حتى يتأطر العرض في نسق معرفي متكامل :

الحقيقة الأولى هي أن الوضع الأمني للجماعات اليهودية اتسم دوما بالتذبذب (شأنهم شأن المسلمين). فسواء استقروا في المدن أو انتظموا في قبائل، فقد نعموا بالهدوء إبان حكم السلاطين الأقوياء (عموما خلال فترات أوج الدول التي تعاقبت على حكم المغرب). وفي المقابل، تتدهور الأوضاع حين وقوع أزمات عامة (سياسية واقتصادية ومناخية وبيئية وصحية...). وبديهي أن أصعب الفترات وأكثرها مشقة على الجماعات والأفراد، هي بالضبط "لحظات" انتقال السلطة من ملك إلى آخر لانفتاحها على جميع الاحتمالات. ولم يبدد الحضور الفرنسي من عمق وحجم هذا الشعور، فحين وفاة مولاي يوسف ثم في وقت متأخر حين تنصيب مولاي عرفة، شهدت المجالات اليهودية استنفارا ملحوظا. وفي الأيام التي تلت وفاة الملك محمد الخامس (موت مفاجئ) شهدت المجالات اليهودية حركية غير عادية دفعت بمصالح الأمن إلى التدخل لطمأنة سكان الملاحات وأصحاب المقاولات والمحلات التجارية.

والحقيقة الثانية هي التزام الدول المغربية على اختلاف مرجعياتها ودرجة تشددها في تطبيق الشرائع والقوانين، باحترام مبدأ استقلالية الجماعات اليهودية في تسيير أمورها الداخلية وحل قضاياها ومشاكلها الشرعية. فمنذ تأسيس الدولة الإسلامية في المغرب، دأب اليهود على تنظيم أمورهم الداخلية في استقلالية تكاد تكون تامة عن السلطة السياسية وعن القائمين على تنظيم الحياة العامة للمسلمين (علماء وقضاة...). وأسست الجماعات اليهودية -خاصة بعد قدوم يهود إسبانيا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر- مجموعة من المؤسسات الخاصة لعبت دورا رياديا في تكريس الاستقلالية والحفاظ على انسجامها وتحقيق التضامن بينها وضمان الصلات مع يهود العالم الخارجي، خاصة وأن الأساس في عملها كان

هو الاهتمام بالجوانب الدينية والأعمال الخيرية. وكان أمر تسييرها في الغالب حكرا على الأعيان المعترف لهم بالفضائل الخلقية واليسر المادي، وأهمهم النجيد (شيخ اليهود) الذي يعينه أو يبارك تعيينه السلطان، يتلوه هرميا المكلف بالصندوق (الكزبار)، وهي شخصية مهمة داخل الجماعة لكونه مكلفا بتدبير أملاك الجماعة وضمان تسديد الجزية. وفوض للمحكمة الزبية حل قضايا الأحوال الشخصية. وعموما، كان التنظيم الداخلي يعطي الانطباع بوجود "دولة داخل الدولة" ويشتغل كحلقة الربط بين المخزن المركزي والمحلي واليهود. وقد أبقت الإدارة الاستعمارية على نفس البنيات التقليدية الخاصة باليهود خلال السنوات الست الأولى من الحماية.

والحقيقة الثالثة هي أن بني مرين أسسوا لعرف سلطاني أطر للعلاقات بين السلطة العليا والرعايا اليهود، جعل مأموريات حماية أرواحهم وصيانة مصالحهم من مهام الدولة. وفي وقت لاحق، جعل الملوك العلويون من حماية اليهود تقليدا سياسيا ضموه إلى الأسانيد الشرعية والسياسية التي تؤثث لمشروعيتهم في الحكم. وتجدر الإشارة إلى أن العناية بيهود العواصم السلطانية وتخصيص بعض وجهاء اليهود بالحظوة وتكليفهم ببعض أعباء الحكم ذات الطابع التقني، دوافعها سياسية محضة. فلم يهدف السلاطين من وراء هذا التكليف الرفع من وضعية اليهود داخل المدينة الإسلامية، ولا سعوا إلى دمجهم بشكل عضوي. كانت الغاية الرئيسية هي حفظ مجموعة من المصالح المادية وتنميتها من خلال الاستفادة من مهارات النخب اليهودية لدرايتها بالتدبير المالي، ولحركية التجار بين القبائل والمناطق، ولأنهم لا يشكلون خطرا على الدولة لافتقادهم للشرعية الدينية والعصبية. وعليه فإن "استعمال" النخب كوزراء أو مسؤولين كبار لا يعني اعتبار السلاطين لموظفيهم مالكين للسلطة وعناصر لازمة للحفاظ على الاستقرار الداخلي. وتجدر الإشارة إلى أن موقف عموم اليهود من الظاهرة اتسم في الغالب بالسلبية، فهم لم يستحسنوا تطور العلاقات الخاصة بين ميسوريهم والمخزن لأنها تمثل على الدوام مصدر نقمة المسلمين.

ويبدو واضحا من خلال استحضار هذه الحقائق التاريخية أن الجماعات اليهودية المغربية طورت آليات ذكية للتعبير عن ولائها لسلاطين البلاد وظلت تعتبرهم ضمانات

حقيقية لحفظ الأرواح والمصالح. ولم تتغير هذه الآليات -على الأقل من حيث الشكل- بعد أن حل المستعمر وأضحى السيد الحقيقي للموقف، خاصة وأن الفرنسيين على عكس ما كان متوقعا، لم يسعوا إلى تحديث أشكال وكنه الضوابط المؤطرة لعلاقات السلطان برعيته، بل إنهم عن قصد كرسوها وعملوا على الرفع من شحناتها الرمزية والفعلية. وما من شك أن السلطان مولاي يوسف حظي منذ تاريخ تنصيبه بدعم الجماعات اليهودية، ذلك أن حدث توليته اعتبر كخاتمة لفترة سوداء لاقترانها بسيبة كبيرة عانى فيها اليهود توترا شديدا جعل فئات عريضة منهم تسعى إلى الاحتماء بالأجنبي. وتمثل ما عرف بأيام "فاس الدامية" أحداثا سيئة الذكر ونموذجا لتعرض يهود المدن للفتنة حيث ظلت العديد من الصور عالقة في الأذهان من جرائها. ثم إن السلطان الجديد أبان منذ البدايات على استعداد أخلاقي وفلسفي للاستفادة من الوجود الفرنسي العسكري والاقتصادي، وهو بالضبط ما كانت تعتبره فئات عريضة من اليهود رهانا ناجعا معيشيا وحضاريا.

ويحسن بنا في البداية سرد واقعة لا تخلو من دلالة. ففي سنة 1923، زار مولاي يوسف مدينة مكناس فاستقبل وفدا ممثلا لجماعة المدينة أهداه ثلاثة ثيران، وقدم له ملتمسا مكتوبا جاء فيه :

"إن الساكنة الفقيرة والعاملة في الملاح تطرح أمام جلالتكم الوضع المأساوي التي توجد فيه، فهي مجبرة على العيش في مجال ضيق جدا، ووسخ ولا يصلح أصلا للسكن، وهي كذلك مستغلة من طرف بعض المالكين الأغنياء الذين يتقاسمون العمارات ويكترونها بأثمان مبالغ فيها. والساكنة في ظروف وقائية من غير الممكن وصفها لجلالتكم، ففي نفس الغرفة تتكدس ثلاث إلى أربع عائلات، ويضطر الأب للتعايش مع أبنائه المتزوجين، ولا نظن أن هنالك ملة واحدة تقبل بهذا الوضع...".

وتمكن قراءة متأنية للنص من استخلاص مجموعة من المعطيات أهمها :

- استمرارية "العادة" القاضية باستقبال السلطان لوفد ممثل عن اليهود على اعتبارهم رعاياه، وكذلك تكريس تقليد تقديم هدايا للسلطان. ويبدو أن الوفد كان مكونا من ممثلين تقليديين يحظون بمصداقية أخلاقية ولهم علاقات متميزة مع رجال المخزن.

- الاعتقاد في استمرارية لعب السلطان لوظائفه التقليدية والتي تجعله قبلة ترفع إليها المظالم ويرجى منه حلها في أقرب الآجال عبر إصدار أوامر مطاعة. وفي المقابل، هنالك إشارات واضحة إلى رغبة السلطان في الاستمرار في القيام بما يعتبره وظائف شرعية على الرغم من أن التنفيد وآلياته وغاياته باتت رهينة حسابات جهة أخرى هي الفاعل الحقيقي في السياسة المغربية، ونعني به إدارة الحماية التي يرأسها الجنرال ليوطي، وهو سياسي مدرك بحقائق التركيبة المغربية وبضرورة الحفاظ على الحضور القوي لشخصية السلطان.

- التنديد بممارسات ريعية تقوم فئة جديدة من اليهود الذين اغتنوا زمن الحماية أساسا بفضل التحالف مع الرأسمال الأجنبي وباتوا يهيمنون على الشأن اليهودي من دون أن تكون لهم مؤهلات تقليدية (أخلاقية ودينية وعائلية). وهؤلاء بالضبط هم من أضحوا يعتبرون أنفسهم الأحق بالنيابة ويرفضون أن يستمر "القدامى" في القيام بمأموريات اجتماعية من موقف المطالب بالإنعام سواء كان المحاور هو السلطان أو رجال المخزن أو حتى السلطات الفرنسية. إن الجيل الجديد المتعلم في مدارس الرابطة اليهودية العالمية يعتبر أن من حق اليهود الحصول على حقوق مضمونة قانونيا، وهي حقوق تضع حدا للدونية الموروثة عن أزمان الذمة، بل إنه يصبو إلى الانفلات من أواصر البيعة ويعتبرها وسيطية ومكرسة للوضاعة والصغر، ويطمح في المقابل إلى الاندماج في المجتمع الاستعماري الذي يستشعر نفسه مؤهلا علميا وحتى طبيعيا للانتماء له.

ونجد في الموقف من الصهيونية إشارات إضافية تدل على الموقف السلطاني من القضايا اليهودية. فخلال الست سنوات الأولى من الوجود الفرنسي في المغرب، لم تعر سلطات الحماية موضوع الصهيونية أهمية متميزة لا سيما وأن عدد الخلايا كان قليلا وأنشطتها محدودة وليس لها اتصالات مرئية مع جهات خارجية، وبالتالي لم تكن تشكل أي تهديد لا داخلي ولا خارجي. وحددت الإقامة العامة بالرباط موقفها من الصهيونية مباشرة بعد نهاية

الحرب العالمية الأولى وذلك بعد حصول المنظمة الصهيونية العالمية على وعد بلفور وانعقاد مفاوضات سان ريمو ومباركة عصبة الأمم للانتداب الإنجليزي على فلسطين وتقوية التنظيمات الصهيونية في أوربا الغربية وفي فرنسا نفسها، تطورات دفعت بإدارة الحماية إلى إعطاء الموضوع أهمية خاصة. وقد أشارت العديد من التقارير المرفوعة إلى الإقامة العامة إلى تسجيل العديد من مظاهر الفرحة والاحتفالية داخل المحافل اليهودية عند الإعلان عن وعد بلفور، وبعيده تأسست مجموعة إضافية من الخلايا في مراكز حضرية مختلفة (مراكش وفاس ومكناس ووجدة والدار البيضاء والجديدة) وأخرى في الشمال المغربي (طنجة والعرائش). ولجل هذه الخلايا مراسلات مع الفيدرالية الصهيونية الفرنسية. ونبهت تقارير استخبارية إضافية إلى إقدام مجموعة من المتطوعين اليهود على تقديم طلبات للقنصلية البريطانية قصد الحصول على تأشيرات للسفر والاستقرار في فلسطين. عندئذ، انتبهت إدارة الحماية إلى أن الوضع يستوجب ضبط الخلايا المحلية قبل أن تتحول إلى تنظيمات سياسية أو ذات طابع سياسي، فأقدمت على مجموعة من التدابير الأمنية الغرض منها هو التضييق على الخلايا الموجودة والحيلولة دون تأسيس أخرى جديدة وعرقلة الهجرة نحو فلسطين ومنع جمع الأموال والتبرعات وبيع الشيكل لصالح البيشوف.

ويمكن تقديم مجموعة من الأسباب لتفسير التشدد الذي سنته إدارة الحماية في تعاملها مع الصهيونية في المغرب، إلا أن أهمها هو ما دأب ليوطي نفسه على ترديده في كون الفئات المسلمة المؤثرة وأغلبية الأهالي المسلمة لا ترى بعين الرضى تنامي أنشطة عمومية يعتبرونها مروقا وتمردا عن الضوابط التقليدية المقننة للعلاقات معهم. فعلى ذيل رسالة مرقونة إلى وزارة الخارجية في موضوع النشاط الصهيوني بالمغرب، أضاف ليوطي بخط يده العبارة التالية : "إن السلطان ورجال المخزن والطبقة المسلمة المتنورة والراقية برمتها والتي تشكل الأساس الصلب الذي يقوم عليه نظام الحماية هنا، تنظر إلى الصهيونية نظرة سلبية، وهم فاتحوني في أمرها في مناسبات عديدة. ولا يمكن طبعا إغفال هذا المعطى السياسي لأهميته البالغة". وتدل العبارة المستعملة على أن مولاي يوسف كان على بينة من التطورات الحاصلة في الملاحات وأنه كان يوليها اهتماما خاصا.

ومهما يكن من أمر فإنه خلال سنوات حكم السلطان مولاي يوسف تعرضت الجماعات اليهودية المغربية لتطور ملموس شكلت عناصره البوادر الأولى لمسلسل سيأخذ في عقد الثلاثينيات وما بعدها وثيرة أكثر سرعة، وهو ما سيجعل مساراتها مختلفة عن الأغلبية المسلمة. ويمكن تلخيص أهم المتغيرات في خمسة معطيات رئيسية. أولها هو النمو الديموغرافي المتميز الذي شهدته الجماعات ؛ فعدد يهود المنطقة الفرنسية انتقل من 150 ألف نسمة في بداية القرن إلى ما يناهز 200 ألف في النصف الثاني من عقد العشرينات، ثلثهم يعيشون في المدن (أغلبهم في الملاحات) وهو ما يعني أن ظاهرة الهجرة القروية همت في بداية الأمر يهود المناطق المهمشة الذين انتقلوا نحو المدن الكبرى خاصة مراكش والدار البيضاء، وكذلك نحو المراكز الحضرية المتوسطة والصغيرة التي باتت مجالات هجينة مستقطبة وارتفع فيها الطلب على الخدمات المباشرة (التجارة والتطبيب...). ويكمن المعطى الثاني في تدني المستوى المعيشي لغالبيتهم. فباستثناء بعض العائلات التي تمكنت من الاغتناء وفئة من المتعلمين نجحت في تحقيق ارتقاء اجتماعي ملحوظ، فإن مستوى عيش يهود المدن والقرى على السواء تراجع تدريجيا لصالح فئات جديدة تخصصت في إنتاج وتسويق موارد اقتصادية كانت إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر حكرا عليهم. ويتمثل المعطى الثالث في حرص السلطات الفرنسية على أن لا يحصل اليهود بشكل جماعي على امتيازات حصرية من شأنها زعزعة التوازنات الاجتماعية والاقتصادية وضرب الثوابت السياسية. فيهود المملكة ظلوا رعايا السلطان مصنفين ضمن الأهالي ولم "ينعم" بالجنسية الفرنسية سوى نسبة قليلة جدا. ويحيل المعطى الرابع على وقوع انقلاب كبير في طبيعة العلاقات بين المسلمين واليهود حيث تقلصت مظاهر الدونية التي شكلت لقرون أسس التعايش، ونتج عن اندحارها تعدد مناسبات الاحتكاك والتصارع وتدهور تدريجي للنسق المعاملاتي بين الأغلبية والأقلية.

ومن دون شك أن التطورات التي شهدتها الجماعات اليهودية أثرت على علاقاتها بمحيطها المسلم، وخاصة على أواصر التعلق برموز الدولة المغربية. فالارتباط بالسلطان بات صوريا، في حين غلب على النظرة لرجال المخزن الاحتقار وعدم الاعتبار. أما خامس

المعطيات وهو لا يخلو من أهمية فيكمن في سبق العائلات اليهودية في جعل أبنائها يستفيدون من مزايا تعليم عصري ممنهج سهرت على تعميمه الرابطة اليهودية العالمية (الأليانس) L'Alliance Israélite Universelle.

لا شك أنه كان للتعليم اليهودي في المدارس الفرنسية-اليهودية والمؤسسات التعليمية التي أشرفت عليها الأليانس، الأثر الكبير في صنع الشخصية المتميزة للمتعلم اليهودي [143] . فقد حققت المدرسة ثورة حقيقة في نظرة الطفل والناشئ اليهودي لنفسه ولذويه ولمكونات مجاله وعلاقاته بها وآفاقه القريبة والمتوسطة والبعيدة. فالمناهج والبرامج التعليمية عملت تدريجيا على تعميق قناعة التلميذ بأن "حماية فرنسا حلت محل حماية السلطان"، وأن رعاية الجمهورية "أنجع وأضمن وأفيد للارتقاء والانفلات من واقع الملاح الفكري". فتشديد التعليم اليهودي في برامجه على رد الاعتبار للمقومات الذاتية وحثه على احترام الموروثات الثقافية والتشبث بالمؤسسات "الأزلية" لم يهدف قط إلى تكريسها بشكل سلبي، وإنما الانطلاق منها لتجاوز عقد ومعيقات الماضي، واعتبار التاريخ اليهودي بالمغرب يبدأ مع الوجود الفرنسي الذي يجبل ما قبله فيما يخص الانتماء والولاء والتأسيس للمستقبل. وقد أسست القناعة الجديدة للنقلة الثورية في علاقة المتعلم بمحيطه، والتي تمثلت إحدى أهم مظاهرها في خروج المتفوقين من مجال حي الملاح، ثم في وقت لاحق نسف الجسور التي تربطهم به عبر ترحيل ما تبقى من العائلة إلى مجال المدينة الأوروبية.

وساهم في تفعيل آليات التعليم اليهودي العصري وتحقيق أغراضه، قبول وإقبال العائلات اليهودية عليه بحماس ومواظبة. إن الثقة الكبرى التي وضعتها العائلات اليهودية في التعليم العصري واعتبارها إياه المسلك الأضمن لمستقبل أحسن لأبنائها، أمور ساهمت

---

[143] في سنة 1915، كتب مندوب الأليانس في المغرب (جورج هاردي) ما يلي : "يجب علينا خلق تحول حقيقي في عقلية اليهود، وتحقيق نقلة نحو العقلية المتحضرة مع مراعاة أن يبقى التلاميذ محترمين للعادات الدينية اليهودية. وفيما يتعلق بالتعليم التقني والعلمي، فبإمكان اليهود الإلمام بالتقنيات التي تجعلهم مؤهلين للعمل في ميادين المحاسبة التجارية والتدبير الإداري، وهي ميادين تمكنهم من الانفلات من البؤس..."،
Cité in A. Baîna, *Le système de l'enseignement au Maroc*, Casablanca, Ed. Maghrébines, 1981, T. II, p. 115.

بقسط كبير في عملية المسخ الكبرى التي تعرضت لها النخب اليهودية. فالإيمان بالأفكار الثورية الداعية إلى نبذ الأواصر التقليدية وتجاوز القيم الوسيطية واعتماد أسانيد عصرية مثل العلمانية والاستقلالية، كلها عوامل جعلت اليهودي يطمح منذ نعومة أظافره إلى تأسيس علاقاته مع السلطة والقائمين عليها على أسس تتوافق وما اعتبره السبل الحقيقية للانفلات من تبعات الارتباط بالدولة المغربية ورموزها. لقد سعى التعليم العصري إلى الرفع من معنويات التلاميذ عبر الإشادة بالمقومات اليهودية الكونية التي تتجاوز الأبعاد الوطنية وتتنكر للعديد من مظاهرها، ومن ثمة جعلهم مستعدين لخدمة فرنسا والعمل من أجل ترسيخ وجودها ؛ وهو ما جعلهم في آخر المطاف بعيدين كل البعد عن مشاغل البلد الذي ينتمون إليه. بات المتعلمون اليهود يعتبرون العمل الوطني تهديدا لجماعاتهم بنفس القدر الذي يمثل تهديدا للدولة الحامية، بل إنهم في الغالب أضحوا يعتبرون كل مكسب وطني هو أولا وأخيرا مكسب أخلاقي ومادي للمسلمين لوحدهم وخسارة لليهود. والحقيقة أنه كان لمنطق تحرير اليهود في المغرب وقع عكسي عن مثيله في أوروبا التي أدى مسلسل التحرر بشكل طبيعي إلى إدماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها، فانصهروا في الأغلبية متجاوزين مشاعر الكره ضدهم والمحن والتنازلات التي طلبت منهم لتحقيق الهدف.

في حقيقة الأمر ومنذ حصول أولى الاتصالات بين النخب اليهودية المغربية والقوى الغربية، شكلت الرغبة في الانفلات من الأواصر التقليدية التي تربط "الإنسان" اليهودي بالدولة المغربية، أحد أهم المحفزات الرئيسية لانخراط مجموعات مهمة من الميسورين والمتعلمين اليهود في أسلاك اعتبروها مؤدية لتحقيق التحرر والاندماج في المجتمع الفرنسي و"الحاضرة الغربية". وهيمن على الأوساط المتنورة وجمهرة النخب العصرية -وبقدر أقل النخب التقليدية- شعور مستديم بالتوتر والقلق والتردد أججته بين الفينة والأخرى العراقيل المادية والمعنوية التي حالت دون تمتعها بامتيازات مادية ومعنوية وفلسفية اعتبرت نفسها مؤهلة لها، ولكنها محظورة عليها "إداريا" بدعوى تصنيفها في خانة الأهالي. وعليه، شكل مطلب الرفع من المستوى القانوني لليهود داخل المنظومة التيوقراطية المغربية مطلبا ثابتا على طول فترة

الحماية. وما يثير حقا المتتبع لمسلسل المطالبة بتحقيق هذا المطلب، هو افتقاد المطالبين لرؤى واضحة تمكن من ضبط ما كانوا يعنون حقا بالرفع من المستوى القانوني لليهود، فالدونية ليست وضعا قانونيا وإنما تحصيل اجتماعي ليس من السهل -بل وحتى من الممكن- تغييره عبر اعتماد نصوص قانونية. ثم إن القاعدة القانونية المعمول بها زمن الحماية لم تكن تسمح أصلا بالتفضيل بين فئة من رعايا السلطان وأخرى لاعتبارات دينية، هذا فضلا عن أن سيرة السلطات الفرنسية القاضية باحترام التراتبيات والحرص على الحفاظ على الانسجام الاجتماعي، جعلت "مسيرة" النخب اليهودية نحو ما اعتبرته "تحررا على النمط الغربي" أمرا صعبا. فسلطات الحماية كانت على بينة من الأهداف بعيدة المدى للمنادين بضرورة تغيير الأسانيد المؤسسة لعلاقات الرعايا اليهود بالدولة المغربية ورموزها حيث انتبهت إلى أنهم يسعون بكل بساطة إلى الحصول على الجنسية الفرنسية، وهو ما اعتبره أمرا غير مرغوب فيه.

وقد انتبهت إدارة الحماية إلى حيرة النخب المتنورة وكانت تخشى أن تتمادى في ثوريتها تعبر صراحة عن الرغبة في التنصل من أواصر الارتباط بالدولة المغربية ورموزها، وهو ما كانت تعتبره استفزازا من شأنه إثارة المسلمين وخلخلة ضوابط التعايش والتسامح. ثم إن الجنرال ليوطي أدرك أن قضايا يهود المغرب تتطلب نهج سياسة مزدوجة الوثيرة، قصيرة وطويلة المدى وتكون غايتهما هي ترشيد طموحات النخب والعامة من جهة، ومن جهة أخرى الحيلولة دون تسرب مؤثرات خارجية كان يعتبرها معادية بالفطرة للدولة الفرنسية، وعلى رأسها يأتي النشاط الخيري الذي تقوم به المنظمات اليهودية الأمريكية. ففي رسالة موجهة إلى وزارة الخارجية الفرنسية أوضح ما يلي :

"لم يقدم اليهود المغاربة أي ملف مطلبي أمام إدارة الحماية (...) إلا أنه يستوجب علينا في هذه المرحلة الدقيقة التي تعرف نهاية الحرب وتنامي الضغوط التي يمارسها يهود أمريكا وما حققته الفكرة اليهودية من نجاح (يقصد إعلان وعد بلفور)، أن نسد الطريق أمام محاولات تهدف إلى تقديم عرائض للمطالب، تزعم أنها من صياغة يهود مغاربة وترمي إلى الحصول على وضع خاص لليهود...".

وعليه بادرت بتاريخ 22 مايو 1918 بإصدار ظهير منظم للمؤسسات اليهودية "العصرية" [144] فصل في العديد من الأمور والقضايا المتعلقة بالمساطير التنظيمية والأحكام المدنية وتسيير المحاكم الربية [145] وتنفيذ أحكامها [146]. وحرص المقيم العام ليوطي شخصيا على أن يتوافق النص شكلا ومضمونا والروح العامة التي طغت على الظهائر في تلك المرحلة المتقدمة من الوجود الفرنسي في المغرب، والهادفة إلى إعادة هيكلة وتنظيم المؤسسات المخزنية والهيئات العمومية التي أوكلت إليها مأموريات تسيير الحياة العامة للأهالي والرفع من فعالية السلط التي تمارسها وترسيخ امتثال من تمارس عليهم قصد ضمان انسجام المكونات المختلفة للمجتمع المغربي. وتم إصدار قانون إضافي بالتاريخ نفسه خاص بالجماعات اليهودية في المنطقة السلطانية أسس ونظم وحصر صلاحيات مجالس الجماعات، وهي هيئات "معينة/منتخبة" فوضت إليها مأموريات تسيير وتدبير الأعمال الخيرية (تنظيم التكافل الاجتماعي للجماعات والمساعدات الصحية) وتنظيم الحياة الدينية (البيع والجنائز والمقابر والتعليم الديني) وصيانة الأوقاف اليهودية والأملاك العقارية والهبات والامتيازات، أي أن مجلس الجماعة حل محل ما كان يعرف فيما سبق بجماعة اليهود التي يرأسها شيخ اليهود.

---

[144] Dahir du 22 mai 1918 (11 *chaabane* 1336) portant réorganisation des Comités israélites, in *BO*, n. 292, 27 mai 1918, p. 525.

ليس لهذا الظهير صيغة عربية رسمية منشورة.

[145] Dahir du 22 mai 1918 (11 *chaabane* 1336) portant réorganisation des tribunaux rabbiniques et du notariat israélite, in ibid, p. 523 ; Dahir du 22 mai 1918 (11 *chaabane* 1336) portant institution d'un Haut tribunal rabbinique, in ibid, p. 525.

[146] صدرت نصوص إضافية فصلت في الأمور التنفيذية من أهمها ظهير 17 مايو 1919 و ظهير 31 مايو 1920، وجعلت جميع القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية والمواريث من اختصاص المحاكم الربية في المدن التي تسكنها جماعات يهودية مهمة من حيث العدد (ظهير 7 شتنبر 1913 الصادر بالجريدة الرسمية بتاريخ 9 شتنبر 1913، ص. 8051)، وتتكون من الربي كرئيس، يساعده قاضيان ربيان وكاتب ضبط، وكلهم معينون بقرار وزاري. أما الاستئناف، فهو من اختصاص المحكمة الربية العليا بالعاصمة.

وقد أكدت إحدى دوريات إدارة الداخلية على أنه إذا تركنا جانبا المأموريات التنفيذية للمجالس الجديدة، فإن الأهم هي الوظائف الأخلاقية والتي " فضلا عن حرصها على احترام السلطات المخزنية، قيامها بدور المنظم للحياة العامة داخل الملاحات. وهي تمثل من الناحية السياسية الهيئات التي تضمن اعتدال مواقف الشبيبة المتعلم لأنها تجعل من التعايش والوئام والانسجام ضمانة لاستمراريتها وتطورها التدريجي...". وتم فعلا تأسيس مجموعة أولى من المجالس في أهم المدن، ثم في وقت لاحق في المراكز الحضرية المتوسطة والصغيرة. ولمراقبة عمل وتوجهات الهيئات المستحدثة وتفعيل المخططات المسطرة، أنشأت الإدارة الاستعمارية "مفتشية المؤسسات اليهودية".

وما من شك أن المجالس كرست الوضع القائم في اتجاهين، الأول هو ترك أمر تدبير الشأن اليهودي في يد النخب التقليدية، والثاني هو الاستمرار في اعتبار اليهود المغاربة رعايا السلطان يسوسهم وفق القوانين والأعراف التقليدية الموروثة عن زمن ما قبل الحماية [147] . وبالرغم من أن هذه المؤسسات اشتغلت في الغالب بشكل شبه عادي، فإنه حدث من فعالية أنشطتها الصراعات الشخصية بين الأعضاء حيث وجدت الإدارة نفسها في مناسبات عديدة مضطرة للتدخل إما لتحقيق توافقات أو للحسم لصالح أحد الأطراف.

والظاهر أن ثمة مجموعة من الدوافع السياسية جعلت الإقامة العامة تجتهد في إصدار وتفعيل مقتضيات القوانين المستحدثة. فليوطي انتبه إلى كثرة وتنوع مطالب واحتياجات الجماعات اليهودية، واعتبر أن جلها لا تخلو من مشروعية لأنها تطمح إلى تحقيق وضع خاص في الأمور الشرعية وتكييف التنظيم الداخلي مع المستجدات من جهة، وترمي إلى التقليص من "وطأة" تحكم رجال المخزن المحليين (القواد والباشوات)

---

[147] عرض ليوطي الأسباب التي دفعت به إلى إصدار هذا القانون

**MAE/Maroc 1917-1940 (826-Culte israélite 1917-1927), Le général de division Lyautey à Pichon : Réformes juives, Rabat, 13 juin 1918.**

من جهة أخرى. وإدراكا منه بأن نتائج الحرب تغري النخب اليهودية المغربية بالبحث عن سند خارجي لدعم مطالبها، فإنه ارتأى أن الحكمة السياسية تقتضي تحقيق نوع من "التحرر" بشكل يجعل علاقات الجماعات مع المخزن تأخذ أشكالا جديدة تعطي الانطباع بأنها تتقلص من حيث الحجم والطبيعة، إلا أنها في الحقيقة تتوطد من حيث ارتباط الجماعات برموز الدولة المغربية. وما من شك أن سياسة ليوطي تجاه الجماعات اليهودية توافقت ومنطق التسيير العام الهادف إلى الرفع من مستوى الأهالي اقتصاديا، شريطة أن يساهم هذا التطور في تكريس التراتبيات الاجتماعية داخل الجماعات نفسها وفي علاقاتها مع الأهالي المسلمين والمستعمرين الأوروبيين. ويكمن السبيل الأنجع لتحقيق هذه المعادلة الصعبة حسب المقيم العام في توسيع مجالات استقلالية الجماعات، وهي على كل حال استقلالية محصلة منذ قرون ومترسخة في الأعراف.

وخلاصة القول إن الجماعات اليهودية المغربية عرفت تحولات مهمة خلال سنوات حكم مولاي يوسف حيث انخرطت في دينامية أكثر سرعة من التي عاشتها نظيرتها المسلمة، وهو ما جعلها أكثر استعدادا للتأثر بالمؤثرات الأجنبية. ولئن ظلت عامة اليهود على "فطرتها"، فإنه حصلت في المقابل "علمنة" لنخبها التي باتت تعتبر أن الأصل في الانتماء الوطني ليس هو الدين، وإنما حجم وطبيعة المساهمة الإيجابية في صنع حاضر ومستقبل المجتمع. ولا يعني هذا أنها مسخت أو فقدت مميزاتها بدليل استمرارية لازمة المحافظة التي طبعتها لقرون. ولعل أحسن وصف لوضعها هو ما لاحظه كل المتتبعين لتطورها حين أقروا بأنها فئات هجينة حرصت على أن تبقى أرجلها مسمرة في واقع البلد، ولكنها لم تستطع مقاومة تطلع الرأس لآفاق جديدة تقع جميعها في العالم الغربي. ثم إن مطلب الحصول على حقوق ثابتة وجه في اتجاه اتسم بالطوباوية وافتقاد شروط الواقعية السياسية والفلسفية، إذ ما ذا يعني التطلع إلى وضع يكون فيه اليهودي مواطنا من درجة أرقى من المسلم وتحت حماية قوى خارجية، لمجرد ادعائه أن الدولة المغربية عاجزة على حمايته ورعاية مصالحه. ومهما يكن من أمر فإن اليهود لعبوا دورا مهما

في تحديث المجتمع المغربي حيث كانوا سباقين إلى تبني وتطوير العديد من مظاهر الحداثة (التعليم العصري والتخصص في الخدمات والأنشطة التطوعية...)، كما كان لميسوريهم نصيب في حبك مسلسل إدماج الاقتصاد الوطني في المسارت العالمية.

# زيارة مولاي يوسف إلى الديار الفرنسية وتدشين مسجد باريز

ماريه دادي

كلية الآداب– وجدة

## مقدمة

قام المولى يوسف بزيارة رسمية إلى فرنسا ابتداء من الأسبوع الثاني من شهر يوليوز 1926م، وتعتبر هذه الرحلة[148] هي أول زيارة لسلطان مغربي إلى بلاد أجنبية خارجة عن سيطرة المسلمين، وكان الغرض الأساسي منها، هو افتتاح المعهد الإسلامي وتدشين المسجد الكبير بباريز.

وبمناسبة هذه الزيارة وضع محمد المعمري الزواوي أول نشيد وطني مغربي بالعربية والفرنسية ولحنه ضابط فرنسي بالحرس الملكي ، وعزف عندما كان مغادرا أرض الوطن.

وستتركز هذه المداخلة على نقطتين أساسيتين: الأولى هي الزيارة الملكية إلى فرنسا، والثانية حول تدشين المعهد الإسلامي بباريز.

## I– رحلة المولى يوسف إلى الديار الفرنسية ومسارها

كان الشروع في الرحلة الملكية زوال يوم الأربعاء 26 ذي الحجة عام 1344 / 7 يوليوز 1926م ، وقد رافق المولى يوسف في هذه الرحلة الأمراء مولاي إدريس الخليفة بمراكش

---

148 – دون أعمالها كاتب فرنسي اهتم فيها بالرسميات، ثم عربها عبد السلام بن يوسف المترجم الممتاز. نشرت عام **1927** موضحة بالصور في المطبعة الدولية بباريس في حجم كبير عريض. وجاء عنوانه "**اقتبال جلالة مولاي يوسف سلطان المغرب الأقصى بقصر البلدية بباريس**، وافتتاح المعهد الإسلامي ومسجد باريس".

ومولاي الحسن وسيدي محمد، وقد عيّن كذلك "لمرافقة الركاب الملكي الجم الغفير من الصدور والأعيان للتفخيم من قدرها، والزيادة في آبهتها"[149] من جملتهم الصدر الأعظم السيد محمد المقري والحاجب الملكي السيد التهامي اعبابو ووزير الأوقاف السيد أحمد اللجائي والسيد قدور بن غبريط رئيس التشريفات الملكية والسيد عبد الرحمن بركاش باشا الرباط والسيد محمد بن الطيبي الصبيحي باشا سلا، ومن ناحية مراكش الباشا التهامي لكلاوي والقائد الطيب الكندافي وغيرهم، ومن ناحية وجدة مولاي أحمد بن منصور باشا وجدة، والسيد الطيب بن الحسين، والشيخ أحمد بن المختار، والسيد الحاج العربي، والسيد قويدر ولد مولاي ارشيد، والسيد أحمد ولد العربي مزيان، والسيد أحمد ولد عبد الغني الزيزي.[150] بالإضافة إلى عدد من القضاة والشخصيات الهامة من مختلف جهات المملكة: من فاس والجديدة وآزمور وسوق الأربعاء وناحية الغرب وسطات وسيدي سليمان وآسفي وغيرها .

قلع المولى يوسف من الرباط زوال يوم الأربعاء 7 يوليوز 1926م ، على متن قطار خاص هو وعائلته، وذهب القطار رأسا إلى ميناء البيضاء، وفي الساعة السادسة من نفس اليوم تحركت الباخرة في اتجاه الديار الفرنسية بعد أن شهد بالبيضاء حفلة وداع، وكان من مرافقيه على ظهر الباخرة المقيم العام ستيغ ( Théodore STEEG )، أما الأعيان المغاربة الذين تشرفوا بمرافقة الركب السلطاني، فقد توجهوا رأسا لفرنسا لكي يتمكنوا من استقبال السلطان يوم حلوله بباريز. وقد وقفت المدرعة التي كانت تحمل المولى يوسف بثغر طولون (Toulon) بجنوب فرنسا حيث استقبل استقبالا حارا، وبعد الاستراحة جدد السير إلى باريز التي وصلها يوم 12 يوليوز، وفي محطة ليون منها كان رئيس الجمهورية دوميرك " Gaston DOUMERGUE "[151]

---

[149] - ابن زيدان، المناهج السوية في تاريخ الدولة العلوية، مخ، خ.ح. رقم: 11770، ص. 77.

[150] - عبد العزيز بن عبد الله، فكرة تأسيس مسجد باريز، مجلة دعوة الحق، ع: 298، سنة، 1988، ص.181.

[151] - Gaston Doumergue ( 1863 - 1937) شغل منصب رئيس وزراء فرنسا في 8 دجنبر 1913 لكنه انسحب في 2 جوان 1914م، ثم انتخب رئيسا للجمهورية سنة 1924م.

ورئيس الوزارة بريان (Aristide Briand)[152] وكثير من الشخصيات الفرنسية ينتظرون القطار المقل للسلطان. وبعد وصوله سلم عليه الحاضرون وامتطى متن سيارة هو ورئيس الجمهورية أقلتهم للقصر الفخم المخصص لنزول الضيف، وبعد وصول المولى يوسف إلى قصره عاد رئيس الجمهورية إلى قصر الإليزيه على الساعة الرابعة من نفس اليوم، وبعد ذلك توجه الضيف إلى قصر الإليزيه لزيارة رئيس الجمهورية وكان بمعيته السفير ستيغ (STEEG ) والجنرال كَورو (Le général Gouraud ) حاكم باريز العسكري يومئذ. وبعد مبادلته عبارات الود خرج مولاي يوسف بعربته قاصدا قوس النصر حيث كان في انتظاره الجنرال كَورو (Gouraud ) وجم غفير من كبار القوم. فتقدم مولاي يوسف ووضع إكليلا من الزهور على قبر الجندي المجهول منقوشا على بعض فروعه هذه العبارة " **من سلطان المغرب الأقصى إلى الجندي الفرنسي المجهول** " ثم وقع استعراض الجنود التي كانت محتشدة على جنبات الطريق، ثم عاد وسط الهتافات إلى القصر المعد لنزوله.

أما اليوم الثاني من وصوله ( 13 يوليوز ) فقد قضى صبيحته في الاستراحة، وعلى الساعة الرابعة يمّم قصر البلدية، فاستقبله رئيسها وأعضاؤها ورئيس الجمهورية، وتبادل رئيس البلدية والمولى يوسف كلمات الترحيب والمجاملة، ثم أقيمت حفلة شاي، وخلالها أهدى رئيس بلدية باريز للمولى يوسف نيشانا ذهبيا ذكرى للزيارة الخالدة، مثلما أهدى للأمراء ساعات ذهبية، وانتهى الاحتفال على الساعة الرابعة وأربعين دقيقة.[153]

---

[152] – أريستيد بريان Aristide Briand ( 1862- 1932) رئيس وزارة فرنسا بين 1909 و 1929 مع شغل منصب وزارة خارجية فرنسا عدة مرات، ساهم في معاهدة لوكارنو سنة 1925 التي قاربت بين فرنسا وألمانيا، عمل على دخول ألمانيا في هيئة الأمم سنة 1926، حصل على جائزة نوبل للسلام مناصفة مع الألماني ستريزمان ( stresemann) سنة 1926م.

[153] - وبعد انتهاء مراسيم الاحتفال عاد كل إلى مستقره، وما مرت ساعة حتى يمم الحاجب السلطاني وابن غبريط قصر الإليزيه لإهداء خنجر مفضض للرئيس دوميرك، وبعد ذلك ذهب الصدر الأعظم وابن غبريط للوزارة الخارجية وقدما لرئيس الوزارة هدية كذكرى من أمير الديار المغربية.

في اليوم الثالث للزيارة وهو الموافق 14 يوليوز، أقيم استعراض كبير في ساحة قوس النصر، حضره المولى يوسف ورئيس الجمهورية ووزراء فرنسا وسفرائها وممثلي مجلس الشيوخ ومجلس النواب وأعضاء وفود الدول الإسلامية وجماهير الشعب الفرنسي.

وعلى الساعة 12 زوالا من نفس اليوم، قدم مولاي يوسف إلى القصر الرئيسي حيث أعدت له مأدبة غذاء فاخرة، حضرها جميع الوزراء وممثلو الدول الإسلامية وأعضاء الوفود من المغاربة والتونسيين والجزائريين والسوريين ممن قدموا للحضور في حفل تدشين المعهد الإسلامي، وتبادل الرئيس الفرنسي والعاهل المغربي كلمات المجاملة والترحاب تتخللها إشارات سياسية، ومما جاء في كلمة المولى يوسف: " **يافخامة الرئيس لقد سررنا كثيرا أن نلبي دعوة الحكومة الفرنسية ، وقد جئنا إلى هذه الديار بعد الانتصار الباهر الذي أحرزه الجند الفرنسي والمغربي، والذي يرجع إليهم الفضل في قطع جرثومة العصيان من ولايتنا، وتدعيم النظام والسلام في جملة نواحي الإيالة الشريفة. ...".**[154] وبعد انتهاء الاحتفال، رجع كل إلى مقره.

وقد خصص اليومان الخامس عشر والسادس عشر يوليوز للاحتفال بتدشين المعهد الإسلامي المشيد في العاصمة باريز بمحضر السلطان ورئيس الجمهورية الفرنسية. ( وسنعود إلى هذا الموضوع بعد إنهاء مراحل الزيارة).

في يوم 16 يوليوز وبعد الانتهاء من تدشين مسجد باريز، ذهب السلطان للتجوال في بعض ضواحي باريز، حيث اقتبله المشير ليوطي وأعد له حفلة شيقة، ثم قصد بعد ذلك مدينة فردان التي تخلدت في تاريخ الحرب العالمية بدفاعها اللامتناهي في سبيل إعلاء كلمة الوطن وحفظ كيانه، وهنا خطب المقيم العام ستيغ (STEEG) خطبة رنانة أشاد فيها بالجنود الأبطال الذين أريقت دماؤهم على تلك البقعة، ولم يبخس حقوق الجنود المغاربة الذين شاركوا في وقائعها الحاسمة.

---

[154] – ابن زيدان، **المناهج السوية في تاريخ الدولة العلوية**، مخ، خ.ح. رقم: 11770، ص. 79.

ثم توجه المولى يوسف بعد ذلك إلى زيارة مدن فرنسية مختلفة، ثم أدركته الجمعة الثانية بباريز فأدى صلاة الجمعة بمسجدها الجديد.

بعد ذلك تابع زيارة بعض المدن الفرنسية منها مدينة سان إسيز حيث يوجد مركز التلغراف اللاسلكي الذي هو أعظم مركز في العالم في ذلك الوقت، ومن هنالك تبادل بعض البرقيات مع المغرب، ثم عاد يوم الاثنين إلى باريز، فزار معمل المسكوكات ومتحف اللوفر ومعامل كَوبلان الشهيرة بصناعة الزرابي الفاخرة، وقصر البانتيون (Panthéon ) مدفن العظماء، وحديقة الحيوانات، وبرج إيفل ( Eiffel) الذي كانت الراية المغربية ترفرف أعلاه في ذلك اليوم، كما زار المكتبة الوطنية الشهيرة بباريز واطلع على بعض مخطوطاتها.

وفي يوم سابع وعشري(27) يوليوز نهض المولى يوسف من باريز متوجها إلى مدينة ليون المشتهرة بمعامل نسج الأثواب الحريرية، وهناك قام بزيارة محل المعرض الذي يقام بمدينة ليون وزيارة الدور المشتغلة بالتجارة في الأثواب الحريرية، وفي المساء توجه للغرفة التجارية، فاستقبله رئيسها وكافة أعضائها بمزيد من الحفاوة والترحاب، وقد أهدى رئيس الغرفة للمولى يوسف جملة من الأثواب الرفيعة، ثم بعد ذلك توجه إلى إيكس ليبان، ثم زار مدنا ونواحي غير هذه.

في يوم الاثنين ثاني غشت ذهب المولى يوسف لقصر الإليزيه بقصد وداع رئيس الدولة الفرنسية، ثم غادر العاصمة الفرنسية من يومه متوجها لمدينة بوردو، وفي يوم الثلاثاء أقيمت له حفلات فاخرة، وفي يوم الخميس فارق تلك المدينة متوجها على طريق السكة الحديدية الى مدينة تولوز ومنها قصد ثغر مرسيليا الذي أبحر منه راجعا إلى المغرب.

ونشير إلى أنه عند وصوله إلى مرسيليا في سادس غشت وهو آخر يوم من إقامة المولى يوسف بفرنسا، استقبله في تلك المدينة فخامة باي تونس محمد الحبيب باشا حيث جرى احتفال رائق، وقد أهدى سمو الباي منبرا للخطبة لمسجد باريس، يشبه ذلك الذي بمدينة القيروان، وبعده أهدى الملك فؤاد منبرا آخر ما زال إلى الآن كما هو مسطر على جنبات المنبر.

كان إبحار المولى يوسف بمرسيليا على متن المدرعة باريس صبيحة يوم السبت سابع (7) غشت، وفي صبيحة يوم الأربعاء العاشر من الشهر نزل بثغر الدار البيضاء فاستقبل استقبالا حارا، وامتطى في الحين قطارا خاصا أقله للعاصمة الرباط التي كانت لابسة أجمل حلة، وبذلك انتهت الزيارة الملكية التي كانت فريدة في بابها.

قال ابن زيدان معلقا عن هذه الزيارة: " **والحق يقال فقد قدّرت الحكومة الفرنسية هذه الحادثة الفذة حق قدرها، وأبدت من ضروب العناية والاحتفال والاحتفاء بالسلطان الزائر العظيم ما بقي مضرب الأمثال، وإن قلم المؤرخ ليعجز عن وصف تلك الحفاوة المنقطعة النظير**"[155].

## II – تدشين مسجد باريز

قبل أن نتحدث عن تدشين المسجد والمعهد الإسلامي، لابد أن نرجع شيئا ما إلى الوراء، لمعرفة ظروف إنشاء هذه المعلمة الدينية في باريز وبواعث تأسيسها وجهات تمويلها إلخ...

### 1 – فكرة تأسيس مسجد باريز

يدعي كثير من المهتمين بتأسيس مسجد باريز أن الفكرة تعود إلى الأتراك، وبعضهم يرى أن المسجد بقي مسجلا في الجزائر في إطار قانون 1911 الثقافي الفرنسي إلى أن استقلت عام 1962[156].

غير أن الحقيقة والتي أقرّ بها السيد موريس كولرا ( mauris colrat) – الذي كان نائبا برئاسة الوزارة بفرنسا ثم وزيرا للعدلية– في خطابه الذي ألقاه بالمعهد الإسلامي بباريز، بعد

---

[155] – ابن زيدان، **المناهج السوية في تاريخ الدولة العلوية**، مخ، خ.ح. رقم: 11770، ص. 77.

[156] – علي المنتصر الكتاني، **المسلمون في أوروبا وأمريكا**، ج، 1، ص، 205.

أن أشاد بالأعمال الوقفية التي كان يهتم بها السلطان العلوي محمد بن عبد الله: " **إن المشروع الذي سنعيّن قبلته هو على بساط البحث من نحو ربع قرن ، ولكن الفكرة الحقيقية التي كانت قد دعت لذلك هي فكرة قديمة جدا، ففي 28 مايو عام 1767م أمضى لويس الخامس عشر والسلطان سيدي محمد بن عبد الله معاهدة صلح**"، ثم ذكر بالبند الخامس عشر من المعاهدة الذي يقول:

" **للقنصوات المذكورين أن يتخذوا بدورهم موضعا لصلاتهم وقراءتهم ولا يمنعون من ذلك، ...وكذلك رعية سيدنا نصره الله إذا دخلوا بلاد الفرنصيص لا يمنعهم أحد من اتخاذ مسجد لصلاتهم وقراءتهم باي مدينة كانوا**"[157]. ثم أضاف: **فالجمهورية الفرنسية وجلالة سلطان المغرب الأقصى، بتنفيذهما اليوم معاهدة 28 ماي 1767م، قد نفذا في الحقيقة الاتفاق الذي مضت عليه الأجيال ..... ومن الفائدة ذكر هذا الحادث التاريخي، حيث إن نبأ مخلدا لابد أن يكون أساسه ثابتا.**"

كما أن المولى يوسف قد ذكر بذلك في عام 1926م أثناء تدشينه مسجد باريز بقوله: "**على أن الفكرة الأولى القائلة بتأسيس مسجد في داخل فرنسا ، وقع تاريخ ظهورها في عهد أحد أسلافنا المقدسين ، وهو سيدي محمد بن عبد الله الذي وضع ضمن الاتفاقية التي عقدها مع الملك لويس الخامس عشر إمكانية ابتناء محلات دينية في البلاد الفرنسية**".

لقد ألقي هذا المشروع على بساط البحث سنين عديدة، ولكن حالت دون إخراجه من حيّز الفكرة إلى حيز الوجود عوائق ومصاعب مالية، لأن إنجازه يستلزم نفقات طائلة تفوق طاقة المحسنين من الناس، ومن أجل ذلك فقد صدر بتاريخ19غشت 1920 قانون يضع تحت

---

[157] – نص البند كاملا: " لسلطان الفرنصيص أن يجعل بإيالة سيدنا نصره الله من القنصوات ما أراد وفي أي بلد شاء، ليكونوا وكلاء له في مراسي سيدنا أيده الله، ليعينوا التجار ورؤساء البحر والبحرية في جميع ما احتاجوا ....وللقنصوات المذكورين أن يتخذوا بدورهم موضعا لصلاتهم وقراءتهم، ولا يمنعون من ذلك، ومن أراد إتيان دار القونصو للصلاة وللقراءة من أجناس النصارى أيا كانوا فلا يتعرض لهم أحد، ... وكذلك رعية سيدنا نصره الله، إذا دخلوا بلاد الفرنصيص لا يمنعهم أحد من اتخاذ مسجد لصلاتهم وقراءتهم، بأي مدينة كانوا." انظر: ابن زيدان، **الإتحاف**، 270/3.

تصرف جمعية أحباس الحرمين[158] اعتمادا ماليا قدره 500.000 فرنكا فرنسيا لبناء المعهد المشار إليه، وذلك بعد أن وافق مجلس الأمة على فكرة بناء هذا الأثر الإسلامي بفرنسا، وأن يعهد بإنجازه لجماعة المسلمين، لكونهم أدرى من غيرهم بحاجات إخوانهم وقضائها على أحسن منوال.[159]

وقد قرر رئيس المجلس البلدي الباريسي وذلك بناء على طلب لجنة جمعية أوقاف الحرمين، أن يهب الأراضي اللازمة لبناء الجامع والمعهد الإسلامي، إضافة إلى هبة مالية مساعدة على البناء.

إلا أن الحكومة الفرنسية بعد دراسة الطلب قررت أن تتبنى المشروع على حسابها وأن تزود باريز بمؤسسة إسلامية فرنسية ذات اتجاه عالمي.

---

[158] – اقتضى الحال في خلال عام 1916م توجيه بعثة سياسية دينية إلى مكة المكرمة، وفكرت حكومة الجمهورية الفرنسية أن تدعو إلى هذه المأمورية من هو له قدم فارعة في الميدان السياسي، ومخلص نحوها من مسلمي إفريقية الشمالية، وقد نجحت هذه البعثة نجاحا تاما، حيث إنها اشترت بمكة المكرمة عقارا يكون ملجأ للحجاج المسلمين الذين هم تحت رعاية فرنسا وقت القيام بحجهم في بيت الله الحرام، وملاذا لجميع مرضاهم، ومحلا لاجتماع بعضهم ببعض. وبعد أن أعطت اللجنة الوزارية التي تبحث في الأمور الإسلامية رأيها ، فقد طولب من أعيان أفراد البعثة الذين رجعوا من زيارتهم أن يؤسسوا جمعية تقوم بالدفاع عن هذا العمل العظيم في الأراضي المقدسة الإسلامية، وعلى هذا فقد تأسست منذ عام1917م بفرنسا جمعية أوقاف الحرمين الشريفين. تتألف هذه الجمعية من أعضاء مباشرين هم: السيد قدور بن غبريط القنصل العام ، رئيس الجمعية السيد الصحراوي، السيد الشاذلي العقبي من تونس السيد أحمد السكيرج قاضي وجدة، السيد عبد الحميد عبدو القاضي الأكبر ببلاد السنغال ، السيد العربي بن الشيخ نائب وكيل أوقاف الحرمين بتونس.

[159] – ولإتمام هذا العمل الجليل فقد تألفت في فرنسا لجنة لرعايته ولجنة أخرى إدارية لتدبير شؤونها، يرأسها رئيس الجمهورية الفرنسية، ويضمان في حضنهما نخبة الأمة الفرنسية، الذين بادروا بهذه المناسبة إبداء عاطفة الود نحو العالم الإسلامي.

وهكذا وبناء على التقرير المعروف بتقرير " هيريو "Heriot[160] الذي وضع باسم لجنتي الداخلية والمالية ، صوت مجلس الشيوخ ومجلس النواب في 19 غشت عام 1920 لفائدة قانون يعتبر بمثابة قانون للدولة، خصصت بمقتضاه اعتمادات هامّة لإحداث مسجد باريس وقدرها 150 مليون من الفرنكات الجديدة ، ولتغطية باقي النفقات افتتح اكتتاب في مختلف الدول الإسلامية وفي مقدمتها المغرب وتونس والجزائر ولبنان وسوريا وإفريقية الغربية وإفريقيا الاستوائية ، إلا أن هذه التبرعات لم تكن كافية بحيث إنها لم تتعد 3 مليون فرنك وهو ما يعادل 0,02 % من الاعتمادات الضرورية ...، وأمام ذلك، قرر المجلس البلدي لمدينة باريس التدخل حتى لا يكتب للمشروع الفشل وذلك بالمساهمة في تمويله بصورة فعلية، فقرر منح مساعدة تبلغ قيمتها ستة عشر مليون ومائتي ألف فرنك جديد (16.200.000)، وكذلك منحت جمعية أوقاف الحرمين الشريفين التي كان يرأسها السيد قدور بن غبريط مدير تشريفات المولى يوسف إعانة قدرها مليون وستمائة وعشرون ألف فرنك (1.620.000 فرنك) .

وبالإضافة إلى الأموال التي قدمتها الأوقاف المغربية، فإنها قررت قبيل زيارة المولى يوسف لتدشين المسجد والمعهد الإسلامي، إضافة مليون فرنك فرنسي لإتمام البناء بالتمام والكمال.[161]

---

[160] – إدوارد هيريو ( Edouard Herriot ) 1872-1957 شغل منصب عمدة مدينة ليون، ظل في هـذا المنصب مدة تزيد على 30 عاماً، وكان أيضاً رئيساً لمجلس النواب في الجمعية الوطنية، ورئيساً للـوزارة في كثير من الأحيان ، وكان الشعب في "ليون" يصر لمدة 30 عاماً على انتخابه عضواً، ثم رئيساً للمجلـس البلدي. ويقال : إن عضوية "إدوارد هيريو" كانت من الأمور التي رفعت من شأن مدينة "ليون" عمرانيـاً وبلدياً.

[161] – مازالت الحوالة تحتفظ بها وزارة الأوقاف في ملفها الجاهز الذي أسهمت به في تأسيس مسجد باريس.

## 2- الاحتفال بوضع الحجر الأساسي لمسجد باريز

بعد أن انتهت جميع الإجراءات المالية، تمّ يوم 19 أكتوبر من عام 1922م الاحتفال بتدشين بناء المسجد الباريسي وحفر أساس المحراب، وقد اختير من المغرب العلامة محمد السائح الرباطي (ت:1367/1948) والفقيه السيد محمد الهواري قاضي ثغر طنجة للسفر إلى باريز للاشتراك مع وفود الدول الإسلامية الأخرى في بحث وضع سمت قبلة مسجد باريز وتخطيط محرابه، وفي هذا الموضوع يقول محمد السائح **" وفي يوم الثلاثاء أممنا ساحة المعهد لاستخراج سمت القبلة ، وتخطيط خط المحراب ....، وحضر معنا جماعة من المهندسين الإفرنسويين، وكنا استخرجنا السمت قبل ذلك، وكان تسعا وعشرين درجة تقريبا على ما يأتي من عين المشرق إلى الجنوب...."**

وقد ترأس هذه الحفلة المشير ليوطي المقيم العام السابق بالمغرب، وكان بجانبه كل من الكمندار " دير ودانجير" نائبا عن رئيس الجمهورية، والمسيو دي بومارشي ( De Beaumarchais) نائبا عن السيد بوانكاري (Raymond Poincaré) رئيس الوزارة آنذاك، والصدر الأعظم محمد المقري، ووزير العدلية أبي شعيب الدكالي، والحاجب الملكي الفقيه اعبابو. هذا إلى جانب الوفد التونسي والوفد الجزائري، وكثير من الأعيان والفضلاء الذين يمثلون الأقطار الإسلامية، والعديد من الشخصيات الفرنسية، وكثير من أعضاء مجلسي النواب والشيوخ في فرنسا.

وقد افتتح الحفل السيد قدور بن غبريط رئيس التشريفات الملكية ورئيس " جمعية أحباس الحرمين الشريفين"، حيث ألقى خطابا رحب فيه بالمشير ليوطي، وقال فيه موجها الخطاب للمشير **" إن في صنيعكم هذا يا سعادة المشير، رمزا للاتحاد المتين العربي الرابط بين**

**أفئدة الفرنسيين والمسلمين ، واعلم علم اليقين ياسعادة المشير، أن ما أظهرتموه اليوم نحو ديانتنا من الاحترام والتساهل، ستكون له رنّة عظيمة في سائر الأصقاع الإسلامية "**[162]

وبعد ذلك ألقى ليوطي خطابا كان له وقع استحسان في نفوس الحاضرين، ومما جاء فيه: " **هانحن سنشاهد الضربة الأولى في حفر أساس المحراب الذي سيولي المؤمنون وجوههم شطره في المسجد ابتهالا للواحد الأحد ، ومع أني قد دعيت للقيام بهذه الضربة الأولى، فإني لا أفعل ذلك، لكوني أرى أن المسلمين خاصة، جديرون بالقيام بهذا العمل"**[163] ثم خطبت بعده شخصيات أخرى ، وبعد الانتهاء من هذه الخطب، تناول السيد ليوطي من يد السيد قدور بن غبريط فأسا صغيرة من الفضة، وأعطاها للصدر الأعظم المغربي **الفقيه محمد المقري**، فضرب بها الضربة الأولى في الأساس، ثم أخذ ليوطي يديرها على رؤساء الوفود الإسلامية واحدا واحدا، فكانت بذلك لجميعهم مشاركة في الحفر الأول. وكان ذلك إيذانا ببداية أشغال البناء التي دامت حوالي أربع سنوات.

### 3- مسجد باريز من الناحية المعمارية

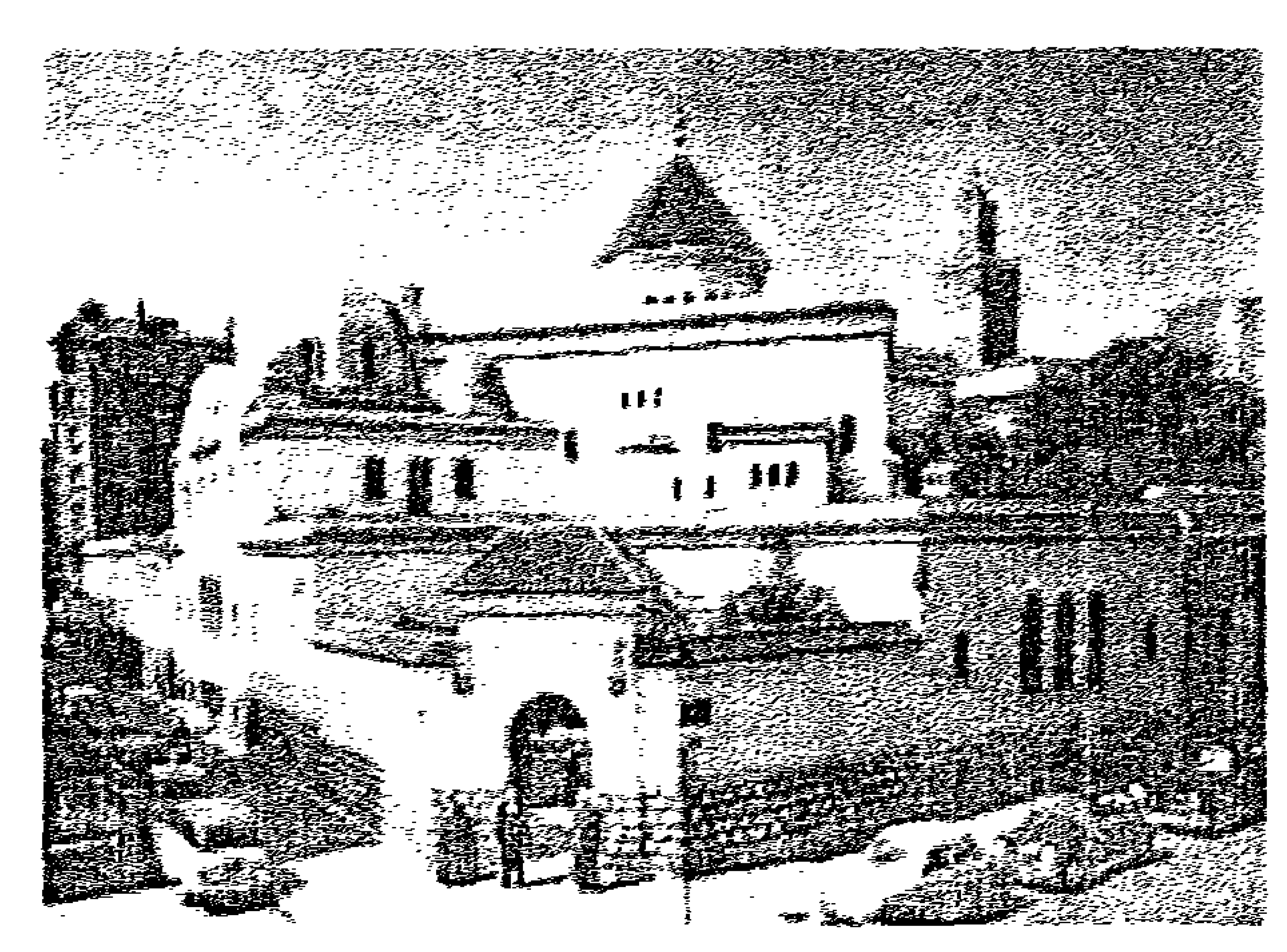
هذا المعهد كان يشغل سطحه في أول أمره 6500م تقريبا، وتبلغ قيمة بقعته مليون فرنك، وقد أعدتّ لتشييد المسجد والمعهد الإسلامي الذي يضم في نفس الوقت المكتبة والحمام، ومحلات الإيواء والضيافة لاستقبال المسلمين القادمين من أقطار أخرى وكذلك " **تسهيل المقام في باريس لمن أراد أن يتعاطى العلوم في مدارسه الراقية"**[164] على حد قول محمد السايح.

---

[162] – عبد العزيز بن عبد الله، فكرة تأسيس مسجد باريز، **دعوة الحق**، ع: 298، سنة، 1988، ص. 174.

[163] – نفسه، ص، 175.

[164] – محمد السائح، **أسبوع في باريس**، ص، 28.



إن شكل مسجد باريز وزخرفته مستمد من المدرسة البوعنانية، وفي ذلك يقول السيد روبير رينو الكاتب العام بالمعهد الإسلامي : " **إن عددا من المهندسين وأرباب الفن من فرنسا ومن العالم أجمع جذبتهم عظمة العمل وحسنه، قد طلبوا منا أن نبين لهم أصلية هذا البناء، ولو كان هذا المسجد مستنبطا من المدرسة البوعنانية بفاس، فإننا أحدثنا فيه تبديلات، ومحونا منه أخرى تقوم بالغرض الذي نرومه**" كما أن تلك الآيات المدرجة في المحراب والخيطان من توجيهات مغربية وبأمر من المولى يوسف، فقد استدعى رئيس التشريفات المغربية السيد قدور بن غبريط الشاعر عبد الكريم السكيرج لكتب بعض الآيات بالخط الكوفي بهذا المسجد، مع كتب بعض القصائد التي رسمت هناك بالخط المشرقي والأندلسي، وهي من إنشاء والده القاضي أحمد بن العياشي اسكيرج الفاسي، الذي كان عضوا عاملا بجمعية أوقاف الحرمين الشريفين، والقصيدة الدائرة بصحن مسجد باريس هي:

**متّع لحـــاظك في محــــاسن معهد ... يسبي العقول بحسنه المتعدّد**

**هو معهد، لكنه في زينة ... وفخامة في غيره لم تعهد**

وهناك أبيات أخرى عن يمين الداخل إلى المسجد، وهي:

**أهلا بكم يا زائرين لمسجد ... قد فتحت أبوابه للقصد**

هذا المقام به السعادة خيّمت      من حلّ فيه، يحل أرفع مصعد

فيه الأماني، والمنى مجلوّة      مثل العروس بدت بأجمل مشهد

فلتطمئن صدوركم بورودكم      وصدوركم، فلكم كمال السؤدد

ونظرا لتزايد عدد الوافدين المصلين خاصة أيام المناسبات الدينية حيث يصل عددهم إلى حوالي 5000 مصل يجتمعون للعبادة والذكر[165]، فقد أصبح مع مرور السنين، إصلاح المسجد والزيادة فيه أمرا ضروريا، ولذلك، وبمناسبة الذكرى الأربعين لتأسيس المسجد الكبير بباريز ، فقد تم توسيعه والزيادة فيه، حتى يستوعب أكبر عدد من المصلين، وقد تطلب ذلك ثلاثة ملايين من الفرنك الفرنسي)الجديد.[166]

## 4- مراسيم الاحتفال بتدشين معهد باريز

وقع الاحتفال بتدشين المعهد الإسلامي والمسجد المشيد في العاصمة باريز من طرف المولى يوسف يومي 15 و 16يوليوز، وقد احتفل بهاته المناسبة احتفالين متواليين مختلفين اختلافا متباينا.

---

[165] – عبد العزيز بن عبد الله، فكرة تأسيس مسجد باريز، **دعوة الحق**، ع: 298، سنة: 1988، ص، 160.

[166] – ونشير هنا، إلى أنه في السنة الماضية (2005) وبعد رجوع بوتفليقة من العاصمة باريز إثر مرضه الأخير، وفي إطار إعلانه عن مشاريع بناء العديد من المساجد في العاصمة الجزائرية وغيرها من المدن، ركز اهتمامه أساسا على بناء وتوسعة مسجد باريس الذي قال عنه، إنه يريده أن يكون معلمة دينية جزائرية في باريس، تضاهي في كبرها وشساعتها مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء، حسب ما كتبته مجلة " لوبيوان" الفرنسية، بل لم يقتصر اهتمامه على توسعة مسجد باريس فقط، ولكن أن يتم ذلك في أسرع وقت ممكن.

**الأول منهما** رسمي، أجري يوم الخميس، 15 يوليوز 1926م/ 4 محرم 1345هـ، وذلك بمحضر السلطان ورئيس الجمهورية الذين قدما في عربة فخمة،[167] وكان من



الشخصيات البارزة التي حضرت الاحتفال: الصدر الأعظم الحاج محمد المقري والحاجب السلطاني الفقيه اعبابو ووزير الأملاك الحاج محمد التازي ورئيس وزارة فرنسا ووزير خارجيتها ووزير الداخلية والجنرال كَيوم وزير الحربية، ووزير المستعمرات بيري، ورئيس مجلس النواب، وكثير من الشخصيات ووكلاء الدول وكبراء الأقطار الإسلامية، كسفراء مصر وتركيا والأفغان والفرس، وغيرهم ممن يطول تعدادهم.

وعندما انتظم الحفل، تقدم السلطان ورئيس الجمهورية إلى داخل المسجد الذي كان يموج بأمواج الخلائق على اختلاف أزيائها ولغاتها، ووقف قدور بن غبريط بصفته رئيسا للمعهد الإسلامي، وخطب خطبة أشار فيها إلى أن " **العمل المحتفى به يوضح اتحاد فرنسا والإسلام وفلسفة التساهل والتفاهم والوداد**"[168] ثم خطب الوزير المفوض ورئيس اللجنة الوزارية للشؤون الإسلامية، فألقى كلمة أشار فيها الى الحوادث التي تولدت عنها فكرة تشييد معهد إسلامي بباريس، وإلى التبرعات والإسعافات التي جادت بها فرنسا بعدما شاهدت في أيام الحرب العالمية أبناء الإسلام وأبطاله يحتشدون تحت ظل ألويتها لغاية الدفاع عن كيانها، وأشار في خاتمة خطابه إلى أن للشريعة الإسلامية في مختلف أنحاء فرنسا، مثل ما لغيرها من الشرائع

[167] - في الصورة يظهر من اليسار إلى اليمين: Briand، Doumergue، مولاي يوسف، Edouard herriot.

[168] - ابن زيدان، **المناهج السوية في تاريخ الدولة العلوية**، مخ، خ.ح. رقم: 11770، ص. 80.

والأديان.[169] ثم بعد ذلك قام المولى يوسف وألقى خطابا، وبعد أن ذكر أن فكرة تشييد مسجد بباريس ترجع لعهد جده السلطان محمد بن عبد الله بن إسماعيل الذي ضم للاتفاقية التي عقدها مع الملك لويس الخامس عشر، إمكان ابتناء محلات دينية في البقاع الفرنسية.[170] أشار إلى أن **"في ارتفاع جامع باريز وسموه نحو السماء، لرمزا جليا الى ما لمعتقداتنا من الاحترام الذي لم تكتف فرنسا بمراعاته في البلاد الإسلامية فقط، بل أرادت أن تضيف إلى ذلك برهانا أقوى، وهو إعانة إخواننا على أن يشيدوا في داخلية ربوعها معهدا خاصا بشريعتنا المقدسة"**، ثم أضاف قائلا: **" وإذا جئنا بصفتنا أمير المؤمنين لتدشين المعهد الإسلامي وجامع باريز، فلكي نعرب في ذات الوقت، عن إحساسات إخواننا الكثيرين، ونحقق للحكومة الجمهورية إقرارنا بالجميل."**[171] ثم أشاد بمجهودات الوزير بن غبريط وجمعية أوقاف الحرمين منوّها بجهودها وإخلاصها بقوله:**" بقي علينا أن نعلن رضانا عن جمعية أحباس الحرمين ، وخصوصا رئيسها الفاضل السيد قدور بن غبريط، الذي انقطع بإخلاص ونشاط متناهين إلى هذا الصنيع، الذي نال به امتنان المعمور الإسلامي"**[172].

وقد أجاب رئيس الجمهورية الفرنسية بخطاب استهله بقوله: **إذا فرضنا المحال وقلنا أن هناك من الناس من يرتاب في ضرورية اتحاد العالم الإسلامي بالعالم الغربي، ويتجاهل الساعات العصيبة التي ارتبطت بها الصداقة الفرنسية الإسلامية بروابط الدماء الزكية التي سادت في ميادين الوغى بأوروبا، فإن نظرة واحدة على هذا المجتمع، الذي انتظم فيه نخبة المسلمين ونخبة الفرنسيين للمشاركة في حفلة واحدة، لكافية لتبديد سحب الارتياب، وتمتين عرى اليقين"**، وأشار بعد ذلك إلى أن فرنسا ترعى كافة الاعتقادات بعين واحدة، لأن المساواة

---

169 – ابن زيدان: **نفسه**

170 – نفسه

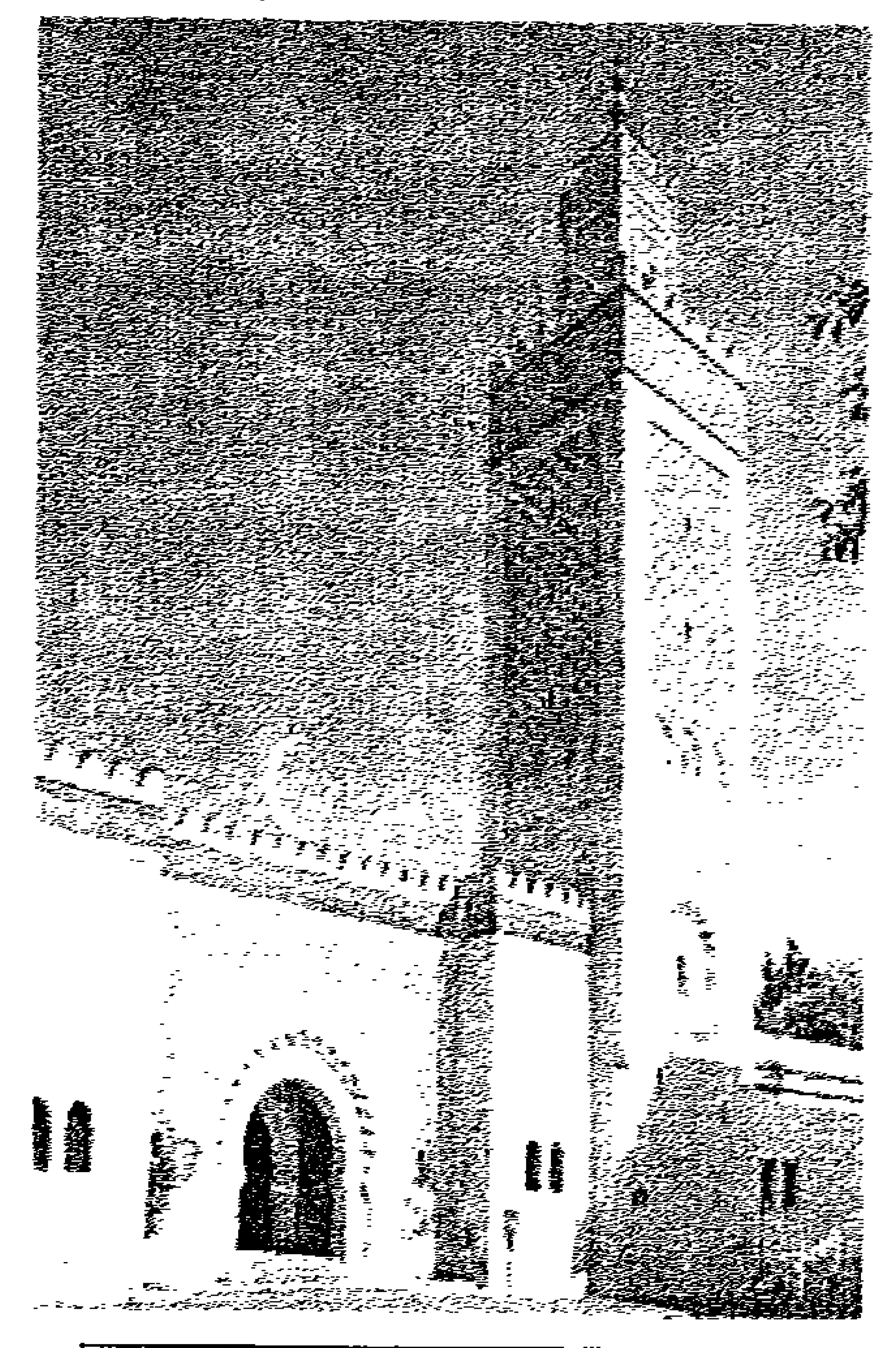
171 – نفسه.

172 – عبد العزيز بن عبد الله، مصدر سابق، ص، 172.

أمام القوانين والضمائر البشرية، هي من شعارات دستور فرنسا، ثم سار في خطابه كله على هذا المنحى.

كما خطب المارشال ليوطي في حفل افتتاح مسجد باريس وأبى إلا أن ينصف السلطان المولى يوسف، فذكر بمواقفه الصلبة وعناده الكبير للمارشال ليوطي، وموقفه الوطني تجاه الغزو الثقافي الفرنسي للمغرب في عهد ليوطي.

**وأما الاحتفال الثاني** فكان صورة متألقة في إطار ديني ، وكان خاليا من أي صبغة رسمية، بل عبارة عن تدشين المسجد تدشينا دينيا محضا، وقد أدى المولى يوسف صلاة الجمعة الأولى بمسجد باريز يوم 16 يوليوز 1926م / خامس محرم 1345هـ ، وكانت حفلة التدشين بالغة منتهى الضخامة، إذ قصدت الجامع وفود إسلامية مختلفة، وكان مفتي الديار القسطنطينية الشيخ المولود بن الموهوب الذي كان يقوم بوظيفة الإفتاء بالمعهد الجديد، يقتبل الوافدين في الساحة الأولى مرحبا، وكان بالساحة الكبرى العدد العديد من وفود العالم الإسلامي، وكان واقفا بباب المسجد الوزير بن غبريط لاستقبال الزائرين.



وفي الوقت المعين، أقبل موكب المولى يوسف وهو على تمام هيئته المخزنية ، فتلقاه المفتي المذكور مقدما له مراسم التحية والاحترام، وعند ذلك أغلقت الأبواب الداخلية للمسجد ونودي للصلاة من منارة المسجد الشاهقة[173] التي كانت تسمع منها أصوات رخيمة لمشاهير المنشدين المغاربيين، وبعد ذلك ألقى المفتي خطبة بديعة ثم أدّيت الصلاة، وكانت هذه الصلاة عبارة عن أول صلاة جامعة، أقامها مسلمو باريس، ومسلمون من

[173] – تظهر صومعة مسجد باريز في الصورة المرافقة على اليسار.

أقطار أخرى بعيدة. فانتهى بذلك التدشين، ورجع موكب المولى يوسف إلى محل إقامته.

بعد الانتهاء من مراسيم التدشين، غادر المولى يوسف باريس قاصدا زيارة باقي مدن فرنسا، حيث قضى بها ثلاثة أسابيع على النحو الذي سبقت الإشارة إليه.

ونشير إلى أنه قد شغل منصب الفتوى والإمامة منذ تدشين هذا المسجد العظيم، علماء أجلاء كان ينتدبهم ملوك المغرب تعاقبوا على هذا المنصب إلى حين، وهم السادة العلماء، الفقيه بن الحسن الدباغ المراكشي شيخ الجماعة بمراكش، والفقيه السيد العربي بن سودة الذي شغل هذا المنصب مدة ثماني سنوات، وسيدي محمد البارودي، وسيدي محمد الرفاعي، والفقيه السيد العربي عواد وغيرهم...[174]

## خلاصة

إن زيارة فرنسا من طرف المولى يوسف وتدشين مسجد باريز يعتبر حدثا بارزا في تاريخ المغرب عموما وتاريخ المولى يوسف بالخصوص، ويمكن للباحث أن يستند عليها لدراسة عدد كبير من الأفكار المتعلقة بالسياسة والقانون والحضارة والدين وغير ذلك، إلا أننا نحن في هذا المقام سنقتصر على ذكر ملاحظتين فقط، الأولى تخص الناحية السياسية والأخرى تهمّ الناحية الدينية.

فمن الناحية السياسية نلاحظ أن زيارة المولى يوسف إلى فرنسا قد أحيطت بهالة كبيرة من العناية والتعظيم والتضخيم، وربما يجد ذلك مرجعيته في أن هذا التدشين وقع مباشرة بعد أن وضعت الحرب الريفية أوزارها ، والتي كانت قد أظهرت للعيان ضعف المخزن المركزي وقللت من شأن القائمين عليه، فلذلك حاولت فرنسا رد الاعتبار لشخص السلطان وإضفاء هالة من التبجيل والتعظيم عليه ، وقد بدا ذلك جليا، سواء فيما يخص الوفود الكبيرة جدا التي رافقته من المغرب في زيارته، أو فيما يخص الاستقبال الكبير الذي خصص له في باريز واستقباله من طرف رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وأعضاء الحكومة وعلية القوم والأعيان، وإقامة حفلات

---

[174] – في عام 1957 عين الشيخ أبو بكر بن حمزة مديرا لمسجد باريز، وهو منحدر من مدينـــة فجـــيج وذو جنسية فرنسية.

استقبال كبيرة في كافة مدن فرنسا أينما حل وارتحل، أو فيما يخص استدعاءه شخصيا للقيام بمهمة تدشين مسجد باريس. يوضح ذلك أكثر قول ليوطي في أحد تقاريره: **"فمن المصلحة إذن في الظروف الحاضرة، أن تغتنم الحكومة الفرنسية كل مناسبة لتظهر بصورة علنية التقدير الذي تكنه للسلطان، وأن تقدر أن الاحترام الذي أحيط به السلطان ليس تعبيرا عن مفهوم شخصي، ولكنه يتجاوب مع آراء فرنسا حول مبدإ الحماية"**[175].

أما من الناحية الدينية، فنشير إلى أنه خلال الحرب العالمية الأولى، ظهر تياران في السياسة الإسلامية في الشرق، أحدهما تيار الجامعة الإسلامية العثمانية الذي تعطف عليه ألمانيا، وتيار الجامعة العربية الإسلامية الذي تعطف عليه أنجلترا، وقد استرعى هذا الموضوع اهتمام ليوطي نظرا لخطورته بالنسبة لمستقبل شمالي إفريقيا الفرنسية، من هنا بدأ اهتمام فرنسا بقضايا الإسلام وعلاقتها بمسؤولي الشمال الإفريقي، ووضعهم في المحاور التي تحقق لها ذاتيتها ووجودها في المحيط الدولي، ومن هذا القبيل فقد عمدت وشجعت جمعية أوقاف الحرمين الشريفين التي أوكلت إليها الإشراف على تأسيس مسجد باريز، كما أوكلت رئاسة الجمعية للسيد قدور بن غبريط رئيس التشريفات الملكية المغربية، ثم رئيسا للمعهد الإسلامي بعد ذلك، وأسندت إلى الصدر الأعظم المغربي القيام بالضربة الأولى في أساس المسجد، ثم قامت باستدعاء المولى يوسف ليقوم بتدشين المسجد والقيام بصلاة أول جمعة فيه، لا باعتباره حاكما سياسيا، ولكن بصفته رئيسا دينيا وخليفة شرعيا، عكس باي تونس وخديوي مصر اللذين لم يكونا يمثلان في نظر ليوطي سوى موظفين تركيين.

وهكذا نجد أن فرنسا التي كانت في سنة 1926م لا تشتمل إلا على المسجد الكبير بباريز، هاهي اليوم تشتمل على أكثر من 1000 مسجد وجامع منبثين في جميع أنحائها. بل نجد أن مسجد باريز أعطى غلاله وثماره، فكانت هذه البداية، انطلاقة للإسلام في ربوع أخرى من البلاد الأوروبية، وهو الأمر الذي ربما غاب عن حسابات فرنسا في تلك الفترة.

---

[175] - عبد العزيز بن عبد الله، مصدر سابق، ص، 166.

# المحور الثاني : التحولات الاقتصادية

# المسالك الطرقية بجهة تافيلالت بين إرث الماضي وتحولات فترة الاحتلال (1912-1927)

عبدالله تزلي
الثانوية المرجعية- مكناس

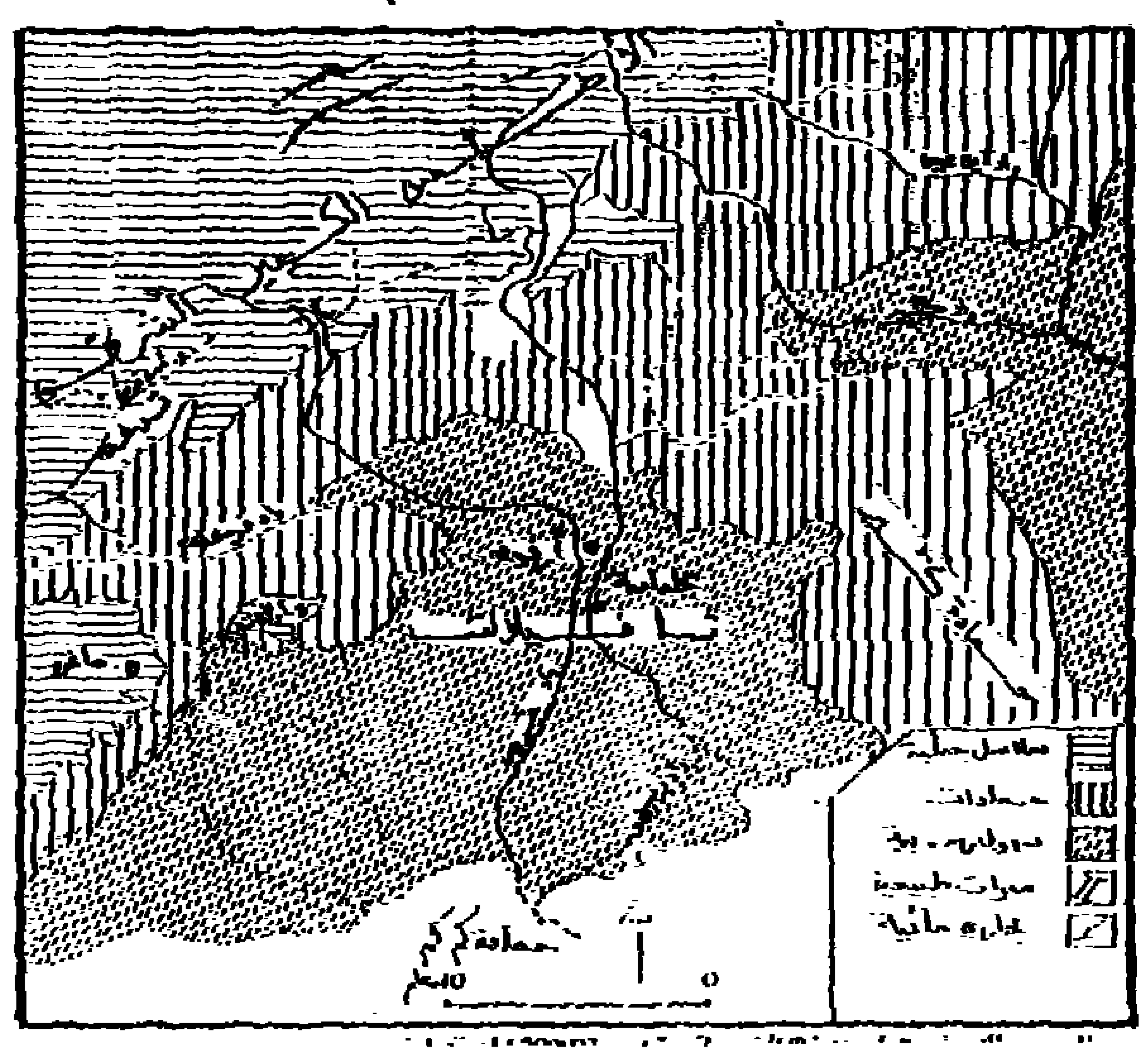
## مقدمة

تندرج أراضي " تافيلالت" ضمن أكبر الواحات بجنوب شرق المغرب، تسقيها فياضانات واديي زيز وغريس. غير أن المنطقة عرفت قديماً باسم "سجلماسة" قبل أن يشيع استعمال اسم تافيلالت.

وتخفي هذه المنطقة من المغرب إرثاً حضارياً ثقيلا في علاقة إسهامها الدفين في صنع أحداث البلاد السياسية. واكتسبت تافيلالت دوراً اقتصادياً ريادياً بارتباطها بعلاقات تجارية مع مناطق داخل البلاد وخارجها خلال فترات تاريخية سابقة.

كان مجال تافيلالت منحصراً في محيط الموقع الأثري لحاضرة سجلماسة المحادي لمدينة الريصاني الحالية، قبل أن يتسع نطاق " تافيلالت" ويطال حمادات وواحات وادي كَير شرقاً ومجالات واديي غريس وفركلة غرباً ويضم منابع واديي زيز وملوية العليا شمالا بالأطلس الكبير الشرقي محتضناً بذلك مجالات قبائل اللف العطاوي واليفلماني - كما يظهر بالخريطة التالية رقم 1:

خريطة رقم 1: الحدود الطبيعية لإقليم سجلماسة/ تافيلالت



المصدر: الخريطة الطبوغرافية المغربية بمقياس 1/200000 (بتصرف)

ومن الثابت أن لفظ " تافيلالت" أحدث عهداً وأوسع نطاقاً من "سجلماسة"، ذكره البكري[176] باسمه القديم " سجلماسة" وورد في كتابات الناصري[177] باسم بلاد القبلة تارة وباسم إقليم الصحراء تارة أخرى، وامتد مجال هذا الإقليم في إحدى فترات تاريخ المغرب الحديث ليشمل واحات درعة.

شكلت منطقة تافيلالت في مفهومها الواسع أحد أهم الأقاليم المغربية الذي نعت باسم سجلماسة خلال الحكم المريني (1269م- 1471م/668هـ -875هـ). وظلت الأجهزة الإدارية الرسمية توظف هذه التسمية في وثائقها إلى حين وصول العلويين إلى سدة الحكم. بعد ذلك سادت ازدواجية استعمال " سجلماسة- تافيلالت".

---

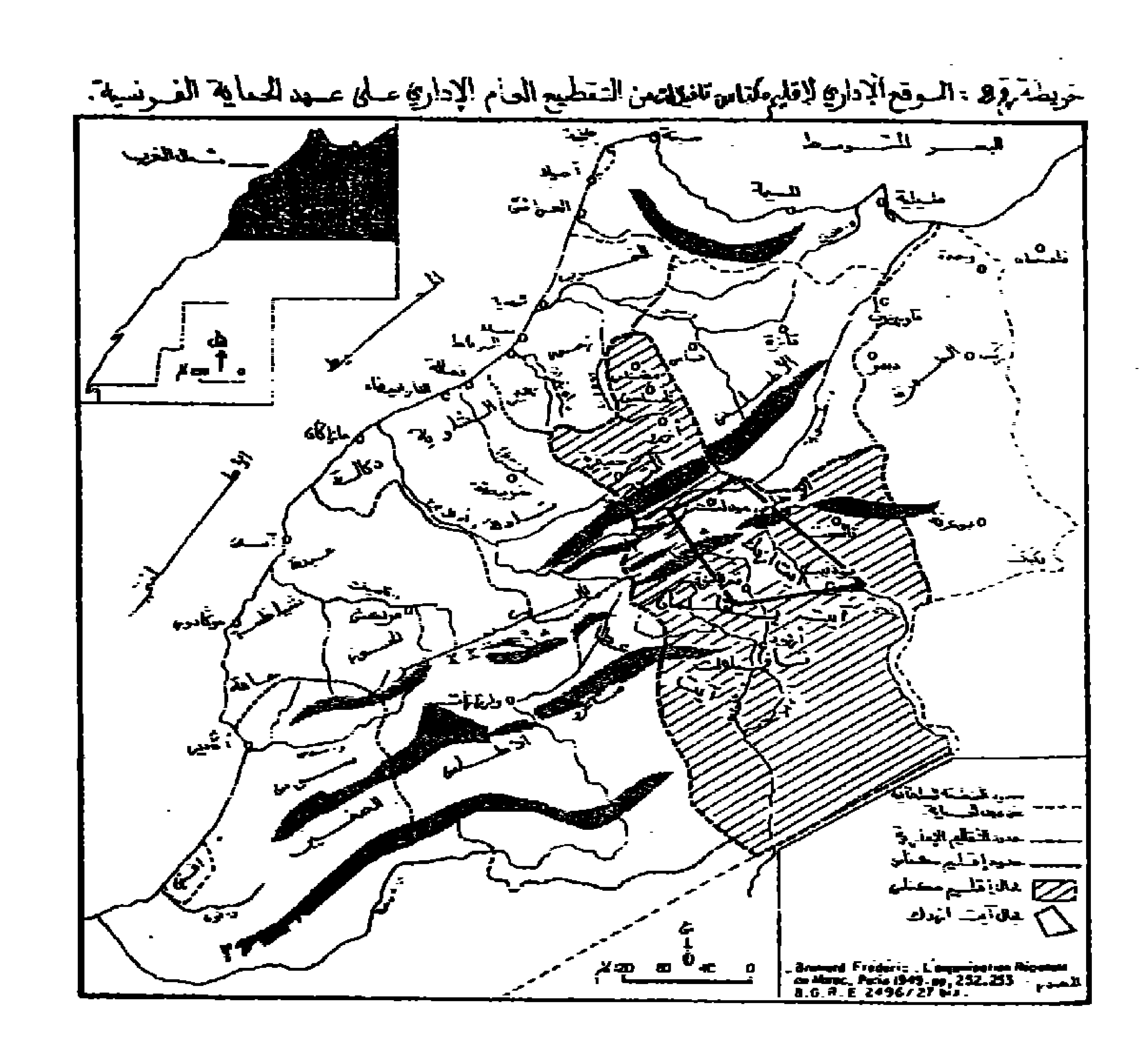
[176] - البكري أبو عبد الله بن عبد العزيز، مسالك المغرب في ذر بلاد إفريقية، باريس، 1965، ص 148.

[177] - الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لدول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954، ج7، ص16

ومع انطلاقة حكم الحسن الأول (1875– 1894م)،اتجه التوثيق المخزني إلى اختصار اسم الإقليم في "تافيلالت"[178].ومنذئذ ظلت " تافيلالت" ترسم إقليماً إدارياً أساسياً إسوة بأقاليم مراكش ومكناس التي اعتادت على احتضان دار خلافة/ نيابة السلطان.

وتأسيساً على أهمية هذه المنطقة إشرأبت أطماع دهاقنة السياسة الاستعمارية الفرنسية لاحتوائها قبل جهات أخرى حيث ألحقت بقيادة منطقة جنوب غرب وهران ثم أصبحت تابعة مؤقتاً لقيادة الشمال بوجدة قبل أن تتقدم عمليات التهدئة ويتأتى ارتباط وحدات الاحتلال في بلاد اوطاط آيت ازدكَ – ميدلت– صيف 1917 لتصبح أراضي " تافيلالت" امتداداً لإقليم مكناس العسكري – كما هو مبين بالخريطة التالية رقم 2–

خريطة رقم 2 : الموقع الإداري لإقليم مكناس تافيلالت ضمن التقطيع العام الإداري على عهد الحماية الفرنسية.



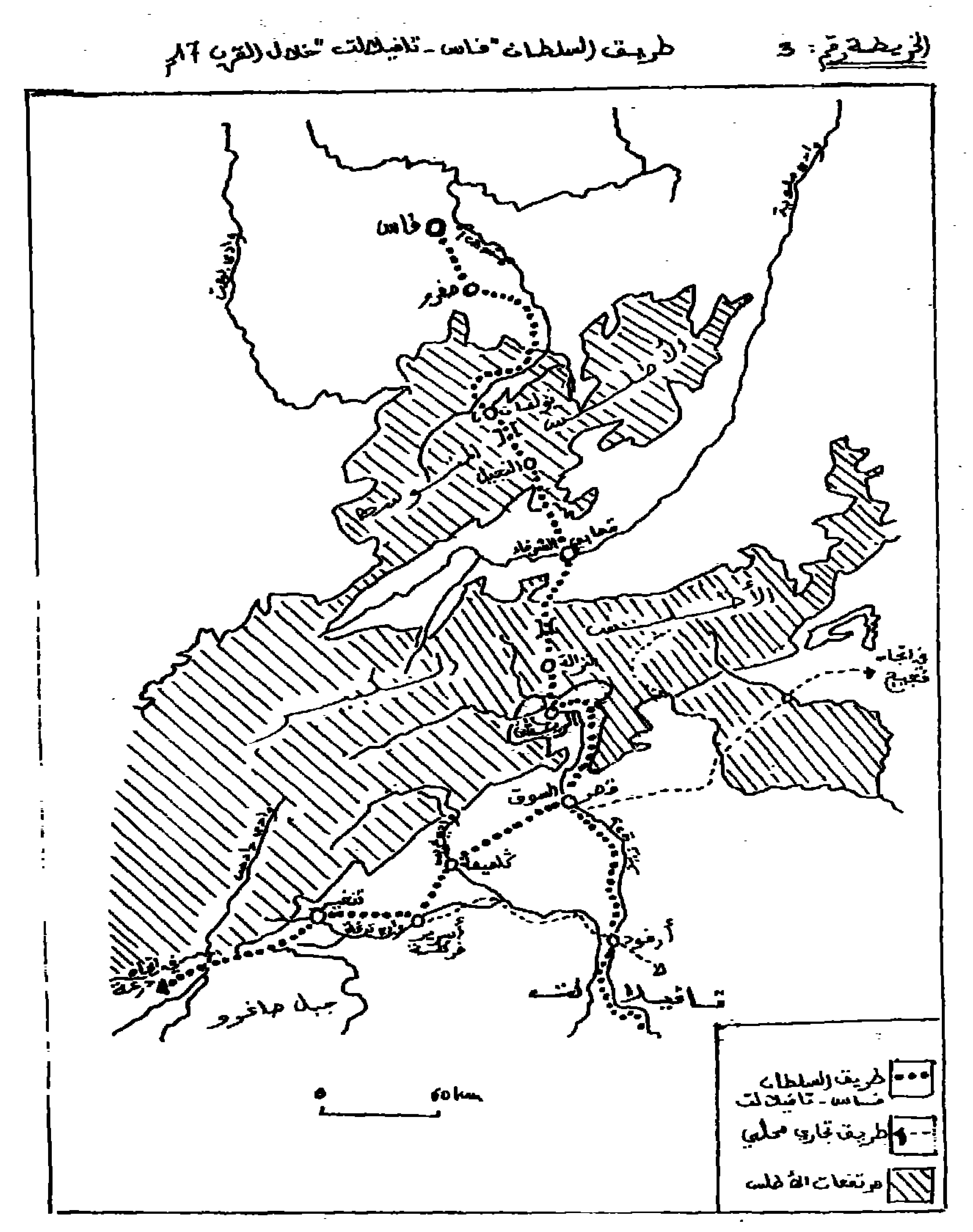

[178] – القاسمي العلوي هاشم، تافيلالت: التاريخ والواقع، مقال ضمن مجلة واحة تافيلالت، مطبعة السعادة، مكناس، العدد 2، السنة 2000، ص 5 وما بعد.

- فما هي أهم المسالك الطرقية القديمة بين تافيلالت ومحيطها الداخلي والخارجي؟
- وأين تتجسد بعض الأدوار التي اضطلعت بها هذه المسالك الطرقية؟
- وما طبيعة التحول الذي شهدته هذه المسالك الطرقية مع حملة احتلال المنطقة بين 1912 و1927؟
- وهل كانت فعلا أطماع مغرضة توجه تحول الطرق بهذه المنطقة من المغرب؟

## 1- تافيلالت في خريطة المسالك الطرقية الداخلية والخارجية لفترة ما قبل الحماية

ارتبطت سجلماسة/تافيلالت بمسالك طرقية عبر محيطها وصوب جهات داخل المغرب وخارجه - انظر الخريطة رقم 6 للطرق التجارية الرابطة بين السودان الغربي وبلاد المشرق وأوربا وضمنها محطة سجلماسة خلال القرن 16م بآخر العرض.

ويشكل طريق فاس- تافيلالت المعروف بطريق السلطان أهم محور طرقي اعتادت القوافل التجارية والحركات السلطانية ارتياده في التنقل بين شمال المغرب وجنوبه الشرقي - انظر الخريطة رقم 3-




المرجع: Brignon J. et Autres, Histoire du Maroc, Hâtier, Casablanca, 1967, p. 236

" وهذا الطريق يتبع مجرى وادي زيز في اتجاهه نحو الشمال عبر محطات (حيث كانت) القوافل التجارية القادمة من سجلماسة أو تدغة والمتجهة إلى الشمال تخترق عند وصولها إلى

مدغرة الأطلس الكبير الشرقي عبر طريقين: واحد يتبع مجرى وادي زيز وآخر يترك الوادي جانباً ليتسلق سفوح مرتفعات الأطلس ولا يتم استعماله إلا في حالة فيضان وادي زيز"[179].

كان الانتقال من تافيلالت إلى فاس قديماً، يحتم ثلاث عشرة مرحلة*، ذكر منها الشريف الإدريسي قصر السوق وتيزي نتلغمت.[180] كما كان تجار القوافل يؤدون ضريبة تأمين المرور، حيث ذكر دوفوكو أنه كان يؤدى عن كل بغل وجمل ويهودي خمسة فرنكات، وإذا كان الحيوان حماراً، تؤدى نصف التسعرة، بينما يعفى الشرفاء من هذا الوظيف.[181]

وغير بعيد، يتصل وادي غريس بوادي زيز عبر طريق داخلي يندرج ضمن مجال إقليم سجلماسة يمر بالقسم الغربي لحمادة مسكي، وهو الطريق الذي سلكه دوفوكو De Foucauld في رحلته (1883-1884) للانتقال من كَلميمة إلى واحة مدغرة[182].

وللإشارة، فإن طريق السلطان في اختراقه مجالات قبائل آيت عطا وآيت يفلمان، يعبر عدة شعاب وأودية ويتسلق أعراف مرتفعات ويمر من فجج...

وخلال العهد الإسماعيلي (1672-1727م)، ابتدعت طريق السلطان مكناس-تافيلالت عبر فج تغزافت بالأطلس المتوسط وصولا إلى بلاد أوطاط آيت ازدكَ، ومنها إلى ممر تلغمت بالأطلس الكبير الشرقي وصولا إلى وادي زيز، وإن تم تجميد التنقل عبر هذه الطريق عقب وفاة المولى إسماعيل جرّاء التناحر القبلي بين اتحاديتي آيت أومالو وآيت إدراسن حيث لم تسترجع هذه الطريق وضعها إلا مع الحماية الفرنسية.

---

[179] - حافظي علوي حسن، سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1997، ص 40-41.

* اختلفت تقديرات مسافة المرحلة، إذ حددها البعض في 30 إلى 40 يوماً بينما رفعها آخرون إلى 60 أو 70 يوماً.

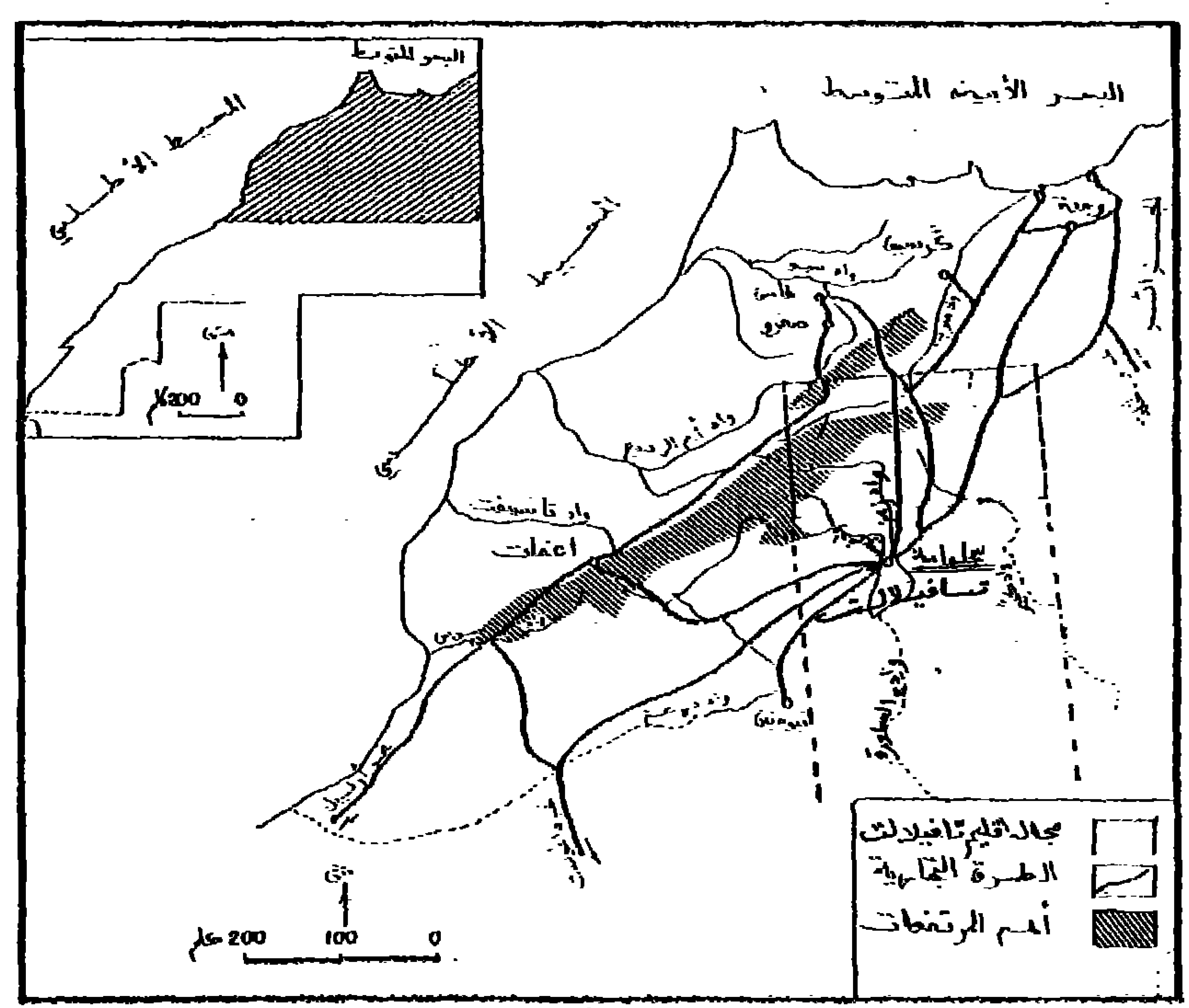
[180] - الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، الجزائر، 1957، ص 51.

[181] - دوفوكو شارل فيكونت، التعرف على المغرب، 1883-1884، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999، ص313-314.

[182] - De Foucauld (Charles Vicomte), Reconnaissance du Maroc; 1883-1884, Paris, 1888, p. 234

وفي اتجاه الشرق، تنفتح بلاد تافيلالت عبر مسالك منها طريق بوذنيب، تلزازة، ابن زرك، بني ونيف، الحدجاوي، بوكايس...وهي مراكز أدرجها المحتل الفرنسي ضمن مجال القطر الجزائري - انظر الخريطة رقم 4-

خريطة رقم 4: طرق تجارة القوافل بالمغرب ومنها المارة بإقليم تافيلالت




المصدر: حسن حافظي علوي - سجلماسة وإقليمها في القرن 8 هـ / 14 م
الطبعة 1997 - فهرس الملاحق ص 460-461-462 بتصرف.

من الصعوبة بمكان ذكر كل المسالك الطرقية التي تربط تافيلالت بمحيطها وتُظهر انفتاح هذا الإقليم على جهات أخرى، لكن يمكن الجزم بأن سكان هذه المنطقة من الجنوب الشرقي درجوا على التنقل عبر مسالك تخترق مجالات قبائل آيت مرغاد، آيت ازدكَ وغيرها من مجالات قبائل آيت يفلمان. ومن هذه المسالك نكتفي بذكر:

- طريق بوذنيب- الرتب

● طريق تولال- مدغرة عبر تماسنت مروراً بفج ثنية المعزة المُوصِلة إلى بلدة الطاوس

● طريق تيعلالين- تيط نْعَلي- الترالة- أوطاط آيت ازدگ.

إلا أن الوضع الطرقي في فترة ما قبل الاحتلال، كانت تحكمه سمة البطء حيث كان التنقل قائماً على المشي وركوب الحيوانات في أحسن الأحوال، ويتم عبر مراحل تتطلب محطات توقف للاستراحة.

## 2- نصيب تافيلالت من تحول الطرق بالمغرب مواكبة مع مرحلة احتلال المنطقة

مواكبة مع عمليات الغزو الفرنسي لأراضي التخوم المغربية-الجزائرية، انكبت فرق الهندسة للدراسة الطبغرافية على إصلاح المسالك الطرقية القديمة التي شكلت محاور حيوية نفذت منها وحدات الاحتلال لإخضاع المجالات القبلية التي استهدفها المحتل الفرنسي. كما انشغل الفرنسيون بشق طرق جديدة في سعي منهم لربط سريع بين مراكز قيادة الاحتلال بدءاً بواحة وادي گير في مرحلة أولى من المخطط التوسعي الذي استهدف إقليم تافيلالت[183].

و لم تكد تنتهي سنة 1917، حتى تمكن العقيد دوري Doury قائد القوات المتنقلة بوادي گير وزيز من ربط مركز كولومبشار شرقاً ببلاد أوطاط آيت ازدگ بملوية العليا عبر مراكز عين الشعير، بوعنان، بوذنيب، تازگارت، تولال، گرامة، الريش، الترالة، تيزي نتلغمت... كما استصلحت طريق الريش- بني تجيت عبر گرامة وقصور وادي آيت عيسى في اتجاه مركز تالسنت. وبملوية العليا، فتحت طريق أوطاط آيت ازدگ- أوطاط الحاج- گرسيف متتبعة مجرى ملوية نحو الشمال[184].

---

[183]- Rapport mensuel d'ensemble du protectorat, octobre- novembre 1913, p. 13. Ainsi que: Le Général Nieger, Commandant de la Région de Meknès, note n° 7546/C, du 11 décembre 1929, adressée au Commandant du Cercle de Bou Denib, in S.H.A.T. 3H 1059.

[184] - Rapport mensuel du protectorat, juin- juillet 1917, p. 34

وبذلك تجسدت عناية سلطات الاحتلال الفرنسي بمسألة الطرق، فكانت استراتيجية استكمال السيطرة على البلاد والشروع في استغلال ساكنتها وثرواتها، تقتضي تعزيز الوجود الاستعماري في نقاط ومراكز تعتبرها حيوية. وتأسيساً على هذا الاختيار، صدرت مذكرة[185] من القيادة الجهوية لمكناس، أوصت بشق الطرق بجهة تافيلالت على جنبات أودية الواحات حيث تنضب الحياة الفلاحية وتتركز التجمعات البشرية بالقصور، على أن يرافق هذه الأشغال، عملية تشييد أبراج للمراقبة تتكفل ساكنة الواحات بتنظيم عملية الحراسة بها تأميناً للتنقل بالطريق، ورصداً لكل عمل "عدائي" يهدد ترسيخ الاحتلال بالمنطقة.

وفي تطور نوعي يروم ربط مكناس بتافيلالت، أمكن منذ عام 1919، الاتجاه من مكناس إلى فاس. ومن ثم الانتقال إلى بلاد أوطاط آيت ازدكَ - ميدلت- ثم التوجه نحو الريش وكَرامة قبل الانحراف يميناً نحو واحة مدغرة وصولا إلى مركز قصر السوق عبر بوبرنوص.

لكن منذ سنة 1927، تاريخ إحداث مركز قيادي بميدلت، أنجز خط طرقي جديد يربط مكناس بميدلت عبر تيزي تغزافت بجبال الأطلس المتوسط مروراً بمركز أزرو ومنبسط أكَلمام سيدي علي وصولا إلى إتزر ثم ميدلت[186] بعد أن تم تفادي المناطق التي تثقلها التساقطات الثلجية. ومن أوطاط آيت ازدكَ، تكثفت الأشغال الطرقية لاختراق جبال الأطلس الكبير الشرقي، عبر فج تلغمت، واستشراف موقع التزالة، ومنها شق فم تيليشت والوصول إلى مركز الريش ثم الانتقال إلى وادي كَير الأعلى وتتبّع مجراه شرقاً في اتجاه مراكز أراضي التخوم.

وفي اتجاه استكمال السيطرة على بلاد آيت ازدكَ، وتطويق مجالات قبائل آيت حديدو وآيت مرغاد وآيت عطا التي تحيط بحوض تافيلالت، شرعت الفرقة الهندسية المكلفة بالأشغال الطرقية منذ عام 1927 في تنفيذ مشروع طريق وادي زيز القائم على اختصار المسافة الطرقية في اتجاه بلاد تافيلالت بتحريف الطريق بدءاً من قصر آيت عتو بأعالي تيعلالين وصولا إلى موقع

---

[185] - Goudot (G.), Commandant de la Région de Meknès, note n° 10-3/C du 20 février 1933, adressée au Commandant des Troupes au Maroc pour information, in S.H.A.T. 3H 1059.

[186] - Vanègue (Cap.), Rapport intitulé "la pacification de l'Atlas", in Bulletin du Comité de l'Afrique Française, 1928. R.C. n° 10, p. 37.

الخانق الأعلى لواحة الخنكً - المعروف باسم زعبل* - حيث اعترضت الجبال عملية شق الطريق- انظر لوحة بالمناسبة بالمدخل شرق النفق- مما فرض حفر نفق بلغ طوله 63 متراً، وامتدت الأشغال به قرابة السنتين، إذ انطلقت في 24 يوليوز 1927 وانتهت في 20 أبريل 1928. واستعصى شق ما تبقى من الطريق إلى خانق " فم غِيوَر" - بحيرة سد الحسن الداخل حالياً- على اعتبار تعدّد الشعاب المنحدرة من مرتفعات الضفة اليسرى لوادي زيز، إلا بعد بناء مجموعة من القناطر الأرضية على هذه الشعاب كما في قصر تمراكشت وتسماعلت وأجّوج وإنكِي وتينَكَيْت...

وحتى يكتمل الربط الطرقي الجديد بمركز قصر السوق على الضفة اليمنى للوادي، تطلب الوضع تركيب قنطرة حديدية على وادي زيز ومدّ مقطع من الطريق من موقع البيّاضة، الأمر الذي فرض تأخير فتح طريق تيعلالين- قصر السوق إلى صيف سنة 1928.

تفرعت عن الطريق المحورية مكناس- قصر السوق، طرق في اتجاهات أخرى. فمنذ عام 1927، أصبح بالإمكان، التنقل بين ميدلت وكَرسيف عبر ميسور. كما ارتبط مركز ميسور بمركز تالسنت بواسطة طريق تم استصلاحها. وتم تمديد هذه الطريق لتدخل إلى مركز بني تجيت. وبذلك وقع الارتباط بطريق كَرامة- الريش[187].

وبحكم هذا الانفتاح الطرقي المتعدد الواجهات، تيسر التنقل من بلدة ميسور إلى بوذنيب عبر تالسنت وكَرامة. ومن ثمة، تتأتى عملية مواصلة السير صوب بشار على الحدود الشرقية، أو الانحراف غرباً نحو مركز قصر السوق عبر مسلك بويرنوص.

وبعدما تبين للفرنسيين أهمية الموقع الجيوستراتيجي لهذا المحور الطرقي، جعلوا من بلدة كَرامة قطباً عسكرياً أساسياً شمال وادي كَير، وسارعوا إلى ربطه بمسالك طرقية متعددة في اتجاه تافيلالت وملوية العليا ومجالات قبلية أخرى[188].

---

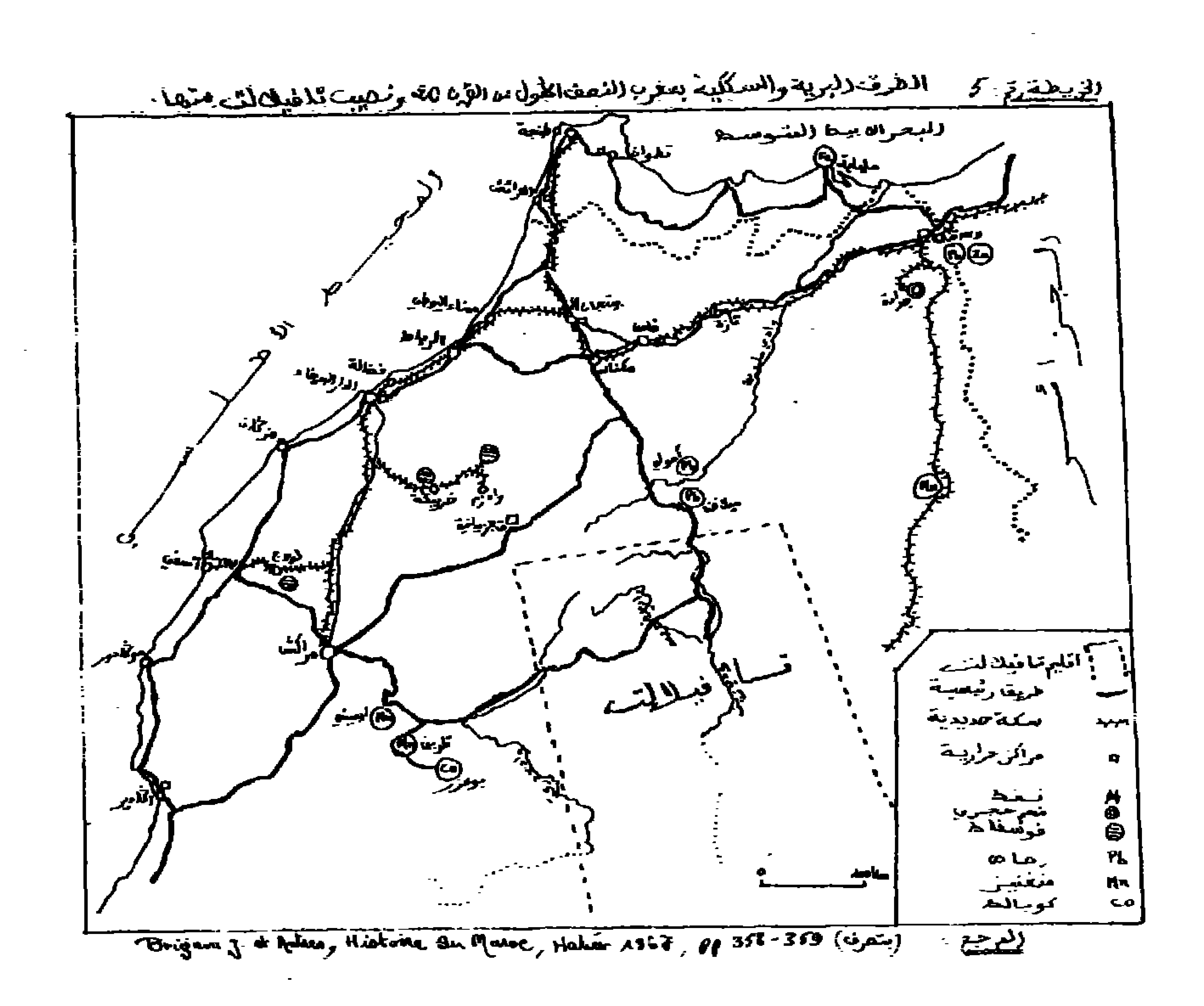
* - زعبل Zaabel، هو اسم المشرف المسؤول الفرنسي من اللفيف الأجنبي المكلف بأشغال شق النفق الذي أطلق عليه اسمه إلى اليوم.

[187] - Ihraï (A. A.), Colonisation d'une société: l'Outat (Haute Moulouya), thèse de doctorat en Histoire, p. 117.

[188] - Bulletin du Comité de l'Afrique Française, Août 1936, p. 121.

وفي تحول طرقي نوعي مع إطلالة عام 1929، بات التنقل من مكناس إلى تافيلالت مختصراً بعد اجتياز فج تلغمت ودخول الريش. ومن ثم، تتبع طريق موازية للضفة اليسرى لوادي زيز مروراً بواحات الخنك، قصر السوق، مدغرة، الرتب وصولا إلى مركز أرفود ثم استشراف تافيلالت[189].

وبهذا الإنجاز، أمكن لسكان تافيلالت اختصار المسافة الطويلة التي اعتادوا على قطعها في ترددهم على أسواق منطقة جنوب غرب وهران عبر بوذنيب[190] – انظر الخريطة رقم 5، المتعلقة بالطرق البرية والسككية بمغرب النصف الأول من القرن 20 ونصيب تافيلالت منها–




[189] - Vidalon (G.), Rapport sans n° daté en 1929, adressé au Général Nieger, in S.H.A.T. 3H 118.
[190] - Rapport mensuel du protectorat, octobre 1917, p. 2.

ويورد الجدول الموالي إشارات أكثر تفصيلا عن الشبكة الطرقية، محدداً مسافة المقاطع بين أهم المراكز. بجهة تافيلالت إلى حدود عشرينات القرن الماضي[191]:

الشبكة الطرقية بمنطقة تافيلالت:

| ر ت | الطريـــــق | المسافة بالكلم |
|---|---|---|
| 1 | بشار – أرفود عبر بوذنيب | 306 |
| 2 | ميسور – كَرامة – عبر تالسنت | 169 |
| | – عبر الريش | 195 |
| 3 | الريش – كَرامة | 44 |
| 4 | كَرامة – بوذنيب | 91 |
| 5 | بوذنيب – أرفود | 106 |
| | – قصر السوق | 83 |
| 6 | الريش – أرفود عبر وادي زيز | 150 |
| 7 | أرفود – كَاوز | 25 |
| 8 | أرفود – الدارالبيضاء | 15 |
| 9 | أرفود – زاوية الرمل | 20 |
| 10 | أرفود – الكَفيفات – تاديغوست | 100 |
| 11 | أرفود – تدغة | 150 |
| 12 | قصر السوق – أرفود | 83 |

من الواضح أن الأشغال الطرقية كانت تتواصل بقدر تقدم عمليات " التهدئة"، وأن إصلاح المسالك الطرقية وشق مزيد منها، كان مقنناً بمذكرات صادرة عن سلطات الحماية

[191] - عبد الله تزلي، الاحتلال الفرنسي لمنطقة آيت ازدكَ وآثاره العامة (1912-1930)، أطروحة لنيل الدكتوراة في التاريخ، مرقونة، كلية الآداب، ظهر المهراز، فاس، 2002، ص 253.

المسؤولة[192]. وكانت القيادات المحلية تتكفل بالمدّ الطرقي بمناطق حكمها. وفي هذا السياق، أشرف العقيد دوران Durand– حاكم الريش– بتنسيق من حاكم بوذنيب، على عملية ربط طريق بشار– ميدلت عبر كَرامة، الريش، التزالة، تيزي نتلغمت حيث عهد للكتيبة 2/3 التي كانت تتشكل من رجال قناصة مغاربة بشق جزء من الطريق الممتدة فيما بين التزالة وآيت يعقوب مروراً بزاوية سيدي حمزة وقصري إيدَاليوْن وتنغريفت على الساحل الجنوبي للأطلس الكبير الشرقي.

ومنذ 7 شتنبر عام 1929، أصبح بإمكان العربات بمختلف أحجامها المرور بهذه الطريق. وبشكل مواز، انطلقت عملية مدّ الطريق من مركز الريش في اتجاه التجمعات القصورية لوادي زيز الأعلى. ومن ثم، تعمقت الشبكة المسلكية الطرقية في مجال آيت حديدو. وأضحى ولوج هذا النطاق ممكناً من عدة واجهات، وهذه إشارة مفصلة عن بعض هذه المسالك في هذا القطاع إلى حدود عام 1929:

| ر ت | المسلك الطرقي | طاقة المسلك | المسافة بالكلم |
| --- | --- | --- | --- |
| 1 | تيدرين – أموكَر | يسع لمرور الشاحنات | 8 |
| 2 | زاوية سيدي حمزة — فم تازاك | يسع لمرور الشاحنات | 14 |
| 3 | تكَندوزت– تنغريفت عبر فم أكَروت | يسع لمرور الشاحنات | 18 |
| 4 | تاحيانت — فج ثوياس | يسع لمرور الشاحنات | 11 |
| 5 | أموكَر — فج ثوياس – تاحيانت | يسع لمرور الشاحنات | 4 |

حظوظ المنطقة من السكك الحديدية:

دعّمت المواصلات الطرقية بإنجاز خطوط للسكك الحديدية، انطلق أحدها من وهران في إطار تنفيذ مشروع الاحتلال الفرنسي لإفريقيا الشمالية الغربية يربط شمال منطقة الصحراء الكبرى بجنوبها – لاحظ خط السكك الحديدية الرابط بين تلمسان وكولومبشار– وبذلك

[192] - Nieger (G.), Note de Service n° 7546/G, du 11 nov. 1929, signée par ordre par le Chef d'Etat Major à Meknès, adressée au Commandant du Territoire du Sud à Kerrando.

ارتبطت بلدة بني ونيف بالخط السككي سنة 1903، فيما تأتى للقطار دخول بشار عام 1905[193] . إلا أن ظروف الحرب العالمية الثانية وما تلاها من حركة تحرر الشعوب الإفريقية بدءاً من ستينات القرن الماضي، أوقف امتداد هذا المشروع السككي.

ومن بلدة كَرسيف شمال شرق المغرب، مددت السلطات الاستعمارية خطاً سككياً ثانياً في اتجاه بلاد أوطاط آيت ازدكَ بملوية العليا - انظر خريطة السكك الحديدية رقم 5- ورغم أن قاطرات هذا الخط أعدت بالأساس لاستغلال الثروة المعدنية بمنجمي الرصاص في أحولي وميلاضن[194] فقد خصصت قاطرات لنقل المسافرين لحضور جلسات القضاء العرفي بمركز ميسور وللتبضع في أسواق منطقة ملوية الوسطى[195] .

وفي مرحلة لاحقة، تم ربط وجدة ببوعرفة بواسطة خط سككي من فئة 0,60م - انظر الخريطة رقم 5-

وهذه خطوط للسكك الحديدية المستشرفة للمنطقة:

| ر ت | خط السكة الحديدية | طول المسافة بالكلم |
|---|---|---|
| 1 | وجدة – القصابي عبر كَرسيف | 410 |
| 2 | وهران – بشار | 736 |

## خاتمة

ارتبطت تافيلالت على مر عصور خلت بمرافئ تجارية داخل المغرب وخارجه، إلا أن وثيرة نشاطها كانت تعتريها أزمات بفعل تأثرها بمحيطها الداخلي والخارجي.

[193] - أحمد مزيان، المجتمع والسلطة المخزنية في المنطقة الجنوبية الشرقية خلال القرن 19 م (1845-1912)، أطروحة دكتوراة الدولة في التاريخ، مرقون، الجزء الثاني، ص 456، الرباط، 1998.

[194] - Bulletin du Comité de l'Afrique Française, janvier 1924, p. 125.

[195] - Ihraï (A.A.); op. cit. p. 127.

واعتباراً للأهمية الاستراتيجية لتافيلالت، فقد كانت مختلف القوى السياسية المتنازعة على السلطة في المغرب تسارع إلى إحكام سيطرتها على هذه المنطقة وتحرير محورها التجاري في اتجاهات مختلفة، خاصة وأنّ لتافيلالت إرث تجاري تفاوتت أهميته بضعف وقوة الدول.

ورغم محدودية حركة أسواق محيط المنطقة، فإن تافيلالت لم تكن منغلقة على ذاتها وكثيراً ما كانت بلاد درعة الوسطى تمثل امتداداً لهذا الإقليم في بعض الفترات التاريخية مما كان يوسع من صنف مبادلاتها المحلية القائمة بالأساس على التمور وحبوب الشمال وإن لم تكن هذه المواد تتم بكميات وحجم كبيرين ارتباطاً بطابع الاقتصاد المقلال ووعورة مسالك الطرق وضعف وسائل النقل المنحصرة وقتئذ في حيوانات الحمل من بغال وحمير وجمال[196].

كما كانت تافيلالت على ارتباط ببلاد المشرق عبر واحات توات وكَوارة التي تعد أهم بوابات تنطلق منها مسالك صحراوية معروفة[197].

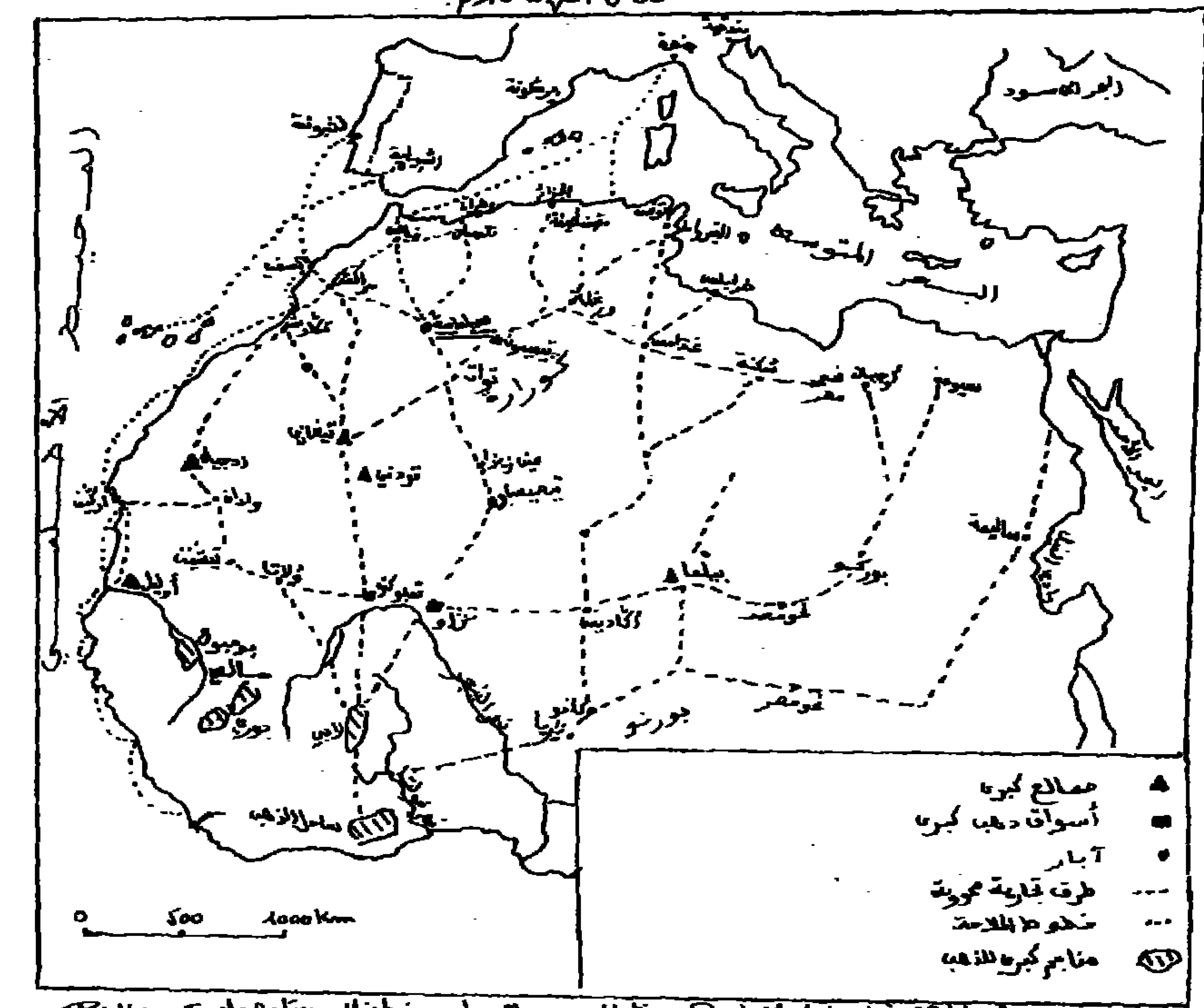
أما قوافل تافيلالت مع بلاد السودان، فقد كانت أساس ازدهار المنطقة في وقت كانت فيه المنطقة ترتبط باقتصاد مشترك مع كثير من محطات بلدان إفريقيا السوداء التي كانت تتلهف على مواد محلية ومستوردة من قبيل أوان نحاسية وأقمشة وأغطية وبرانس وجلابيب وأفرشة وأسلحة وبارود وكتب مقابل استقطاب تجارة الرقيق والذهب بالأساس[198].

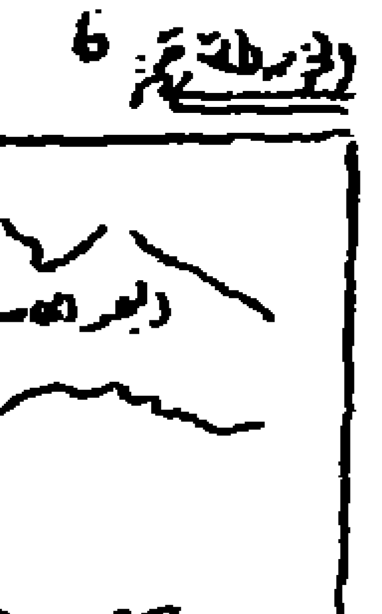
ولا غرو أن تنصب الأطماع الاستعمارية على تافيلالت، وأن تكثف قوات الاحتلال من جهود اختراقها للمجالات القبلية المكونة لهذا الإقليم مندفعة عبر مسالك طرقية معتادة من قبل الأهالي قبل أن يسارع المحتل إلى تقوية هذه المسالك ويشق مزيداً من الطرق القابلة لمرور العربات والشاحنات ترسيخاً للوجود والاستغلال الاستعماريين - كما يتبين من الخريطة رقم 5-.

---

196 - Brignon (J.) et autres, Histoire du Maroc; op. cit.; p. 189.
197 - Ibid., p. 191.
198 - Ibid. p. 191.

الخريطة رقم 6 الطرق التجارية الرابطة بين السودان الغربي وبلاد المغرب وأوربا وضمنها محطة سجلماسة بتافيلالت خلال القرن 16م.





المصدر بتصرف: 1/- Brignon J. et Autres, Histoire du Maroc, Hatier, Paris et Librairie Nationale, Casablanca, 1967. p 180

Ainsi que:

2/- Mohamed Boughdadi, Le Passé et le Présent marocains du Sahara, éd. Maroc Soir, Casablanca, 1998 p. 149.

## المصادر والمراجع المعتمدة


* أولا: المراجع العربية:

1- حسن حافظي علوي، سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية 1997.

2- الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، الجزائر، 1957.

3- فيكونت شارل دوفوكو، التعرف على المغرب، 1883-1884، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1999.

4- عبد الله تزلي، الاحتلال الفرنسي لمنطقة آيت ازدك وآثاره العامة (1908-1930)، أطروحة لنيـــل الدكتوراة في التاريخ، مرقون، كلية الآداب ظهر المهراز فاس، 2002.

5- أحمد مزيان، المجتمع والسلطة المخزنية في المنطقة الجنوبية الشرقية خلال القرن 19م (1845-1912)، أطروحة دكتوراة الدولة في التاريخ، مرقون، جزءان، الرباط، 1998.

6- هاشم العلوي القاسمي، التاريخ والواقع، مقال ضمن مجلة واحة تافيلالت، مطبعة السعادة، مكناس، العدد الثاني، السنة 2000.

7- الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، الجزء 7، 1954.

8 - البكري أبو عبد الله بن عبد العزيز، مسالك المغرب في ذكر بلاد إفريقية، باريس، 1965.

* ثانيا : المراجع الأجنبية:

1- Bernard (Fréderic), L'organisation Régionale du Maroc, Paris 1949.
2- Brignon (J.) et Autres, Histoire du Maroc, Hâtier, 1967.
3- De Foucauld (Charles Vicomte), Reconnaissance au Maroc, 1883-1884. Paris, 1888.
4- Ihraï (Amina Aouchar), Colonisation et Transformation d'une Société: l'Outat (Haute Moulouya), Thèse de Doctorat en Histoire.
5- Boughdadi (Mohamed), Le Passé et le Présent marocains du Sahara, éd. Maroc Soir, Casablanca, 1998.

* ثالثا : وثائق غير منشورة:

1-Nieger (G.), Note n° 7546/C datée du 11 décembre 1929, adressée au Commandant du Cercle de Boudnib, in S.H.A.T. 3H 1059.
2-Goudot (G.), Note n° 10-3/C, du 20 février 1933, adressée au Commandant des Troupes au Maroc pour information, in S.H.A.T.- 3H 1059.
3-Vanègue (Cap.), Rapport intitulé " la pacification de l'Atlas", in Bulletin du Comité de l'Afrique Française 1928, R-C n° 10.
4-Vidalon (G.), Rapport sans n° daté en 1929, adressé au Général Nieger Commandant de la Région de Meknès, in S.H.A.T.-3H 118.
5-Nieger (G.), Note de service n° 7546/G, du 11 nov. 1929, adressée au Commandant du Territoire du Sud à Kerrando.

* رابعا : منشورات ودوريات أجنبية:

1- Bulletin du Comité de l'Afrique Française, janvier 1924.
2- Bulletin du Comité de l'Afrique Française, août 1936.
3- Rapport Mensuel du Protectorat, oct. 1917.
4- Rapport Mensuel d'Ensemble du Protectorat, oct.-nov. 1913
5- Rapport mensuel du Protectorat, juin-juillet 1917.

# التطورات الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب

# في عهد السلطان مولاي يوسف

مولاي عبدالهادي محمدي

ثانوية سجلماسة -الرشيدية

إن الحديث عن التطورات الاقتصادية والإجتماعية بالمغرب في عهد السلطان مولاي يوسف يجعلنا نربطه بعملية الاستغلال الاستعماري وآثاره على المجتمع المغربي خلال فترة ما بعد توقيع معاهدة الحماية إلى وفاة السلطان مولاي يوسف سنة 1927.

## أولا: في الميدان الاقتصادي

1- مثلت استثمارات الأبناك الكبرى ومداخيل الضرائب المفروضة على السكان الوسائل الرئيسية للسيطرة على الاقتصاد المغربي :

+ الابناك:

- منذ بداية القرن التاسع عشر، كانت بعض الابناك الأوربية قد تمركزت بالمغرب، أهمها "البنك المخزني المغربي"، ومنذ عقد الحماية، وسعت عدة أبناك أخرى فروعها داخل المغرب ومن أكبرها بنك باريس والأراضي المنخفضة.

- مثلت هذه الأبناك الأداة المالية لسيطرة الرأسمال الفرنسي والأجنبي على القطاعات الحيوية للاقتصاد المغربي، مستفيدة من انخفاض الضرائب ومن ارتفاع الفوائد المفروضة على القروض التي تقدمها هذه الابناك للزبناء ،كما تميزت المشاريع الاقتصادية التي أشرفت عليها بضعف الأجور والتكاليف الاجتماعية وبسهولة المضاربات مما نتج عنه الارتفاع الكبير لأرباحها، هذه الأرباح التي أعادت استثمارها من جديد داخل المغرب وخارجه .

- و لم تكن الأبناك الكبرى تتحكم في اقتصاد المغرب فحسب، بل كانت توجه سياسة الحماية في مختلف الميادين كإصدار القوانين التي تخدم مصالح الاستثمارات البنكية في القطاعات الاقتصادية الثلاثة( الأول والثاني والثالث) ، مع تجريد المغاربة من أراضيهم وممتلاكتهم إلى جانب معارضة مصالحهم .....

+الضرائب:

- فإلى جانب دور الأبناك، كانت سلطات الحماية تمول مشاريعها الاقتصادية والعسكرية والإدارية بواسطة رأسمال عمومي، توفر لديها من الضرائب المباشرة وغير المباشرة المفروضة على المغاربة، وهكذا استعملت أموال الضرائب في أهم القطاعات الحيوية خاصة في استخراج المعادن وفي الإستغلالين الصناعي والفلاحي.

2- تم الاستيلاء على أخصب و أجود الاراضي المغربية واستغلالها من أجل تصدير إنتاجاتها التسويقية:

- قبل توقيع الحماية كان الأوربيون قد استولوا على حوالي80000 هكتار من الأراضي الزراعية في المغرب، ومنذ 1912 فكرت سلطات الحماية في تسهيل عملية استحواذ المعمرين على الأراضي وإحاطتها بضمانات قانونية، فأصدرت سنة 1913 قانون إنشاء "مصلحة المحافظة على الأملاك العقارية" وذلك بهدف تفويت نسبة كبيرة من أراضي الخواص و أراضي الجماعات للمعمرين.

- واكتسى الإستعمارالفلاحي شكلين أساسيين هما : الاستعمار الرسمي و الاستعمار الخاص، وقد وصلت مساحة أراضي الاستعمار الرسمي ما بين سنتي 1922و1932 حوالي 259000 هكتار أما أراضي الاستعمار الخاص فوصلت سنة 1932إلى 358000 هكتارا سرعان ما تزايدت بوثيرة كبيرة.

- وتركزت الأراضي تدريجيا في يد كبار المعمرين والشركات الفلاحية، وتواجدت في الأراضي الخصبة و التي تتلقى كميات كبيرة من التساقطات أو التي يسهل ريها ( مثل سايس وسهل الغرب والشاوية والحوز وتادلا وسوس وطريفة ) .

- أما في المنطقة الشمالية الخاضعة للنفوذ الإسباني فقد تمركـزت أهـم الأراضـي المستعمرة حول مليلية وطنجة وفي حوض اللكوس وفي مناطق نائيـة أخـرى. ( 15000 هكتار وبذلك تمثل أكبر نسبة إذا قورنت بمجموع الأراضي الموجودة في الشمال المغـربي {فلاحة تقليدية}) .

- وتميزت الأراضي الاستعمارية بالمغرب بتوفرها على ظروف طبيعية جيدة وإشرافها على خطوط مهمة للمواصلات و كما كان المعمرون يستفيدون من تسهيلات كبيرة من طرف الحماية : إعانات لشراء الأدوات الفلاحية واستصلاح الأراضي الشيء الذي ساعدهم علـى تحديث الاستغلاليات وإنتاج مزروعات تسويقية.

3 – قامت عدة شركات استعمارية بتصدير المعادن خامة و لم تعمل إلا على إنشاء بعض الصناعات التحويلية للحصول على الربح السريع:

- بدئ في استغلال الفوسفاط بالمغرب سنة 1921 بواسـطة المكتـب الـشريف للفوسفاط [بلغ إنتاجه سنة 1925 حوالي 0,7 مليون طن وحوالي 1,8 مليون طـن سـنة 1930 ]، كما استغلت بقية المعادن من طرف شركات خصوصية استعمارية مثل شركة مناجم بوعرفة وامنيوم شمال إفريقيا، وكانت أرباح هذه الشركات جد مرتفعة.

- لم تنشأ بعض الصناعات التحويلية [ البناء ، النسيج ، الغـذائيات، الكيماويـات، المعدنية ] إلا بعد الحرب العالمية الثانية،وتمركزت معظم الصناعات في المدن الساحلية، وكانت أرباحها جد مرتفعة .

4- سيطر المعمرون على النشاطات التجارية مما فرض على المغرب حالة التبعية

- أنشأ المعمرون شبكة من المواصلات الداخلية والخارجية لفرض هيمنتهم العـسكرية ولربط المناطق الفلاحية والمنجمية بالموانئ لتسهيل تصريف الصادرات والـواردات، فظهـرت شركات تجارية كبرى معظمها أجنبية، اتسعت نشاطاتها التجارية مع السنوات.

- احتكرت هذه الشركات تجارة المغرب الخارجية حيث كانت تصدر المعادن خامة والمنتوجات الفلاحية وتستورد المصنوعات مما أدى إلى العجز في الميزان التجاري المغربي، وكانت أغلب المبادلات تتم مع فرنسا التي فرضت على المغرب حالة التبعية.

والخلاصة أن الاستغلال الإقتصادي الإستعماري للمغرب قد مس مختلف القطاعات الإقتصادية وخلق تناقضات وتحولات عميقة في المجتمع المغربي بحكم تمركز الاقتصاد الرأسمالي الإستعماري وتكسيره للبنيات القائمة .

## ثانيا : آثار الاستغلال الإستعماري على المجتمع المغربي

1 – تزايد نفوذ كبار القواد وتضرر أحوال التجار والحرفيين المغاربة

أ – وسعت الحماية سلطات كبار القواد بهدف تشديد المراقبة على السكان وضمان الاستغلال :

- عينت فرنسا مجموعة كبيرة من القواد بهدف إخضاع المغرب من طرف أبنائه وبأقل التكاليف،والقائد مسؤول عن النظام العام وجمع الضرائب و إرسال الخيول والجنود أو جمع التويزة للعمل بالسخرة.

- توفر القائد على جهاز تنفيذي مثله الخليفة والطالب ( الكاتب الخاص ) و الشيخ والمقدم وأعوان التنفيذ ( مخازنية )، وعلى جهاز قضائي مثله القاضي والعدول، وكانت أجورهم و أجور أعوانهم تؤخذ من الضريبة الفلاحية( الترتيب) .

- و بإيعاز من الاستعمار استغل القواد مناطق نفوذهم و ارتبطت مصالحهم بمصالح الاستعمار وكان أبرز القواد التهامي الكلاوي باشا مراكش وأحوازها.

ب – تضرر أحوال التجار والحرفيين المغاربة

- أدى تمركز المصالح الاستعمارية إلى عرقلة نشاطات كبار التجار المغاربة الإقتصادية:فبفرض الحماية نمت قطاعات اقتصادية استعمارية فتضرر معظم التجار المغاربة، في حين تمكن بعضهم من الاشتراك في رأسمال بعض الشركات الاستعمارية مما حدا بالسلطات الاستعمارية إلى إصدار قانون يحدد مساهمة الرأسمال الوطني في 5 بالمائة فقط.

- ومع نهاية الحرب العالمية الثانية توافدت على المغرب رؤوس أموال أجنبية جديدة أخرى منافسة للرأسمال الوطني فالتحق كبار التجار بالحركة الوطنية.

2 – تم تفقير معظم المغاربة وهجرتهم

- كانت ظروف معظم البدويين المغاربة جد قاسية في ظل الحماية:أدخل الاستعمار إلى المغرب نمط الإنتاج الرأسمالي فتفككت الملكية الجماعية للأرض وشجع الاستعمار الملكية الفردية لتسهيل عملية الاستيلاء على أخصب الأراضي مما أدى إلى تفكيك القبيلة والحياة الجماعية، كما اتجهت كثير من القبائل الرعوية التي كانت تعتمد على الترحال في حياتها إلى الاستقرار بصفة نهائية .

وتركزت الأراضي الخصبة في أيادي المستعمرين والقواد الكبار والشركات الأجنبية، بينما اكتفى صغار الفلاحين من المغاربة باستغلال مساحات ضيقة وفقيرة، غالبا ما تقع في مناطق ذات إمكانات زراعية ضعيفة،بالإضافة إلى خضوعهم لضرائب مجحفة و معاناتهم من تعسفات القواد والشيوخ الموالين لسلطات الحماية ) الهدايا، الغرامات، إعداد الحفلات، تموين الفيالق العسكرية، "الكوفة" ).وموروست على الفلاحين مختلف أشكال الاستغلال كالسخرة في" التويزة " " والكوفة " في خدمة الجيوش الاستعمارية و " الجعبة" في الأشغال الغابوية و "العسة" في الحراسة، وعند الرفض يسجن الرافض أو عائلته عند غيابه. وأمام هذا الاستغلال لم تعد البادية قادرة على تلبية حاجيات سكانها الذين تحولوا إلى فقراء فكثرت هجرتهم.

- كثرت الهجرة القروية نحو المدن والمراكز المنجمية و خلفت آثارا سلبية على المدن والقرى :مع الاستعمار تأزمت أوضاع البادية المغربية فكثرت الهجرة القروية، أفرغت البادية من سكانها و اتجه المهاجرون نحو المدن والمراكز المنجمية .

و اتخذت الهجرة ثلاثة محاور رئيسية أهمها من الجنوب نحو الشمال خاصة نحو البيضاء، ومن الأطلس المتوسط نحو السايس (فاس ومكناس ) ثم من الريف نحو المدن الجنوبية للريف، كما اتجه البعض نحو المغرب الشرقي. و إلى جانب هذه الهجرة نشطت الهجرة الموسمية،وكان من مخلفات ذلك إفراغ البادية من سكانها – كما تمت الإشارة إلى ذلك سالفا – وتفكيك

تنظيماتها القبلية والجماعية .على أن أهم النتائج هي ازدحام المدن بالمهاجرين وخاصة مدينة الدار البيضاء، و انتشار البطالة مع تكدس الهاجرين في الأحياء الهامشية .

### 3 – نشأة ونمو الفئة العاملة

أ – تعرضت الفئة العاملة في الصناعة للاستغلال الإستعماري

– كانت أجرة العامل منخفضة، وكان يعمل خلال عدة ساعات في اليوم، علما أن أيام العمل لم تكن تتجاوز 4 أيام / الأسبوع، وكان العمال مهددين بالطرد والبطالة وعدم التمتع بالحق النقابي مما أثر على وضعيتهم الاجتماعية والاقتصادية، ولم يصدر أول ظهير يفرض الحد الأدنى للأجور في 4 فرنكات في اليوم إلا في سنة 1936.

– أما أحوال سكن هؤلاء العمال فكانت سيئة جدا.

ب – عرف تشغيل الفئة العاملة المغربية في الزراعة استغلالا استعماريا كبيرا :

– أجور منخفضة لا تساير ارتفاع تكاليف المعيشة، وساعات عمل طويلة ( من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ).

– استعمال المعمرين طرقا ممنهجة لربط العامل بالمعمر و بالضيعة التي يعمل فيها.كما أن مهمة العامل الزراعي لم تكن محددة، فهو العامل الزراعي و الخادم والراعي.

– وعلاوة على الظروف المادية والسكنية التي عاشها العمال المغاربة ... كان أرباب العمل،وبتشجيع من إدارة الحماية يعملون على تذكية النزعات الجهوية والقبلية،وخلق الحزازات بين العمال المغاربة، وذلك باختيار اليد العاملة من مناطق معينة و رفض أبناء المناطق الأخرى وتوسيع الهوة بين العمال المغاربة و الأوربيين، حتى لا تنضج الحركة العمالية المغربية، وتنزلق في متاهات الحزازات الثانوية .

وهكذا، فإن عملية الاستغلال الإستعماري للمجتمع المغربي كانت عاملا حاسما في تعميق وعي مختلف الشرائح الاجتماعية المغربية المعادية للاستعمار، والتي عرفت تطورا كميا وكيفيا فرضت به نفسها على سلطات الحماية، فساهمت جميعها، بنصيب وافر في نهوض الحركة الوطنية من جديد .

# الوضعية الاقتصادية لواحة تودغا في العهد اليوسفي
# من خلال الأرشيف الفرنسي بمدينة نانط

سيدي محمد الكتاني

أكاديمية الدار البيضاء

**مقدمة:**

تهدف هذه المداخلة إلى الكشف عن تاريخ منطقة قروية نائية من الناحية الاقتصادية. وهي واحة تودغا في عهد السلطان مولاي يوسف، الذي بويع يوم الثلاثاء 29 شعبان 1330 هـ موافق 12 غشت 1912م، وتوفي يوم الخميس 12 جمادى الأولى 1346 هـ موافق 17 نونبر 1927م[199].

ويجد الباحث نفسه في مثل هذه الحالة أمام صعوبات، تتمثل أبرزها في قلة المادة التاريخية، لقلة الكتابات الوطنية حول المناطق النائية، خاصة عندما يتعلق الأمر بالجانب الاقتصادي والاجتماعي. وهذا النقص يجعل الكتابات الأجنبية حولها ذات مكانة هامة. وتأتي تقارير ضباط المخابرات الفرنسية وضباط شؤون الأهالي في مقدمتها. وهي التي تشكل الأرشيف الفرنسي الذي يوجد جزء منه بمدينة نانط. وهذا الأرشيف هو الذي اعتمدنا عليه للكشف عن بعض الجوانب الاقتصادية لواحة تودغا.

ولمقاربة هذا الموضوع، سيتم التركيز على المحاور الأربعة التالية:

- التعريف بكل من واحة تودغا وبالأرشيف الفرنسي المتعلق بها بنانط؛
- إبراز الأسس الاقتصادية للواحة؛

---

199- عبد الرحمان ابن زيدان: الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة. المطبعة الاقتصادية، الرباط، 1937، ص ص 125-126.

- وصف الأنشطة الاقتصادية للواحة؛

-استنتاجات.

## أولا: التعريف بواحة تودغا وبالأرشيف الفرنسي حولها بمدينة نانط

### أ- التعريف بتودغا

لا يتعلق الأمر في هذا الموضوع بتدغة التي يشير إليها رواد المصادر الإسلامية الأولى، كابن خرذابة والمسعودي والبكري في كتاباتهم بوفرتها على معدن الفضة. لأن موقعها بمنطقة إميضر[200]. وإنما يتعلق الموضوع بتودغا التي تشكل تنغير مركزها. وتبعد عن إميضر (تودغة الأولى) بحوالي 30 كلم، وهي التي نعتها الحسن الوزان في القرن 15م بأنها إقليم صغير على مجرى صغير يحمل نفس الإسم[201]. أما مارمول كاربخال، فوصف طبيعة تربتها على أنها تساعد على إنتاج التمور والخوخ والأعشاب والتين والرمان وفواكه أخرى[202].

ويقدم شارل دوفوكو في أواخر القرن 19م، معلومات مهمة حولها، منها المتعلقة بنهرها ومنتجاتها، ويقول في هذا الصدد : "تتكون واحة تودغا من ضفاف نهر تودغا فقط، إنه شريط طويل عرضه من 800 متر إلى 2000 متر، تكسوه المغروسات التي يلتوي وسطها النهر.ويظلل الواحة على طول امتدادها كثير من النخيل التي تختلط بها خاصة في الجزء

---

200 - الموساوي العجلاوي: تودغا، معلمة لمغرب، العدد 7، نشر مطابع سلا 1995، ص ص 2306-2307..

201 الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد الأخضر ومحمد حجي، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان،

ص: 129.

202 .مارمول كاربخال: إفريقيا، الجزء الثالث، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ومحمد زنيبر وأحمد توفيق وأحمد بنجلون، دار النشر المعرفة، الرباط 1988-1989. ص:159.

الشمالي.وبالجوانب المباشرة للقصور أشجار الرمان والتين والزيتون،وتكاد تكون مختلفة تحت الفروع المتسلقة أشجار الكروم والورود[203].

إن المعلومات الواردة في هذه المصادر وفي غيرها تودغا مركزا، وظفها الأرشيف الفرنسي في بداية القرن العشرين، فقدم معلومات حول تودغا، فركز على تحيد موقعها وحدودها وأبعادها ومساحتها. فمجالها يمتد من آيت إزدك شمالا إلى الحواري جنوبا على مسافة حوالي 15 كلم[204]. وعلى مستوى الحدود، يعتمد على ذكر أسماء القبائل، فقبائل فركلة تحدها من ناحية الشرق، وجنوبا آيت عيسى أوبراهيم، وغربا إمضير و واكليم، أما من جهة الشمال فتحدها قبائل آيت مرغاد[205].

ويحدد الأرشيف القصور الواقعة على الضفة اليمنى للنهر في سبعة عشر قصرا، أما الضفة اليسرى، فعدد قصورها خمسة وثلاثين قصرا[206].

ومن الناحية البشرية، فإن عدد كوانين تودغا هو 2951 كانونا، وينقسمون إلى إمازيغن الذين يرجع أصلهم إلى تودغا بنت عاد[207]، وهو الشيء الذي لا يزال متداولا في الرواية الشفاهية. وينقسمون إلى حلفين متعارضين، وهما أيت صالح وأيت كمات[208]. ثم الحراطين والمرابطين والشرفاء. ويقطن تودغا إلى جانبهم، أيت إزدك الذين كانوا يشكلون 208 كانون،

---

203 شارل دوفوكو: التعرف على المغرب 1883-1884 ترجمة العربي المختار، دار الثقافة، الرباط 1999- ص:298.

204 .Todgha 06-09-1916 . Fonds : Maroc. D.A.I, Serie 435.P1

205 Ibid.p p :1-2.

206. المعلومات المتعلقة بالعدد غير دقيقة، لأن الأرشيف أدرج ضمن العدد التقسيمات الداخلية للقصور، كاعتباره كل من زاوية سيدي عمر، وحارة إيمزيوالن وتاسكا ثلاثة قصور إلى جانب قصر الحواري، وهو القصر الذي يطلق على التقسيمات الثلاث، ونفس الشيء بالنسبة لقصر أمزاورو، إلى جانب تشويه أسماء بعض القصور.

207 . Expédition du pacha el hadj thami Glaoui au Todgha 1920. p :7.

208 .Ibid. p :13.

وهم فرع من أيت يفلمان[209]. وأيت عطا الصحراء 651 كانون، واليهود 150 كانون. وكانوا يوجدون في ثلاثة قصور، وهي تنغير وأسفالو وأيت أورجدال[210]. وبذلك فإن مجموع كوانين تودغا سنة 1920 هو 3960 كانونا[211].

ولم يخضع أهل تودغا بكاملها لشيخ عام، حيث كان كل القصر مستقلا بذاته، وله جماعتين، الفوقانية المكلفة بالعلاقات الخارجية، والتحتانية المختصة بالشؤون الداخلية[212].

وعلى مستوى علاقة تودغا بالسلطة المركزية، فإنها كانت تابعة لقيادة الكلاوي محمد إيبيض سنة 1864م. عندما أضيفت لحكمه مناطق أخرى إثر مساهمته في تغطية غرامة حرب تطوان[213]، ثم ألحقت بحكم الحاج الجيلالي الدمناتي[214]، وبعد ذلك أعيدت لنفوذ الكلاويين الذين عملوا على ترسيخ نفوذهم ونفوذ فرنسا.

ففي سنة 1919، ترأس التهامي الكلاوي حركة قوية لنجدة أنصاره المحاصرين من قبل قوات موحا نيفروتن، ولتسهيل عمليات القوات الفرنسية بتافلالت[215]. وعاد على رأس حركة أخرى سنة 1920 لإبعاد باعلي عنها وترك حامية عسكرية لحمايتها[216]. وتجددت

---

209 .Note provisoire sur le Radha, p :2.
210. Occupation du Todgha 1931, p :23.
211. Expedition du pacha…p :5.
212. Ibid. P : 14

213. محمد أو جامع: الكلاوي محمد إيبيض، معلمة المغرب، العدد 2، مطابع سلا 1989، ص: 619.

214 أحمد التوفيق: المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر. (اينولتان 1850-1912)، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الثانية 1983. ص: 155.

215 يقصد بمعارضي النفوذ الكلاوي، المقاومة التي تزعمها (امبارك التوزنيني)، ومن بعده بلقاسم النكادي. وللمزيد من المعلومات حولها، انظر: المهدي الناصري : نعت الغطريس القسيس هيان بن بيان المنتمي إلى سوس. ملخصه في المعسول، الجزء 16، من ص 272 إلى ص 304..

216 note provisoire… p :3

الامتدادات الكلاوية لحماية تتغير إلى سنة 1931 حيث أصبحت خاضعة للنفوذ الفرنسي[217].

ب- التعريف بالأرشيف

يقصد بهذا الأرشيف الفرنسي بمدينة نانط، مجموع التقارير التي أنجزها الضباط الفرنسيون حول تودغا قبيل احتلالها وأثناءه. وتوجد هذه التقارير ضمن المجموعة المتعلقة بإقليم مراكش. وصنفت ضمن منطقة ورززات. ويبلغ عدد الحزمات المرتبطة بهذا الإقليم 981 حزمة ما بين سنتي 1912 و1955[218].

ويعتبر هذا الأرشيف الدبلوماسي التابع لأرشيف وزارة الخارجية في كي دورسي quai d'orsu بباريس، من أغنى الأرشيفات التي تضم أرصدة وثائقية تتعلق بتاريخ المغرب في عهد الحماية[219]. ونشير إلى أن مجموع الحزمات المشار إليها، غير مسموح بالاطلاع على بعضه. وتتميز بعض التقارير بالتصاميم والخرائط المتعلقة بتودغا.

كما أن معظم التقارير كانت سرية.وهي تهدف في الغالب إلى الكشف عن ميادين الضعف لدى القبائل قصد استغلالها[220].

ومضمون هذه التقارير متنوع، حيث يشير إلى مختلف الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وإذا كانت السياسة العسكرية مبنية على مغالطات وتمويه، عن قصد لإزالة الطابع الوطني عن كل عمل معاد للاستعمار والكلاويين،[221] فإنها من الناحية الاقتصادية تزخر

---

217· Occupation du Todgha. p :6.

218. بوشتى بوعسرية: مركز الأرشيف الدبلوماسي في مدينة نانط في فرنسا، ضمن أعمال ندوة وثائق الحماية، رصد أولي، مطبعة فضالة، المحمدية 1996، ص ص 31-32.

219. نفسه، ص: 21.

220. نفسه، ص: 90.

221 . عبد القادر بوراس: آفاق وحدود استثمار تقارير ضباط الشؤون الأهلية في كتابه التاريخ ضمن أعمال ندوة وثائق الحماية، رصد أولي، مطبعة فضالة، المحمدية 1996، ص: 104.

بمعلومات مهمة، تفيد الباحث في رسم بعض ملامح تاريخ المنطقة الاقتصادي والاجتماعي، لأن المكسب العلمي كما يقول جرمان عياش: يبقى دائما مكسبا مهما كان الباعث الذي دفع إلى الحصول عليه. لذا وحتى لو اشترطنا في الحكم على الإنتاج الاستعماري في مجموعه، فإنه لا مناص من الاعتراف بأن مجهود المعرفة الضخم الذي أثاره لأغراض، قد أغنى كثيرا ميادين العلم بنتائج يمكن أن تفيد منها حتى الشعوب التي كانت مستعمرة بالأمس القريب[222].

وما يزكي هذا الاتجاه، هو أن التقارير الفرنسية، تشكل حلقة في سلسلة الدراسات الاستعمارية حول المغرب لتسهيل استعماره بتكاليف مادية وبشرية محدودة. ويغلب على هذه التقارير الطابع الاستخباري، حيث كانت ترتكز على إنجاز مونوغرافيات لما سمته بلاد السيبة أو مناطق العصيان، ويتم أحيانا دراسة ملكيات القبلية من خيول وبنادق، والأعيان وعدد السكان ومختلف موارد عيشهم، والأسلحة...[223].

ويتضمن الجدول التالي: بيانات حول التقارير التي تمكننا من الوقوف عندها أثناء فحصنا لهذا الأرشيف في صيف 2001م.

---

222. جرمان عياش: دراسات في تاريخ المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1986، ص:11.

223. عبد القادر بوراس، مرجع سابق، ص:100.

| عدد صفحاته | رقم محفظته | تاريخه | موضوع التقرير | المرسل أو مكان الإرسال |
|---|---|---|---|---|
| 4 | 435 | 16 Août 1916 | Tadgha | Bureau de Telouet |
| 3 | 437 | Juillet-Août 1920 | Expédition du Pacha Elhadj thami Glaoui au Todgha. | Capitaine Bruyère |
| 4 | 72 | Août 1920 | Todgha | Capoitaine Bruyère |
| 7 | 957 | 8 juin 1925 | Les événements du Ksar El hara du Todgha | Capitaine Mondet |
| 3 | 957 | 23 avril 1927 | La situation au Todgha | Capitaine Martin |
| 4 | 957 | 29 avril 1927 | Situation politique au Dadés-Todgha. | Général Huré |
| 8 | 435 | 27 janvier 1928 | Note provisoire sur le Todgha | Lieutenant Spillman |
| 3 | 957 | 1 mars 1928 | Todgha | Lieutenant Bern |
| 4 | 957 | 1928 | Tableau de commandement de Todgha | Bureau de Telouet |
| 5 | 957 | 12 Août 1929 | Sur sidi saîd et les évènements qui se sont déroulés au Tadgha et en pays M'gouna | Lieutenant Naudin |
| 17 | 436 | 1 avril 1930 | Todgha | ? |
| 35 | 603 | 1931 | Occupation du Todgha | ? |
| 32 | 437 | Mai 1936 | La vallée du todgha | Lieutenant Racht |
| 33 | 400 | 5 juin 1936 | La région du Ouarzazatte | Bureau de Ouarzazatte |
| 71 | 436 | 10novembre 1938 | Petite Histoire des Glaoua | Capitaine Schoen |

نلاحظ من خلال قراءة مكونات الجدول، أن بداية الاهتمام الفرنسي بواحة تودغا، يعود إلى سنة 1916، حيث تمكنت القوات الفرنسية في هذه المرحلة من التوغل جنوب مراكش بعد

تجاوزها لنكبة معركة لهري، وفتحت مكتب لها بتلوات مركز قبيلة كلاوة المؤيدة لها. كما تمكنت من توسيع نفوذها بتافلالت، فأصبحت تودغا ذات موقع استراتيجي يربط بين مراكش وتافلالت.

كما نلاحظ أن التقارير المنجزة تمت من طرف ضباط كانوا يشرفون على مكاتب مختلفة بالجنوب الشرقي للمغرب، والبعض منهم كشف عن اسمه وهويته، والبعض الآخر اكتفى بالإشارة إلى مكان تحرير التقرير، وبالإضافة إلى ذلك، نلاحظ تباين التقارير من حيث عدد الصفحات. فالفترة اليوسفية 1912-1927. التي لم تكن فيها واحة تودغا خاضعة للاحتلال الفعلي سواء لقادة كلاوة أو الفرنسيين، كانت التقارير المنجزة خلالها موجزة وقليلة الصفحات، بينما التقارير التي أنجزت بعد الاحتلال الفرنسي لها سنة 1931، فتتميز بكثرة صفحاتها لأن أصحابها وظفوا للبحث الميداني والمصادر التاريخية والرواية الشفاهية.

أما المقارنة بين التقارير من حيث المضمون، فإنها من الناحية السياسية تشابه في طغيان هذا الجانب عليها، كالإشارة إلى عدد السكان وتحالفاتهم، وطبيعة علاقتهم مع الكلاويين، ومعارضيهم، خاصة موحا نيفروت، ومن بعده بلقاسم النكادي ثم التغلغل الفرنسي بالمنطقة.

ومن الناحية الاقتصادية، فإن التقارير الأولى تشير بشكل سطحي إلى المؤهلات الاقتصادية للمنطقة، أما التقارير المنجزة بعد العهد اليوسفي، فتتضمن معلومات مهمة حول الأنشطة الاقتصادية لسكان المنطقة مع بعض المعطيات الإحصائية الدقيقة، فما هي الأوضاع الاقتصادية لهذه الواحة التي تكتشف تقارير الضباط الفرنسيين النقاب عنها في العهد اليوسفي؟

## ثانيا: الأسس الاقتصادية لواحة تودغا

يركز الأرشيف الفرنسي في تحديد أسس النشاط الاقتصادي لواحة تودغا على مجموعة من العناصر الطبيعية والبشرية. ومن أبرز هذه العناصر، طبيعة التربية، واستغلال الماء، والمسالك الرابطة بين تودغا بالمناطق المجاورة لها، بالإضافة إلى الأسواق.

أ- التربة

يقدم الضباط الفرنسيون في تقاريرهم حول طبيعة تضاريس تودغا وصفا يعتمد على تحديد المناطق التي يتسع فيها مجرى النهر، مما يسمح بوجود تربة خصبة تساعد على ممارسة النشاط الزراعي. وتحديد المناطق التي تشكل خوانق النهر مثل بداية المجرى، حيث يخترق النهر بمنطقة تزكي جبال الأطلس الكبير، ثم عند منعطفات، مثل منعطف أيت تارتان، الشيء الذي يجعل السكان يقيمون مدرجات بسيطة لممارسة الزراعة، لكنها تنهار كلما شهد النهر فيضانات.

إن الأفكار التي وردت في التقارير حول هذا الجانب، عبارة في الأصل عن تكرار ما أشار إليه في نهاية القرن التاسع عشر Defoucauld. كما تفسر التقارير قلة الاهتمام بتربية الماشية بمسلمة الظروف الطبيعية، حيث لا تساعد على وفرة الغطاء النباتي بالشكل الكافي خارج نطاق الواحة. وبحكم هذه الظروف الطبيعية والظروف البشرية الناجمة عن تقسيم الورثة للأرض، فإن معدل مساحة الاستغلاليات لا يتجاوز 0.2 هكتار، ويبلغ في بعض الحالات حوالي 20 متر مربع.

ب- الماء

يشكل الماء عموما أساس الحياة في أية بقعة على الأرض، وتزداد أهميته أكثر في المناطق التي يكون فيها نادرا، وهو الوضع الذي تعرفه الواحات بالمغرب، ومن بينها واحة

تودغا، التي يعود مصدر المياه فيها إلى نهر تودغا، والمياه الجوفية التي تستخرج بواسطة الخطارات والآبار.

وتعتبر مياه النهر أكثر تلبية لحاجيات السكان في مجال السقي، وبلغ صبيبه 1 متر مكعب حسب تقدير سنة1936[26]، وتعززه ثلاثة عيون مائية، الأولى بأيت سيدي علي أوبراهيم والثانية بأيت برا، والثالثة بأيت باها[27]. ويرتفع الصبيب أثناء دوبان الثلوج، وفي نهاية الصيف، لأن المنطقة تعرف في نهاية شهر يوليوز وفي شهر غشت تساقطات رعدية[28].

ولتدبير استغلال هذه المادة الحيوية، أقام السكان مجموعة من السواقي الأساسية على النهر، تنقل المياه نحو ضفتيه بواسطة السدود التي تسمى "الجير". ويبلغ عدد هذه السواقي سبعة عشر ساقية، تسع منها على الضفة اليسرى، وثمانية على الضفة اليمنى[29].

وتتبين خريطة تودغا المرافقة لتقرير قادة تودغا أماكنها[30]. وهذه السواقي هي:

---

[26] La vallée de Todgha Mai 1936, p :4

[27] Todgha 16 Août 1916, p :3.

[28] La valée de Todgha, mai 1936, p.5.

تقول الرواية الشفوية في هذا الإطار بأن النهر يفيض 7 مرات في شهر غشت.

29. تعرف السواقي باسم تركين، مفردها تاركا، وتتفرع عن كل منها سواقي ثانوية وثالثية و...

[30] Tableau de commandement de Todgha, p :4.

| الضفة اليمنى[31] | | الضفة اليسرى | |
|---|---|---|---|
| اسم الساقية | السد المقامة عليه | اسم الساقية | السد المقامة عليه |
| أيت سيدي عبد العالي | أعالي النهر | سيدي سعيد أوعيسى | زاوية سيدي عبد العالي |
| إيخبا | أيت سيدي علي أبراهيم | إيكورطان | أيت عشا |
| زمر | أيت اوجانا | حاتم | أيت شعيب |
| تنغير | أيت اورجدال | تكوتار | أسفالو |
| أزرو نعلي | أيت بولمان | داود نتكوماصت | تيدرين |
| إعدوان | تكوماصت | الجير نيعدوان | تماسينت |
| يدود | أيت إيحي نعدوان[33] | عيسى | إيفري |
| تاغيا | أيت يعلي | الجير أبجكال | أيت بنداود[32] |
| | | تزوكا | روضة سيدي اعمر الشرقي |

---

(31) من العالية إلى السافلة.

32. يعرف المكان الصحيح لهذه الساقية باسم إيمي نبدود، وهي مقامة على سد إيقوشان.

33. لا أثر لهذه الساقية حاليا لأن الفيضانات دمرتها.

وتتسع المساحة المسقية أثناء الفيضانات، حيث تزود مجموعة من الروافد الموسمية نهر تودغا مثل أزلاك، وأرك، وإميطر من الجهة اليمنى، ورافد تيدرين الذي يعرف أيضا باسم إفتيس من الجهة اليسرى.

أما الخطارات فتعزز السقي في فصل الربيع والصيف في القصور الواقعة جنوب قصر تنغير لعدم وصول مياه النهر إليها[34] بانتظام. وكان سكان تودغا وخاصة السود منهم مشهورين ببراعة حفر الخطارات جنوب المغرب[35].

وأمام الجفاف الذي شهدته المنطقة لمدة ست سنوات متتالية، لجأ سكان كل قصر إلى حفر بئره للحصول على مياه الشرب دون انقطاع، وفي هذا الإطار حفر بئر قصبة الكلاوي سنة 1919، ويصل عمقه إلى 60 متر، ودام العمل فيه سنة كاملة. ويعتبر أعمق بئر في المنطقة[36]. وتجددت عملية حفر الآبار أثناء الجفاف الذي ساد في الموسم الفلاحي 1926-1927[37]. ولم يقتصر تقلص المجال المستغل في الزراعة على دور الجفاف في العهد اليوسفي، وإنما ارتبط أيضا بالاضطرابات التي شهدتها الواحة بسبب الصراع بين المقاومة والنفوذ الكلاوي المدعم من قبل القوات الفرنسية. فاقتصر بسبب ذلك الاستغلال على المناطق المجاورة للقصور خاصة المتصارعة فيما بينها[38].

ج- الأسواق

يعتمد التبادل التجاري بواحة تودغا على ثلاثة أسواق، وهي سوق اثنين تنغير الذي يشكل أهم الأسواق، وهو عبارة عن ساحة تحيط بها الدكاكين، وحوالي عشرين فندقا "المقاهي". ويشرف عليه ثلاثة شيوخ من قصر تنغير، ويحضره سكان تافلالت وأيت عطا الجنوب، بالإضافة إلى تجار مراكش، والشاوية[39]، لكن أهمية هذا السوق تراجعت عندما

---

(34) La vallée de Todgha, mai 1936, p :6.
(35) Todgha 27 janvier 1928, p :7
(36) Todgha 27 janvier 1928, p :18.
(37) La situation au Todgha 23 avril 1927, p :1.
(38) Note provisoire sur le Todgra …p :6.
(39) Todga 16 Août 1916, p :3

خضع قصر تنغير لنفوذ كلاوة سنة 1919، لأن معارضيهم قاطعوا السوق وأحدثوا بديلا له شمال تنغير بأيت أوجانا وبايفري جنوبا، وكانا يقامان بدورهما يوم الاثنين[40].

والسوق الثاني من حيث الأهمية، هو جمعة الحارة جنوب تنغير، ويتم بجوار ضريح سيدي الحاج عمر، وتوجد به دكاكين، ولا يتوفر على الفنادق، ويشرف على تسييره شيخ الضريح الذي يعين لمدة سنة واحدة[41]. أما السوق الثالث والأخير، فهو سوق خميس تاوريريت قرب تنغير، وهو أقل الأسواق أهمية لأن الأجانب قليلا ما يحضرون إليه، ويخضع تسييره لشيخ قصر تاوريرت[42].

وترتبط هذه الأسواق بالمناطق المجاورة لتودغا بواسطة مسالك موزعة حسب الاتجاهات الأربعة، فالمسلك الشرقي يربط تودغا بكل من فركلة وغريس وتافلالت، أما الجنوبي فيربطها بتازارين ودرعة، بينما يربطها الشمالي عبر مضايق تودغا وتيزي مقرون بكل من أيت حديدو، و واويزغت، وأزيلال، وتادلة. أما المسلك الغربي فيربطها بدادس وورزازات[43].

### ثالثا: وصف الأنشطة الاقتصادية بواحة تودغا

تتحكم الأسس الاقتصادية السابقة في تحديد نوع وكمية المنتوج وفي التمييز بين أنواع النشاط الاقتصادي من حيث الأهمية، وتبعا لذلك، فإن النشاط الفلاحي بالرغم من كونه معيشي، هو الذي يمثل النشاط الأساسي، فما هي خصوصيات الأنشطة الاقتصادية بالواحة في العهد اليوسفي؟

#### أ- النشاط الفلاحي

---

(40) Note provisoire…p :7.
(41) Todgha 16 Août 1916, p:3
(42) Ibid
(43) Occupation du Todgha 1931, pp.18-19.

يعتمد هذا النشاط على الزراعة المسقية، ويتكون الإنتاج في مادة الحبوب من القمح والذرة البيضاء "السورغو" في شريط الواحة الممتد شمال تنغير، أما جنوبها فيتكون من الشعير والذرة[44]. ويتكون إنتاج الخضر من البصل والطماطم والجزر واللفت والقرعة والبطاطس والفول[45]، والسفرجل والخوخ والصبار وتكاوت.

وإذا كانت التقارير تفتقر إلى المعطيات الإحصائية سواء من حيث كمية الإنتاج أو المساحة المخصصة لكل مادة، أو علاقة الإنتاج بحاجيات السكان، فان من حسن الحظ يقدم لنا تقرير تودغا يوم 1 أبريل 1930 معطيات حول أنواع أشجار التمور وأماكنها الأساسية. فنوع بوسكري كان يوجد اكثر بشمال الواحة، ونوع بوفكوس بتكوماصت وأفانور وامزوارو، ونوع صاير بإيعدوان[46]. أما تقرير واحة تودغا 1936، فيقدم تقديرات حول عدد أشجار النخيل. فالعدد الإجمالي لهذه الأشجار بالواحة حوالي 60.000 نخلة، منها 40.000 نخلة من نوع صاير، و 15.000 نخلة من نوع بوفكوس، وما تبقى يتكون من بوسكري[47]. ومن الجيهل[48].

وعلى مستوى تربية الماشية، فإن هذا القطاع شكل قطاعا مكملا للزراعة، ويتكون من الأغنام والماعز والأبقار والإبل والدواب. وتشير تقديرات 1930 إلى أن المالك المتوسط كان يمتلك حوالي 600 من الأغنام، و 50 من الماعز و 4 من الأبقار، ومعظم الخيمات كانت تتوفر على حمار واحد، بينما اقتصر ملك الجياد على الخيمات الثرية[49]. وإلى جانب ذلك، كان السكان يهتمون بتربية الدواجن، لأن فناءات المنازل غالبا ما كانت غاصة بالدجاج والأرانب والحمام[50].

---

(44) Tidga 1 avril 1930, p :16

(45) Ibid

(46) Todghq 16 qo[ut 1996m p.4.

(47) La vallée de Todgha Ami 1936, p :8.

(48) عندما يستعصي على السكان تحديد نوع التمر، يطلقون عليه اسم الجيهل.

(49) Todgha 1 avril 1930, p :3-4.

(50) Ibid

## ب- الحرف

يمكن تصنيف الحرف التي كانت متداولة بواحة تودغا، والتي وردت في تقارير بعض الضباط الفرنسيين إلى صنفين، الحرف المزاولة في جميع القصور، والحرف التي اقتصرت على ساكنة بعض القصور.

بالنسبة للحرف التي كانت تزاول في مختلف القصور، فإنها تتمثل في الحرف التي تنتج المواد الأكثر استعمالا من قبل السكان. فمعظم النساء بالواحة، كن يقمن بغزل الصوف إلى جانب الأشغال الأخرى لتلبية الحاجيات العائلية الضرورية من اللباس، كالجلابيب والبرانيس بالنسبة للرجال، وأغطية النساء عند الخروج خارج القصر أو المترل لقضاء الحاجيات، ثم أغطية النوم.

أما الرجال فكانوا يقومون بإنتاج الحصائر التي تنسج من الدوم "جريد النخيل"، ومن اللف، وهذه الأخيرة هي الأكثر متانة وقيمة، مقارنة مع الأولى التي تتلاشى بسرعة إذا لم يتم الحفاظ عليها عن طريق رشها بالماء قبل الاستعمال، كما كانوا ينسجون حصائر أخرى من وبر الماعز، إلا أنها كانت قليلة لقلة مادتها[51].

أما الحرف التي اشتهر بها سكان بعض القصور، فإن التقارير تشير إلى مزاولة سكان أيت أورجدال للحرفة الخشبية، وكانوا ينتجون الأبواب والنوافذ والدولابات، وبرز فيهم محنكون "معلمين" في هذا الميدان[52]. واختص سكان تاووريرت في إنتاج الأسلحة خاصة البنادق من نوع بوشفر وبوحبة، وفي إنتاج الأدوات البيطرية وماله علاقة بالحديد. ولشهرتهم بهذه الحرفة، فإن قصرهم كان يعرف أكثر بكدية الحديد، "تاووريرت نمزيلن" وتقع بجوار أيت أورجدال وتنغير[53]. أما سكان إيعدوان فكانت لهم براعة في إنتاج الحبال

---

[51] Occupation du Todgha 1931, p :16.
[52] Todgha 1 avril 1930, p :4.
[53] Todgha 16 Aout 1916, p :4.

من الجريد، وإنتاج أنواع من التليسات "إقسوسن"[54]. وانتشرت معاصر الزيتون بكل من قصر أسفالو، وتنغير، وأفانور، وتكوماصت[55].

### ج- التجارة

تعتمد تودغا في تصريف منتجاتها واقتناء حاجياتها بشكل كبير على سوق اثنين تنغير الذي وصف في هذه المرحلة التاريخية بأكبر سوق أسبوعي في ورزازات[56]. وكان تجار أيت حديدو يقبلون عليه لتسويق البغال والقمح والصوف والفحم الخطبي[57]. بينما كان تجار تازرين يحملون إليه الحناء والصوف[58]. أما تجار مراكش وأزيلال فكانوا يحملون إليها الزرابي والملابس القطنية. كما كان تجار مناطق أخرى وتجار تودغا يحضرون إليه السكر والشاي والتوابل، وكانت هذه المواد تباع بدكاكين السوق بأثمنة مرتفعة[59]، ساعدت عليها عائدات عمال تودغا بشمال المغرب وبالجزائر[60].

ويبين قطيع الماشية الرائج في هذا السوق أهميته، حيث كانت تباع فيه أثناء السوق الأسبوعي حوالي 200 رأس من الأغنام، و 30 رأس من الأبقار، وأخرى من البغال، وعددا من الحمير[61]. وبلغ مدخول رسومه 4000 فرنك في الأسبوع، و 200.000 فرنك سنة 1936[62].

وتتكون منتجات تودغا التي كان الإقبال عليها من مواد فلاحية، خاصة التمور واللوز وتكاوت. وجودة هذه المادة "تكاوت" جعلت تجار مراكش وفاس يتنافسون عليها

---

[54] Ibid
[55] Note provisoire sur le Todgha, 27 janvier 1928, p :17.
[56] Ibid.
[57] Ibid, pp : 17-18.
[58] Todgha 16 Août 1916, p:4.
[59] Note provisoire…, p : 4.
[60] La vallée de Todgha 1936, p :25.
[61] Note provisoire…, p :17.
[62] La vallée de Todgha…, p :25.

لأهميتها في دباغة الجلود[63]. وكان تجار تودغا يحملون إلى الأسواق المجاورة خاصة الواقعة في شمال تودغا كتادلة، الفواكه الجافة التي كانت تحقق لهم أرباحا[64].

ونشطت المبادلات التجارية بين تودغا والمناطق المجاورة لها في العهد اليوسفي، بالرغم من التوتر الذي شهدته المنطقة نتيجة التغلغل الاستعماري الفرنسي وكثرة قطاع الطرق، وكان التجار اليهود من أكثر التجار الذين كانوا ينتقلون بين المناطق في أمن وبسهولة[65].

ليس ما ورد في تقارير الضباط الفرنسيين من معلومات اقتصادية هي كل ما شهدته تودغا من تطورات اقتصادية في العهد اليوسفي، وإنما تمثل جانبا منها، حيث لا تتضمن إجابات شافية عن أسئلة يمكن لأي باحث في تاريخ المنطقة أن يطرحها، كتقديرات كمية المنتجات، وأسعار المواد، وطبيعة القوافل التجارية، وكيف كان عمال تودغا يحولون أموالهم من الجزائر إلى تودغا؟.

ونستنتج مما سبق، الملاحظات التالية:

- صعوبة إدراك الإيديولوجية الاستعمارية من خلال التقارير المرتبطة بالجانب الاقتصادي، مقارنة مع التقارير المرتبطة بالجانب السياسي والعسكري، حيث أصبحت معالم وأهداف هذه الأخيرة معروفة لدى الدارسين؛
- ضرورة الرجوع إلى المصادر المحلية لتدقيق أسماء المناطق الواردة في الأرشيف؛
- أهمية التقارير من حيث المعلومات التي تزخر بها في مختلف الميادين خاصة إذا ما تم استغلالها بعيدا عن النظرة الاستعمارية والأحكام المسبقة الجاهزة؛
- مضمون التقارير من الناحية الاقتصادية والاجتماعية عبارة عن تدوين للرواية الشفاهية ونقدها، وقراءة الواقع المعاش والتحري الميداني؛

---

(63) Note provisoire…, p :18.
(64) Todgha 16 Août 1916, p :4.
(65) Situation politique au Dades - Todgha 29 Avril 1927, p :3.

■ التمييز بين التقارير التي أنجزت قبل الاحتلال للمنطقة، والتقارير التي أنجزت أثناءه، حيث تتميز الأخيرة بالكم والشمولية والدقة وتنوع مصادرها، مثل كتابات الوزان وكاربخال ودوفوكو ودي سيكونزاك وبروفنسال؛

■ هدف التقارير قبل الاحتلال هو تسهيل عملية الاحتلال العسكري، أما بعد التحكم في المنطقة فقد أصبح هدفها هو الحفاظ على استمرارية الاستعمار وممارسة الاستغلال بأشكاله المختلفة وبتكلفة أقل؛

■ البحث عن باقي التقارير لاستخلاص مضامينها العلمية، ومن بينها الصادرة عن القواد الكبار ومساعديهم، ففي هذا الإطار قفنا ضمن الأرشيف الفرنسي على نموذج موحدا للمراسلات التي كانت تتم بين التهامي الكلاوي وخلفائه، وهي تزخر بمعلومات مهمة تساعد على تكوين فكرة واضحة حول الأحداث التي شهدها جنوب الأطلس الكبير؛

■ نظرة الأرشيف الفرنسي إلى مجتمع تودغا نظرة جامدة، كأنه لم يعرف أي تغيير في العهد اليوسفي وهذه النظرة مخالفة للواقع؛

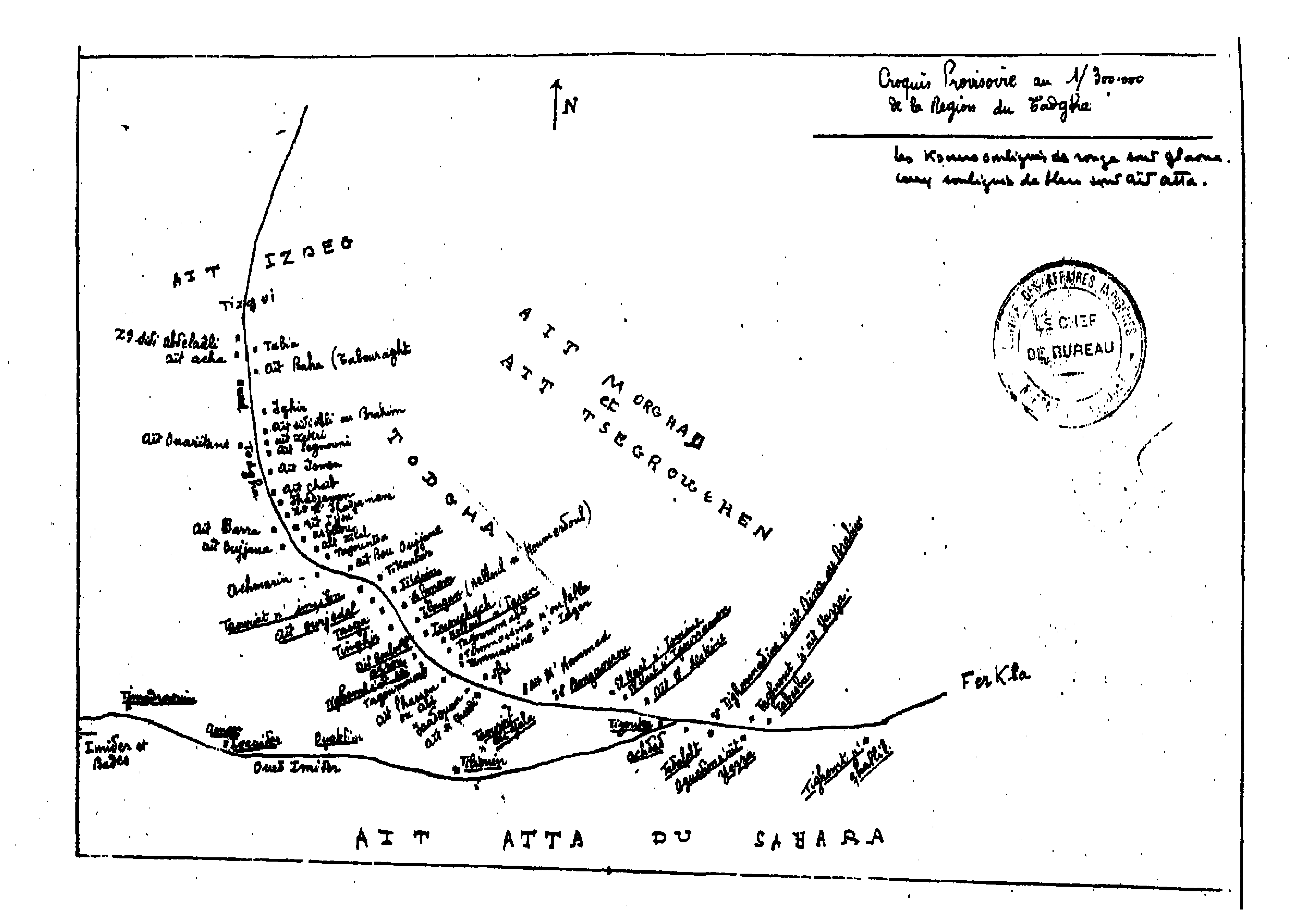
■ ارتباط تودغا من الناحية الاقتصادية مع المناطق المجاورة لها خاصة تافلالت ودرعة وأهمية تودغا في ربط الاتصال بين تافلالت ومراكش؛

■ تنوع الأنشطة الاقتصادية لواحة تودغا وتأثرها بالاحتلال الفرنسي؛

وخلاصة القول، إن بعد تحرير الأرض والسكان من السيطرة الاستعمارية الفرنسية والإسبانية والدولية بطنجة، يجب تحرير المعلومات التي يتضمنها الأرشيف الأجنبي لأهميتها في إعادة رسم الصورة التاريخية لوضعية المغرب خلال العهد اليوسفي بشكل خاص والمغرب في عهد الحماية بشكل عام، وسبق لجرمان عياش أن دعا إلى ضرورة تمشيط الأرضية التي تركها الاستعمار مزروعة بالألغام[66].

---

[66] جرمان عياش: دراسات في تاريخ المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1986. ص:11.


Croquis Provisoire au 1/300.000
de la Region du Todgha
N
AIT IZDEG
Tizgui
AIT MORGHAD
et
AIT TSEGROUCHEN
TODGHA
FerKla
AIT ATTA DU SAHARA
LE CHEF DE BUREAU

## المصادر والمراجع


- Archives diplomatiques de Nautes, France :
  Fonds : Maroc . D.A.I serie 72 A.

  Fonds: Maroc . D.A.I Serie 400.

  Fonds: Maroc. D.A.I Serie 435

  Fonds: Maroc. D.A.I Serie 437

  Fonds: Maroc, région Marrakech. Serie 603.

  Fonds : Maroc, région Marrakech. Serie 957.

- أحمد التوفيق: المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، (اينولتا1850 -1912)، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الثانية،1983.

- بوشتى بوعسرية()

- جرمان عياش : دراسات في تاريخ المغرب، مطبعة النجاح الجديدة الدارالبيضاء، 1986.

- الحسن الوزان : وصف أفريقيا ترجمة محمد الأخضر ومحمد حجي، الجزءالثاني، الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان.

- شارل دوفوكو : التعرف على المغرب 1883-1884، ترجمة المختار بلعربي، دار الثقافة الرباط، 1999.

- عبد الرحمان ابن زيدان : الدرر الفاخرة، بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، المطبعة الاقتصادية ، الرباط، 1937.

- محمد أوجامع :()

- مامول كاربخال : أفريقيا، الجزء الثالث، ترجمة محمد حجي ومحمد زنبير ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمدبنجلون، دار نشر المعرفة، الرباط 1988-1989.

- الموسوي العجلاوي ()

- عبد القادر بوراس ()

# الحرف والحرفيون بفاس
# على عهد السلطان مولاي يوسف

محمد بكراوي
كلية الآداب– ظهر المهراز فاس

## مقدمة

لقد شكلت الطوائف الحرفية ولفترة زمنية طويلة إحدى الدعامات الأساسية لاقتصاد ومجتمع المغرب في الحواضر والبوادي على حد سواء. واحتلت مكانة خاصة ومتميزة في اقتصاد مجتمع مدينة فاس على الخصوص، التي كانت تعد أكبر مركز اقتصادي- حرفي على الصعيد الوطني، وذلك لكثرة الحرف المتواجدة بها، التي قدرها ماسينيون ب 161 حرفة سنة 1923[224]، وتنوع إنتاجها وكثرة الحرفيين المشتغلين فيها.

ويؤكد جاك بيرك(J.Berque) أنه من بين العناصر الثلاثة التي تكون المجتمع الفاسي: أي الطالب والتاجر والحرفي، فإن هذا الأخير يتصدر باقي مكونات المجتمع بفضل عدده وقوته الاقتصادية، حيث تعيش 15000 أسرة، أي ثلثي ساكنة المدينة القديمة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على الحرف [225].

ورغم تقنياتها ونظمها العتيقة، كان إنتاجها يكفي لسد حاجيات ومتطلبات السوق المغربية، بل كانت تصدر الفائض نحو الخارج. وكانت الحرف الجلدية تحتل مكانة أساسية في

---

224- Massignon (L.), "Enquête sur les corporations d'artisans et de commerçants au Maroc", **Revue du Monde Musulman (R.M.M.)**, n° 58, 1924, p.4.

225- Berque (Jacques), "Deux ans d'action artisanale à Fès", in **Revue Questions nord-africaines**, n°15, juin 1939, p.160.

هذا الإنتاج حيث أن بعضها كان يحقق نوعا من الرفاهية والارتقاء الاجتماعي كما هو الشأن بالنسبة للبلايغية.

إلا أنه منذ القرن العشرين، بدأ الفتور والاضطراب يتسرب إلى دواليب بعض الحرف الفاسية التي بدأت تفقد تماسكها وأهميتها الاقتصادية.

ترى:

1- ما هو الوضع الجديد الذي أصبحت تعيشه الطوائف الحرفية الفاسية بعد فرض نظام الحماية الفرنسية على المغرب، وخصوصا في عهد السلطان المولى يوسف؟

2- كيف واجهت الطوائف الحرفية المتغيرات الجديدة المتمثلة في الإنتاج الصناعي العصري واقتصاد السوق؟

3- وما هي الانعكاسات الاقتصادية والاجتماعية لتصادم الاقتصاد الحرفي مع الاقتصاد الرأسمالي؟ وما هي ردود فعل الحرفيين المتضررين؟

## I- الحرف ونظام الحناطي

1-"الحنطة" عبارة عن تجمع مهني لمجموعة من "المَعَلْمين" والصناع و"المتعلمين" الذين يتعاطون لمهنة معينة، ولهم عرف خاص بهم، ويملك أغلبهم صندوقا تعاونيا خاصا من أهم وظائفه تقديم المساعدات وإسعاف المصابين كما حدث خلال حرائق أسواق المدينة سنة 1918[226] مثلا.

وكانت طوائف الحرف تجمع مبدئيا جميع الأشخاص الذين يمارسون نشاطهم الحرفي بالمدينة وينتمون إلى نفس الحرفة. كما كان لكل الحنطات نفس التنظيم.

وكان النساجون، الخرازون الدباغون والصباغون يكونون ما يمكن تسميته بأرستقراطية حرفية بفاس حسب روجي لوتورنو.[227]

بعد ذلك تأتي حرفة البناء، النجارة الزواقة الزلايجية الجباصة. وفي المرتبة الثالثة تأتي الحرف التالية:

السلالة، العواينية، النجارة، وفي آخر السلم نجد حرف المطاحن والحمالة.

وتتميز هذه الحنطات بثلاث خصائص أساسية هي:

1- التزامها بالقواعد المهنية التي تسير وفق نظام الشرع والعرف.

2- تعدد الطوائف الحرفية بتعدد مصادر وأنواع الإنتاج.

3- لا تمتلك الطائفة الشخصية القانونية، ذلك أن الطائفة الحرفية تتألف من كل المعلمين، الصناع والمتعلمين[228].

وقد قسم أحد المهتمين الحرف إلى سبع مجموعات حسب ارتباطها بالمادة الأولية الإنتاجية:

---

226- الفاسي (علال)، النقد الذاتي، ج.1، منشورات دار الكتاب، بيروت، 1966، ص. 230.

227- Le Tourneau (Roger), **La vie quotidienne à Fès en 1900**, Edits Hachette, 1966, p. 103.

228- الغازي الحسيني (أحمد)، طوائف الصناعة التقليدية وأنظمتها المهنية بفاس، **دبلوم الدراسات العليا في القانون الخاص**، الرباط، 1976، ص. 101.

| |
|---|
| 1- المجموعة المرتبطة بالجلد |
| 2- المجموعة المرتبطة بالمعادن |
| 3- // // بالنسيج |
| 4-// // بالفخار |
| 5- // // بمواد البناء |
| 6- // // بالخشب |
| 7- مجموعة مرتبطة بالحرف التي تزاولها النساء: طرازات، غزالات، نكافات،.... |

المصدر: زمامة (عبدالقادر)،" فاس وصناعتها التقليدية"، مجلة كلية الآداب ظهر المهراز فاس، ع.4-5، السنة 1980، ص.469.

2- إلى جانب هذا التخصص المهني كانت الحناطي تخضع لنظام اقتصادي وإداري محكم يشرف عليه مباشرة:

المحتسب، الذي كانت له سلطات واسعة في مراقبة المتاجر والمصانع، والفصل في النزاعات التي كانت تحدث في السوق داخل الحنطات. وكان يقوم بدور شرطة السوق، فيمنع الغش والتهريب ويراقب الموازين والمقاييس. إلا أن ظهير 18 أبريل 1917، القاضي بتنظيم البلديات قد جرد المحتسب من مهامه التقليدية لصالح رئيس المصالح البلدية والباشا.

وكانت مختلف الطوائف تنتخب أمينا عنها يعمل على حل مشاكلها الداخلية، وكان يشكل وساطة بينها وبين السلطات المخزنية. إلا أن صلاحياته هو الآخر تقلصت بعد إنشاء الغرف الصناعية.

والطائفة الحرفية عبارة عن أسرة من المعلمين والصناع والمتعلمين، ينتمون إلى حرفة قائمة ذات نظام هرمي تسلسلي يخضع لمجموعة من الضوابط.

ونظرا لكثرة الحرف بفاس وتنوعها سيتم التركيز على الحرف الجلدية وخاصة منها الخرازة.

## II- الأهمية الاقتصادية للحرف الجلدية:

### 1- الحرف المرتبطة بالجلد

كانت الحرف الجلدية تمثل قطاعا أساسيا وحيويا من بين الحرف الفاسية المختلفة. وكان الإنتاج الجلدي يتمحور حول حرفة الدباغة التي كانت ترتبط بها حرف جلدية أخرى عديدة تهدف كلها إلى جعل الجلد منتوجا قابلا للتصنيع والاستهلاك، من بينها حرفة الخرازة، البلايغية( حرفة النعال)، الشكايرية، البزاطمية،(حرفة الحقائب)، اللجايمية، ترصيع الجلد بالحرير أو الذهب...

وتتميز بخصائص من أهمها:

1- تنظيمها الاقتصادي، الاجتماعي والديني الخاص بها؛

2- ارتباط المشتغلين بالجلد بعلاقات متينة تؤطرها قيم الطائفة/ الحنطة؛

3- وخارج الإطار الحرفي كانت تسند لهم بشكل جماعي، مهمة رجال الإطفاء في حالة نشوب حريق بأحد المحلات القريبة من إحدى دور الدبغ مثل حريق الأسواق سنة 1918؛

4- كما كان دباغة فاس يزاولون أنشطة جمعوية جماعية كالانخراط في جمعيات القنص والرماية التي كانت تتألف من حرفيي نفس الصنعة أو نفس الحومة، وكانت تهتم بتنظيم رحلات صيد ونزهات ترفيهية خارج المدينة[229] أيام العطل وأوقات الفراغ، إضافة إلى مزاولة أنشطة رياضية/ ترفيهية مختلفة مثل "المشاوشة" وهي مباريات في المصارعة؛

5-وعلاوة عن كونهم رجال صلاح ودين كان الدباغون والخرازون ينخرطون في الطرق الصوفية، على غرار باقي الحرفيين المغاربة مثل الطريقة الحمدوشية الدغوغية[230](نسبة إلى الولي الصالح سيدي علي بن حمدوش دفين زرهون) والزاوية العيساوية (نسبة للقطب

---

229- Guyot, Le Tourneau, Paye, "Les cordonniers de Fès", in **Hespéris**, 1936, p. 9.

230 - Massigon (Louis), "Enquête sur les corporations d'artisans et de commerçants au Maroc", **Revue du Monde Musulman (R.M.M.)**, n° 58, 1924, p. 140.

الهادي بنعيسى الملقب بالشيخ الكامل دفين مكناس)، زيادة على احتمائهم بالولي سيدي يعقوب الدباغ، معلم الدباغة، وبالأخص بمولاي إدريس الثاني على غرار باقي الحرفيين.

ولهذا فالعلاقات الحرفية المؤطرة من طرف الطائفة، والأنشطة الجمعوية، وكذا الممارسات الطرقية الجماعية كلها عوامل أسفرت عن روابط متينة وتضامن وثيق بين عناصر هاته الحنطة قد لا نجد مثيلا له في العديد من الحرف الأخرى مما أهلهم للقيام بأكبر انتفاضة حضرية مهنية عرفها مغرب القرن التاسع عشر (1873).

وتتجلى أهمية الحرف الجلدية في عدد الحرفيين المشتغلين فيها من جهة وفي أهمية إنتاجها وتنوعه.

## 2- لقد اختلفت التقديرات حول عددهم الحقيقي

فماسينيون(Massignon) مثلا قدر عدد الدباغة سنة 1923 في 600[231]، في حين توصل لوتورنو في البحث الذي أجراه صحبة زميليه باي (Paye) وكويو(Guyot) في ثلاثين القرن العشرين إلى أن عدد دباغة فاس يتراوح ما بين 500و550.[232]

والجدير بالملاحظة أن لوتورنو لم يدخل في تقديره فئة الحرفيين الذين كانوا يعملون لصالح الدباغة منهم من كانوا ينتفون شعر جلود المعز واللباطة الذين يزيلون الصوف من جلود الغنم، والدلالة، ومموِّنو الجير...، والبالغ عددهم أكثر من 250 شخص. وبذلك يصبح عدد الدباغة الإجمالي 800 شخص يتكونون من أرباب العمل والصناع والمتعلمين. إذا أضفنا إلى هذا الرقم طوائف الحرف الأخرى المرتبطة بها من خرازين وطرافين وسفارين وغيرهم سيصل عدد

---

[231]- Ibid., p. 38.

[232] - Guyot, Le Tourneau et Paye, « L'industrie de la tannerie à Fès », in **B.E.M.**, Vol.II, n°9, juillet 1935, p.224.

المشتغلين بالجلد إلى 11561، سنة 1945، يمثلون 28,72%[233] من مجموع الحرفيين، تجعل منهم القوة الاقتصادية الأولى بمدينة فاس.

3- أما إنتاج الجلد فكان موزعا بين أربع مدابغ، وهي سنة 1934

| دار الدبغ | موقعها |
|---|---|
| شوارة | حومة البليدة (درب الطويل) |
| سيدي موسى | حومة جرنيز |
| عين زليتن | حومة الشرشور(درب العامر) |
| رحبة التبن | قرب الرصيف |

**Source** : Guyot, Le Tourneau et Paye, « L'industrie de la tannerie… », cité, pp.219-200.

تقع هذه الدور في أماكن قريبة من المجاري المائية، على طول وادي فاس، لتسهيل عملية الدبغ.

إن هذا التوزيع الجغرافي يقابله عمليا توزيع في التخصصات:

| دار الدبغ | نوع الجلود المدبوغة فيها ونسبتها |
|---|---|
| شوارة | الغنم والمعز |
| سيدي موسى | البقر والجمال (9/10) والغنم (1/10) |
| عين زليتن | المعز (9/10) الغنم والبقر(1/10) |
| رحبة التبن | الغنم والمعز |

233 - Mothes (Jean), "Considérations sur les divers aspects du problème de l'artisanat marocain", Annexe : Effectifs des corporations de la ville de Fès, recensement artisanal de février 1945, in B.E.M., Vol.VIII, n°26, juillet 1946, p. 36.

وكانت عملية الدبغ تمر بمراحل عديدة. كما أن الجلود كانت تعالج بواسطة مواد كثيرة مثـل " تاكاوت"، التي كانت تستورد من تافيلالت [234]، لحاء شجر البلوط الذي كان يستخدم في دبغ جلود البقر والإبل إضافة إلى فضلات الحمام والنخالة للتليين والترطيب، ثم الشب وقشور الرمان لتلوين جلد المعز بلونه الأصفر. وكان الجلد المدبوغ يسمى"البطانة" إذا كان من جلود الغنم، و"الزيواني" إذا كان من جلود المعز وهو المعروف بلونه الأصفر، و"النعل" إذا كان من جلود البقر أو الإبل. أما الجلد الأحمر، فكانت مراحل دبغه الأولى تتم بتافيلالت قبل أن يحمل إلى فاس حيث كان دباغو ونظافو المدينة يقومون بالترطيب والتليين.

ولتلافي الاستغلال العشوائي لقشور البلوط بغابة المعمورة شنت إدارة الحماية حملة لإقناع الدباغين باستعمال المواد الكيماوية لتسهيل عملية الدبغ.[235]

## 4- تجارة وتسويق الجلود

كانت المدابغ تحصل على الجلود الخام من مجزرة مدينة فاس ومن مختلف أنحاء البلاد: مكناس، تافيلالت... وكان يتم في بعض الفترات استيراد الجلود من الجزائر وإسبانيا[236].

وكانت عملية بيع وشراء جلود المعز المدبوغة تتم بفندق السبطريين الذي يعرف أيضا بفندق الجلد، وهو في ملك الأحباس. أما فندق رحبة الزبيب فهو متخصص في بيع جلود البقر وتوجد به محلات للخرازة وهو في ملك أولاد بنيس[237] وعملية بيع جلود الخرفان أصبحت تقام في فندق الصفارين ابتداء من سنة 1912.

---

234 -Guyot, Le Tourneau et Paye, « L'industrie de la tannerie… », cité, p.213.

يذكر جاك بيرك، أن الدباغين كانوا يستوردون سنويا 2000 قنطار من تاكاوت، المرجع السابق الذكر، ص.161.

235- جريدة السعادة، "الدباغة والدبغ"، 9 ماي 1914.

236 -Guyot, Le Tourneau et Paye, « L'industrie de la tannerie… », cité, p.201.

237- زمامة (عبدالقادر)، نفس المرجع السابق، ص. 469.

أما الإنتاج العام لهذه المدابغ فقد عرف تذبذبا كبيرا خلال فترة الحماية بين الارتفاع والتراجع، وبلغ سنة 1934 مثلا 150000 وحدة[238] وزعت بمختلف أرجاء المغرب.

وقد أدت المضاربة في ترويج الإنتاج الجلدي بفاس إلى ظهور فئة تجارية مهمة من التجار اليهود احتكرت تسويقها داخل وخارج المغرب مما يؤكد المكانة الخاصة لفاس في هذه التجارة. غير أن هذه التجارة ستتأثر كثيرا بفعل استيراد الجلود الاصطناعية من الدول الأوربية.

## 5- صناعة وتجارة البلاغي

تأتي البلاغي في مقدمة المنتجات الجلدية التي تعتبر من أبرز المنتجات الحرفية بفاس. وكانت حرفة البلاغي تستهلك جزءا هاما من الإنتاج المحلي من الجلود الخام علاوة على استيراد الجلود من مدن أخرى مثل مكناس التي كان يستورد منها دباغو فاس 80% من جلود الغنم والبقر.

وقد أبدع الحرفيون الفاسيون في صناعة البلاغي التي كانت تتسم بجودتها العالية وبأشكالها البديعة الجميلة، فهي تمثل مظهرا حضاريا لمدينة فاس، وغزت الأسواق المغربية والخارجية. داخل المغرب كانت تجد إقبالا عليها في المدن الكبرى كمكناس، الدارالبيضاء، مراكش وتازة[239] من قبل الفئة الغنية التي تعد الزبون الأول للبلغة الفاسية ذات الجودة العالية وكانت البلاغي تروج أيضا في طنجة وفي قبائل شمال البلاد إلى حدود سنة 1934، حيث اتخذت السلطات الإسبانية قرارا يمنع ولوج البلاغي إلى منطقة نفوذها. مما شكل خسارة لتجارة البلاغي بفاس هذا ما دفع بعض الحرفيين الاستقرار في القصر الكبير لترويج سلعهم منها إلى داخل المنطقة الخليفية.[240]

---

[238] -Guyot, Le Tourneau et Paye, « L'industrie de la tannerie… », cité, p.220.

[239] -Guyot, Le Tourneau et Paye, « Le commerce des babouches à Fès », in B.E.M., Vol.III, janvier 1936, p.41.

[240] - Ibid, pp.41-42.

كان 1574 شخص يعيشون على صناعة البلاغي وحدها سنة 1923 حسب ماسينيون[241] وهو عدد هام، وكان إنتاجها كبيرا رغم تقلباته ومشاكله، إذ كان يصل 1000 زوج من البلاغي يوميا سنة 1923.([242]) أي 30000 شهريا وأهمية حرفة البلاغي لا تتجلى في حجم إنتاجها وصادراها فقط وإنما فيما تفرزه من حرف تابعة لها تقوم على استعمال منتوج الجلد مثل حرف الخرازة والطرافة والشكايرية...

وقد صدرت من فاس سنة 1918، 200500 زوج من البلاغي إلى الخارج[243].

وإلى حدود سنة 1920 بقيت فاس تزود أسواق الجزائر ومصر والسينغال بحاجاها من البلاغي.[244] وقد تخصصت في هذه الحرفة أسر أنجبت حرفيين كبار أشهرهم **باعلو** الذي يعترف لوتورنو بأنه اشتهر بجودة منتجاته ونزاهته المهنية في عقد الثلاثينات[245] إضافة إلى الخراز التاجموعتي الذي تخصص في صناعة البلاغي المطرزة الموجهة لزبنائه من اليهود في مختلف المناطق، وببعض المدن كالدارالبضاء ومكناس[246].

وعلى غرار تجارة الجلود ازدهرت فئة من البلايغية احتكرت تسويق البلاغي وجنت منها أموالا طائلة، حيث خلقت شبكات من وكلائها موزعين داخل وخارج المغرب.

وكانت السينغال تستورد سنويا ما بين 110 ألف و115ألف زوج من البلاغي للرجال ومايين 250ألف و300ألف زوج من بلاغي النساء بسعر يصل إلى 16,5 فرنك للزوج الواحد من البلاغي. وهو ما يعطي رقما للمعاملات المالية يصل إلى 2 مليون فرنك للصفقات التجارية التي كانت تتم بين فاس والسينغال فقط[247].

---

241- Massignon (Louis), op. cit., p.12.

242- Ibidem.

243- Massonnaud (André), "l'évolution des corporations depuis notre installation au Maroc", in **B.E.M.**, Vol.IV, janvier 1937, p.42.

244 -Guyot, Le Tourneau et Paye, « Le commerce des babouches à Fès… », op. cit., p.42.

245- Ibid, p.36.

246 - Guyot, Le Tourneau et Paye, « Le commerce des babouches à Fès… », op. cit., p.36.

247 - Ibid. p.42.

إلا أن هذه التجارة كانت موسمية بحيث كانت ترتفع فقط خلال أشهر من كل سنة مثل نونبر دجنبر ويناير.

وكانت تصدر معظم المنتجات الفاسية إلى السينغال عبر ميناء طنجة، يقوم بها تجار كبار وصل عددهم إلى 20 فردا سنة 1934. إلا أنه منذ هذا التاريخ بدأت الصادرات في التراجع.

ترى ما هي أسباب ذلك؟

## III- عواقب الحماية على الحرف التقليدية

### أ- أسباب تأزم الحرف وأهم مظاهرها

لقد تعددت وتباينت أسباب أزمة الحرف التقليدية بفاس باختلاف الحرف نفسها، وتباين درجة احتكاكها بالاقتصاد الرأسمالي الأوربي. ويمكن إجمال هذه الأسباب فيما يلي:

1- إن أعراض أزمة الحرف بدأت تلوح في الأفق بعد تطبيق سياسة الباب المفتوح التي جاء بها مؤتمر الجزيرة الخضراء( 1906 )ومعاهدة الحماية( 30 مارس 1912)، مما أدى إلى إغراق الأسواق المغربية بالمنتوجات الصناعية الأوربية، خاصة الفرنسية منها، وبالتالي منافستها للمنتوج الحرفي المحلي. ويقر بهذا السبب في انهيار الحرف التقليدية العديد من الدارسين المغاربة[248] والفرنسيين [249] على حد سواء، حيث يعتبرون أن المنتجات الأجنبية قد قضت على الحرف التقليدية المغربية.

2- ولقد كان لتطور البنى التحتية، وخاصة قطاع المواصلات دورا بارزا في تسهيل عملية غزو الأسواق المحلية سواء بالنسبة لتصريفها أو بالنسبة لجلب المواد الأولية.

---

[248] - **Sbaï (F.), Blocage de l'industrialisation des villes intérieures du Maroc à travers le cas de Fès, approche géographique, D.E.S. Fac. des Lettres et des Sciences Humaines, Rabat, 1980, p.40.**

[249]- **Bel (Alfred), Les industries de la céramique à Fès, libr. Editeur, 1918, p.12.**

فمثلا أدى استيراد الحرير والنسيج الاصطناعيين من فرنسا والدول الأوربية، وكذا الملابس والمنسوجات الاصطناعية من اليابان إلى انهيار حنطة الحرازة، وعرفت أزمات حادة خلال سنوات 1934، 1935 و1936. ونفس الشيء ينطبق على الجلد الاصطناعي والجلود الجاهزة القادمة من أوربا التي أدت إلى تأزم حرفة الدباغة والحرف الجلدية المرتبطة بها، مما دفع الدباغين إلى رفع شكاوي للسلطات المحلية وإلى الإقامة العامة بالرباط سنة 1934، فأرغموا الإقامة العامة أن تتخذ لصالحهم إجراءات حمائية.

3- وبدأت الأزمة تظهر في حرفة البلاغي- أكبر منتوج صناعي مغربي يصدر إلى الخارج- مبكرا من عهد الحماية، منذ سنة 1916، حيث بادرت إدارة الحماية إلى إنشاء لجنة للبحث عن الأساليب الناجعة لوقايتها.[250]

غير أن الأزمة ستتفاقم ابتداء من سنة 1930[251].

- أولا بفعل الأزمة الاقتصادية العالمية والانهيار العالمي للأسعار وانسداد الأسواق الخارجية، بسبب السياسة الحمائية التي نهجتها حكومة غرب إفريقيا مثلا، مما شكل ضربة قاتلة للبلاغي المغربية والفاسية، التي بدأت تفقد السوق السينغالي؛

- وثانيا: بسبب منافسة البضائع المصنعة المستوردة من الخارج وإغراق الأسواق المحلية بالمنتوجات الأوربية الجاهزة، كاكتساح الجلود الجزائرية للسوق المغربية لتشكل المادة الخام للمعامل الأوربية على الرغم من رداءة جودتها[252] وانضافت اليابان إلى المنافسة الأوربية حيث أغرقت السوق المغربي في نهاية سنة 1933 بحوالي 350 ألف زوج من الأحذية المطاطية التي كانت تباع بثمن 10 فرنكات أي بسعر يقل بثلاث إلى أربع مرات عن سعر البلغة المحلية.[253]

---

250 - **Archives Nationales de Rabat, (A.N.R.),** Rapport mensuel d'ensemble, Direction de l'Agriculture, du Commerce et de la colonisation, juin 1916, p.7.

251- Berque (J), Le Maghreb entre deux guerres, Seuil, Paris, 1962, p.199.

252- Guyot, Le Tourneau et Paye, "Les cordonniers…", cité, p.12.

253 - Prosper (Ricard), "La situation des industries indigènes du cuir", in **B.E.M.**, Vol. I, n°3, janvier 1934, p.174.

وفضلا عن ذلك فإن هذه الأحذية كانت تقاوم الماء والأوحال مما سهل إقبال المغاربة على شرائها. و لم يمنع تدخل إدارة الحماية في رفع الضرر عن البلايغية بإصدار ظهير 25 أبريل 1934 الذي يقضي بمنع دخول الأحذية اليابانية إلى المغرب. كما مارست المنتجات المستوردة من الخارج سحرها على الزبون المغربي الذي أصبح يستهلك "المصنوعات الأجنبية المحضة التي تحير الأفكار بلطف صنعها وبديع إتقانها مع رخص ثمنها لوفرتها وكثرة آلاتها الدقيقة وسرعة عملها"[254]. فتغير ذوق الزبون المغربي خاصة فئة الشباب، حيث "أصبح كثير منهم يرغبون في لبس الحذاء (السباط الرومي)"[255]، نظرا لانخفاض سعره. كما أصبح السوق المغربي يكتظ بالمنتجات المستعملة: فمثلا في سنة 1936 بيعت كميات كبيرة من الأحذية الأوربية المستعملة[256]، ولمواجهة هذه المنافسة تحول بعض الحرفيين الفاسيين إلى صنع أحدية جديدة مقلدة للأحذية الأوربية، غير أن هذه المبادرة قد فشلت[257]. وأدى انخفاض مداخيل الحرفي بنسبة 50% (كان يربح ريالا واحدا فقط عن كل بلغة)، إلى استعمال مواد أولية أقل جودة وأرخص ثمنا[258] مما أزم الوضع أكثر.

إن الدباغة وإن لم تغزوها الآلة مائة بالمائة كما حدث لقطاع النسيج مثلا، فإنها قد تضررت كذلك من:

4- انسداد المنافذ التقليدية التي كانت تستقبل فائض المنتوجات الجلدية الفاسية، وخصوصا مصر، السينغال وإسبانيا.

---

254- الصبيحي (أحمد)، "الاجتهاد والاقتباس من الأوربيين"، أورده سعيد بن سعيد في مؤلفه الاجتهاد والتحديث، منشورات مركز دراسات العالم الإسلامي، الطبعة الأولى، 1992، ص. 144.

255- ناصح (مشفق)، "صناعة الخرازة بتطوان"، جريدة الحياة، العدد68، 20 رجب 22/1354 يونيو 1935.

256- Berque (J.), "Deux ans d'action artisanale…", cité, p.162.

257 - Massonnaud (André), "l'évolution des corporations depuis notre installation au Maroc", in B.E.M., Vol.IV, janvier 1937, p.42.

258- Guyot, Le Tourneau et Paye, « Les cordonniers de Fès… », cité, p.84.

إن مصر قد أغلقت أبوابها أمام البلاغي المغربية منذ سنة 1925 بسبب رداءة البلغة الفاسية المصدرة حيث قل الإقبال عليها مما دفع مصر إلى فرض رسوم جمركية حمائية بقيمة 25 فرنك عن كل بلغة تدخل إلى مصر(259).

وفي سنة 1933 ستتضرر صادرات البلاغي إلى السينغال بدورها نظرا لارتفاع الواجبات الجمركية، حيث ارتفعت الضرائب إلى حوالي 8,50 فرنكا للزوج، علما أن ثمن بيع هذه البلغة لم يكن يتجاوز بالسينغال في أحسن الأحوال 35 فرنكا، وكانت تشترى من فاس ب 15 إلى 20 فرنكا(260).

لقد تضررت الحرف أيضا نتيجة اكتساح مبادئ النظام الرأسمالي حيث ساهم اقتباس الآلات واعتمادها في بعض الحرف التقليدية في تعميق وتفكك بنى الحرف وتراجعها: فمثلا كانت فاس منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى تستورد آلات الخياطة من ألمانيا بثمن 50 فرنكا للواحدة(261). كما أنه سنة 1929 جلب أحد صانعي الصقلي آلة من ليون (Lyon) كانت تنتج أضعاف ماينتجه الحرفي وبسعر أقل ب 75% مما جعل اقتصاد الملاح بفاس يتعرض لأزمة خانقة(262).

وزاد من حدة الأزمة استغناء العديد من الحرفيين عن استعمال المواد الأولية المحلية في صناعتهم كما هو الشأن بالنسبة للصفارين والسفارة الذين أصبحوا يستعملون الجلود المدبوغة بالمصانع الأوربية، وخاصة مدابغ الصويرة(263).

كما غزت الحرف مبادئ الرأسمالية مثل الحرية في الإنتاج وتجاوز رقابة أمين الحنطة والمحتسب وكذا أعرافها كالإخلاص في العمل ونبذ الغش، إضافة إلى مبادئ أخرى مثل

---

259-Guyot, Le Tourneau et Paye, « Le commerce des babouches à Fès… », op. cit., p.42.

260- Dupré(M.), « Etudes des débouchés offerts à différents produits marocains en A.O.F. », **B.E.M, n° 16**, avril 1937, p143.

261- Vattier (J.), **Fès, la cité marchande**, Fès, janvier 1920, p.9.

262- Le Tourneau (R.), « La fabrication du fils d'or à Fès », **Hespéris, 1937**, p89.

263- Berque (J.), **Le Maghreb…**, cité, p.200.

الحصول على الربح بأيسر السبل وفي أقل وقت وبأقل جهد، مما دفع بعض الحرفيين إلى استعمال مواد أولية أقل جودة( في البلغة مثلا).

5-ومن جهة أخرى أدت سيطرة المستعمر الفرنسي على أجود الأراضي الفلاحية وأخصبها إلى خلخلة علاقة الحرف التقليدية بالقطاع الفلاحي الذي كان يشكل المصدر الأساسي لتزويد الحرف بالمواد الأولية والخام، حيث وجه المعمرون جزءا من الإنتاج الفلاحي نحو التصدير في إطار منتوجات تسويقية(حبوب، حوامض، خمور،....)، أو خصص لتلبية حاجات الجالية الأوربية المتزايدة والصناعة الاستعمارية، فأهمل قطاع تربية الماشية الذي كان يوفر موردين أسياسيين للحرف وهما الجلد والصوف هذا بالإضافة إلى الظروف الطبيعية المتردية التي كان يعرفها المغرب: مثل فترات الأزمات الفلاحية، من جفاف ومجاعات(1921-1928) وفيضانات 1924...، مما كان يحدث أكبر الضرر بالحرف.

6-وأخيرا قامت بعض المصانع الفرنسية بتقليد المنتوج الحرفي المغربي، كدبغ الجلود بالمدابغ الأوربية بالصويرة مثلا، وكذا السيوف والخناجر بسانت أيتيين**(Saint-Etienne)** وتسويقها بالمغرب بأقل ثمن وأحسن جودة.

7- غير أن أكبر مشكل كان يعاني منه الدباغون والخرازون هو ثقل الضرائب المفروضة عليهم، خاصة منها مكوس الأبواب ومكوس الأسواق، بسوق السباط وبفندق النجارين...)[264].

ب- ساهمت العوامل المذكورة في انقراض حرف وتضرر أخرى، وأبرز الحرف التي تضررت هي الحرف الجلدية والحرير والدرازة، حيث تراجع إنتاجها. كما أن حرفة السفارة بدأت تعاني من المنافسة السورية والمصرية[265].

---

**264- Ibid., p.199.**

**265-« L'artisanat à la foire de Fès », in B.E.M., n° 3, janvier 1934, p.173.**

كما انقرض العديد من أنواع الحرف لعجزها عن مسايرة مستجدات الظروف الجديدة، من أهمها: النواعرية، صناعة الأسلحة، الفوانيس، البلغة السوداء، الشكايرية...

نتج عن هذا الوضع انخفاض عدد الحنطات بفاس، حيث انتقل من 161 حرفة سنة 1923[266] إلى 120 فقط سنة 1938[267] أي اختفاء 41 حرفة في ظرف 15 سنة !

ج- المحاولات الإصلاحية لإدارة الحماية

للتخفيف من وطأة الأزمة، أقدمت سلطات الحماية على اتخاذ مجموعة من الإجراءات في محاولة لإعادة بث الروح في قطاع الصناعة التقليدية نذكر من بينها: وضع مجموعة من التشريعات لحمايتها والدعاية لها، وفتح أسواق جديدة في وجهها، وذلك عن طريق المشاركة في معارض عديدة داخل المغرب وخارجه. ففي أكتوبر سنة 1916 مثلا احتضنت فاس أول معرض للصناعة التقليدية، شارك فيه الحرفيون من جميع التخصصات وذلك للتعريف بمنتوجهم والبحث عن منافذ لتسويقه[268]. وفي سنة 1918أُحدث مكتب للصناعات الفنية الأهلية الذي تحول إلى مصلحة الفنون الأهلية سنة 1920 تحت إشراف مديرية التعليم العمومي[269]. هذه المصلحة عملت على ضمان تموين الحرفيين بالمواد الأولية، وحددت تشريعات لحماية المنتوجات الحرفية، واهتمت على الخصوص بحماية بعض الحرف الفاسية ذات الطابع الفني من زرابي، تسفير، تطريز، نحاس...

غير أن هذه المقاربة الجمالية والفنية لمحاولة إيجاد حلول لمشاكل الحرف كانت هشة ومحدودة النتائج.

---

266- Massignon (L.), op.cit., p12.
267- Berque(J.), « Deux ans d'artisanat… », op. cit., p.163.
268- Lichtenberger (André), **La foire de Fès et le développement économique du Maroc,** Impr. Rapide, Casablanca, 1917, p13.
269- Mothes (J.), « Considérations sur les divers aspects… », cité p.30.

وبعد أزمة الثلاثينات بدأت إدارة الحماية تفكر في تأطير جديد للصناع وتبحث عن حلول ومسكنات جديدة للخروج بالحرف من أزمتها الخانقة، فقامت بإحداث صندوق جهوي للتوفير، والقروض الأهلية للدعم[270]، ثم حاولت إصلاح نظام الحنطات من خلال إنشاء تعاونيات حرفية ابتداء من يونيو 1938 لتقديم مساعدات مالية وتقنية للحرفيين.

غير أن هذه التدابير الإصلاحية كانت محدودة وهشة على العموم، تبرز أن سلطات الحماية كانت تهدف من وراءها إلى احتواء ومراقبة الحرفيين أكثر.

### د- ردود فعل الحرفيين اتجاه هذا الوضع المتأزم

لقد نتج عن استفحال تدهور الحرف انضمام الحرفيين إلى صفوف العاطلين إذ أصبحوا يشكلون مجالا خصبا لاستقبال الأفكار الوطنية التي كان يروجها الشباب المثقف المنحدر في معظمه من الأوساط الحرفية والتجارية الساخطة على نظام الحماية. فكانوا في مقدمة جل المعارك النضالية التي خاضتها الحركة الوطنية المغربية بالمدن، نذكر منها على سبيل المثال:

1- مشاركتهم في انتفاضة فاس أيام 17و18و 19أبريل 1912[271]؛

2- وفي المظاهرات التي عقبت فرض الضريبة التجارية الباتنتا(Patente)، ثم ضريبة "الكياب"(أي السترة التي تعلو وتغطي سطح الدكان والمترل) سنة 1920؛

3- وكان للحرفيين حضور فعال كذلك في المحطات النضالية الوطنية التي شهدها سنة 1930، حيث شاركوا بحماس في المظاهرات المناهضة للظهير البربري[272]، وكذلك في أحداث السنوات الموالية 1933-1937.

---

270- Goichon (A.M.), « L'artisanat à Fès : crise actuelle et remèdes possible », **B.C.A.F., janvier 1938, p.11.**

271- Rivet (D.), **Lyautey et l'institution du Protectorat français au Maroc 1912-1925,** l'Harmattan, 1988, T.I., p.131.

272- بوعياد(حسن)، **الحركة الوطنية والظهير البربري**، دار الطبعة الحديثة، الدارالبيضاء، الطبعة الأولى، 1979، ص.257.

## خاتمة

نستخلص مما سبق أن المنتجات الحرفية، وإن كانت تشكل معظم صادرات فاس خلال الفترة الأولى من عهد الحماية، إلا أنها بدأت تتراجع منذ بداية الحرب العالمية الأولى، ليتفاقم تدهورها بعد الأزمة الاقتصادية العالمية. فساهم هذا التدهور بشكل عام في فتور النشاط الاقتصادي بمدينة فاس، وبدأت مدينة الدارالبيضاء تظهر كقطب اقتصادي متنام وحيوي، حيث أنه منذ سنة 1921 أصبح يضم لوحده 75% من رؤوس الأموال الموظفة، و45% من الصناعات الآلية، و60% من اليد العاملة النشيطة[273].

---

[273] - Guy (Evin), **L'industrie au Maroc et ses problèmes**, Ed. Recueil Sirey, Paris, 1934,p.171et s.

# السلطان المولى يوسف وسياسة بناء الموانئ

المصطفى البوعناني

جامعة ابن طفيل- القنيطرة

لعل القارئ سيفطن،لأول وهلة، إلى أن المقصود ببناء الموانئ في عهد السلطان المولى يوسف ( 1912- 1927) هو ميناءا القنيطرة والدارالبيضاء، أي اللذين شهد المغرب تأسيسهما مع بداية عهد السلطان المذكور الذي يتزامن مع البداية الرسمية لعهد الحماية الفرنسية على المغرب ابتداء من سنة 1912 ، ومع مرحلــتها الأولى ( 1912-1926) الذي تولاها المقيم العام الأول الماريشال ليوطي.

والواقع، أن سياسة بناء الموانئ ليست جديدة على المغرب؛ فقد شهد عبر تاريخه الطويل بناء عدة موانئ قامت بدور أساسي ليس في الرواج التجاري الداخلي، بل العالمي. ويكفي أن نذكر بالمناسبة موانئ: سبته، طنجة، المعمورة، فضالة، أنفا، الجديدة، الصويرة، أكادير.... . لكن الجديد هذه المرة هو فتح موانئ بوسائل حديثة ومتطورة من أجل تسريب عناصر قوة الدولة الحامية: السلطة الحاكمة: مدنية وعسكرية، البورجوازية ورؤوس الأموال الكبيرة، المعدات الحديثة أو مظاهر الحضارة المادية الحديثة مدنية أو عسكرية، وكذلك التحكم عبر هذه الموانئ في احتكار ثروات البلاد الهائلة، بشرية وفلاحية ومعدنية.

وقبل أن نتطرق إلى الظروف التي أحاطت ببناء الميناءين الجديدين، نسجل بعض الملاحظات الأساسية:

1- لم تُخلق هذه الموانئ من عدم أو فراغ؛ فقد كانت لها جذور تاريخية، بحيث يمكن أن نعتبر هذه المرحلة المحصورة بين 1912 و 1927 ، والتي تتناسب مع عهد المولى يوسف ما هي إلا مرحلة جديدة لمراحل سابقة عليها.

2- حصر موضوع بناء الميناءين في المرحلة المذكورة 1912-1927 سيكون فيه تعسف موضوعي، على اعتبار أنهما سيشهدان مراحل تطورية هامة بعد 1927 إلى حدود 1955 أي نهاية عهد الاستعمار.

## أولا: القنيطرة

بعد انهزام القوات الإسبانية المحتلة للمعمورة أمام القوات المغربية بقيادة السلطان المولى إسماعيل ( 1082هـ/1672م – 1139هـ/1727 ) خرجت من الموقع تاركة وراءها غنائم كثيرة وهامة، خاصة من الأسلحة، فسميت لذلك المدينة باسم جديد هو " المهدية ". إثر ذلك عمل السلطان على توطين حامية عسكرية مهمة بقصبة المهدية، اختارها من بين قوات جيش " عبيد البخاري ". وقد عُوض هؤلاء ، فيما بعد سنة 1770م بقوات من أهل الريف بقيادة محمد بن عبد المالك الريفي.

لم يكن تفكير ملوك الدولة العلوية يقتصر على جعل " المهدية " مركز دعم عسكري فحسب، وإنما كانوا يفكرون في إعادة النشاط الاقتصادي إليها، وإدماجها في نشاط البلاد ككل؛ فكان المولى إسماعيل، مثلا، يفكر في أن يجعل منها ميناء كبيراً. وفي هذا الإطار شرع في إنجاز بعض الأشغال على ضفة نهر سبو الموالية للقصبة؛ منها على الخصوص: تهيئة مئات الأمتار لبناء أرصفة الميناء ، التي لازالت بعض آثارها ظاهرة للعيان، ودار المخزن التي كان يستقر بها القائد علي الريفي حاكم المنطقة . فعاد للميناء بعض النشاط الاقتصادي.

ويظهر أن ميناء المهدية ظل يؤدي دوره إلى سنة 1795 أي في التاريخ الذي قرر فيه السلطان المولى سليمان ( 1206 هـ/1792م – 1238هـ/1822م )- في إطار نهجه لسياسة الاحتراز اتجاه الأوربيين للحفاظ على استقلال البلاد- إغلاق ميناء المهدية في وجه التجارة البحرية، تخوفاً من أن يستغل الأوربيون مدخل نهر سبو للتسرب إلى داخل البلاد. ورغم ذلك، ظل هذا الثغر البحري يقوم بدوره في مراقبة المنطقة، ولو رمزيا. فقد سجل أحد المغاربة سنة 1911م أن الحكومة أنزلت بالمهدية طابورا من العسكر، وما زال بها إلى الآن، بيد أنه لا نظام

عندهم، ولا تعليم، ولا آداب، ولا ملابس رسمية.[274] كما حافظ مرفأ المهدية، رغم إغلاقه، على بنياته الأولى، ولم يكن يحتاج إلا إلى ترميم بسيط لينبعث من جديد. هذا ما لاحظه شاهد عيان السابق، حيث قال " مرفأها جيد إلى الغاية، ولا تحتاج في إصلاحه إلى كثير نفقة أو عظيم مشقة. فإذا أُصلح، يكون للمهدية مستقبل حسن، وتحول إليها تجارة الرباط والعرائش، وتصبح مرسى فاس ومكناس"[275] . كما ظلت المهدية إلى حدود سنة 1911 م تستخدم كمحطة لتوقف المسافرين والتجار العابرين للمنطقة نحو الشمال أو الجنوب.

وفي أبريل 1911، أثناء الزحف العسكري الفرنسي نحو فاس، أقامت القوات العسكرية الفرنسية، الزاحفة من الدار البيضاء، في المهدية قاعدة لتموين قواتها، وذلك بعد احتلالها وطرد سكانها، الذين كان يبلغ عددهم آنذاك 250 نسمة، فاستقروا على بعد 1 كلم من المهدية جهة الباب الشرقي الموالي لاتجاه قصبة علي وعدي، نواة مدينة القنيطرة الحالية، مما جعل السكان القريبين من المنطقة، خاصة من بلاد زمور، يأتون لمقاومة المحتلين؛ فقتلوا عددا من الفرنسيين منهم القبطان الشهير بوتي جان"Petit-Jean" .

لقد أعطيت أهمية خاصة لهذا الميناء حيث جهز وأعيد تنظيمه بسرعة لاستعمال عسكري أوسع. في 3 أبريل 1911 أنشئت مديرية ميناء المهدية. مباشرة بعد ذلك أنزلت به العديد من القوات مصحوبة بعدد مهم من المعدات والتجهيزات: سفن، سفن الجر، سفن الفحم، زوارق بخارية...الخ، لقد سمح ميناء المهدية بتقليص 125 كلم من مسار الجيوش، معوضا هكذا 6 أيام من الطريق البرية ب 6 ساعات من الطريق البحري. وخلال شهري يونيه ويوليوز 1911، أنزل بهذا الميناء 30 ألف طن من المعدات.

لم يدم استعمال الفرنسيين لهذا المرفأ النهري طويلا؛ إذ تبين لهم، بسبب الحاجز الرملي الذي يعترض نهر سبو عند مصبه، والأمواج العاتية أثناء فصل الخريف، ورياح المحيط الأطلنطي القوية، أن فائدته ضعيفة، إذ أن السفن الراسية فيه غالبا ما كان يقذف بها إلى الشاطئ.

---

[274] - عبد الحفيظ الفاسي، رحلة. ص 19 . م خ غ

[275] —ن م س ص 16 .

وأثناء عملية استكشافية سارت مع النهر على طول 60 كلم، أثار الانتباه مكانٌ يوجد على بعد 17 كلم من المهدية وسط أحد ثنيات نهر سبو، يمتد على طول 250 متر، ويتوفر على عمق 6 أمتار يسمح برسو سفن ذات حمولة 2000 طن. كان هذا المرفأ يوجد على الضفة اليسرى لنهر سبو بجانب بناء يسمى " قصبة قنيطرة علي أو عدي "، التي ستكون النواة الأولى لميناء ومدينة القنيطرة الحالية.

وأما " قنيطرة " فهي تصغير لكلمة " قنطرة "، والمقصود بها هو القنطرة البسيطة التي كانت مقامة على الجدول الصغير المسمى " الفوارات "، آخر الروافد الجنوبية لنهر سبو قبل أن يصب في البحر، كان يجري على بعد 1،5 كلم تقريبا من القصبة، ويمتلئ بالمياه أثناء فصل الخريف، مما يجعله غير قابل للعبور، فبنيت عليه هذه القنطرة، خاصة وأن الطريق السلطاني من سلا إلى فاس يمر عبر هذا المكان.

وأما " علي أو عدي " المنتمية إليه هذه القنطرة، فتقول الرواية الشفوية بأنه زعيم بربري ينتمي إلى قبيلة زمور كان يشتغل بالصيد، وهو الذي بناها لتسهيل عملية المرور من منطقة المرجات المحيطة بالجدول. إلا أن فرضية أخرى تفيد أن المقصود ب " علي أو عدي " هو القائد علي الريفي، قائد المنطقة كلها في عهد السلطان المولى إسماعيل، والذي بنى في أواخر القرن 17م قنطرتين: الأولى على جدول الفوارات، والثانية على المرجة التي يكونها هذا الجدول على ضفته اليسرى أثناء فصل الخريف، وربط القنطرتين بممر حجري. غير أن القنطرة التي بنيت على جدول الفوارات هدمت سنة 1928 من طرف مصالح الحماية الفرنسية بعد تحويل مجرى الجدول. لأنها كانت تستفز منظري الجهاز الاستعماري الذين يريدون أن يكون الحجر الأساسي للقنيطرة من وضع الحماية للتأكيد على دورها الحضاري المزعوم في المغرب.[276]

وأما القصبة، فهي بناية ذات وظيفة تجارية، بنيت في مكان قريب جدا من الضفة اليسرى لنهر سبو، وهي لازالت قائمة إلى الآن، حيث توجد على يمين الداخل إلى ميناء القنيطرة الحالية من بابها الرئيسي. وتختلف المراجع حول تأسيس ومؤسس هذه القصبة؛ فهناك

---

[276] - بوراس عبد القادر، القنيطرة. ضمن " معلمة المغرب " ج 20 ، ص 6689- 669

من يُرجع ذلك إلى السلطان المولى الحسن الأول ( 1290هـ/1873م- 1311 هـ/1894 م ) سنة 1892 لأجل حماية القوافل التجارية من هجمات قطاع الطرق. إلا أنه يستفاد من كناشة محمد بن علب الدكالي، في بداية القرن20م، أن مؤسسها هو السلطان المولى عبد العزيز ( 1311هـ/1894م – 1326هـ/1908م ) سنة 1895م [277] . ومهما يكن، فإن المكان الذي بنيت عليه هذه القصبة كانت توجد عليه قصبة أخرى قديمة يعود تاريخ بنائها إلى منتصف القرن 8هـ/14م، أي في عهد أبي عنان المريني؛ فأثناء عملية تجديد بناء القصبة، عثر المهندسون على جدار قديم وحَجَرة قديمة كذلك كانت منصوبة على قبر هنالك بالموضع الذي أنشئت به القصبة مكتوب عليها ما نصه : " يوم الجمعة الأخيرة من محرم عام 749 ". قال محمد بن علي الدكالي في كناشته : " فاستدل بذلك على أن القصبة الأصلية التي بقي جدارها معروفا هناك ، وبنيت هذه على أساسها كانت موجودة في ذلك العهد، وصاحب هذا القبر من جملة سكانها حينئذ "[278].

وقد سجل أحمد بن العياشي سكيرج، في رحلته سنة 1329هـ وصفا لمعالم هذه القصبة يتطابق مع معالمها الحالية المتبقية[279] . ويظهر أن حامية عسكرية كانت تقيم باستمرار في هذه القصبة بقيادة القائد المعطي بن المدني السرغيني [280] ، الذي عينه السلطان المولى عبد العزيز بعد تجديد بناء القصبة التي استعادت نشاطها التجاري، واستقطبت بعض العائلات التجارية خاصة أسرة الشريف مشيش بن عبد السلام العلمي الذي استقر غير بعيد عن القصبة، واشتغل بالتجارة بين فاس والقنيطرة والرباط وسلا، مما كان حافزا لمجيء بعض الأسر الفاسية التجارية الأخرى لاحقا.

---

277 – أنظر <u>الكناشة</u>،ص 21 . م خ ع.

278 – ن م س ن ص.

279 – أنظر رحلة " <u>غاية المقصود بالرحلة مع سيدي محمود</u>" ص 196-197. م خ ع.

280 – ن م س ص 19

كما ظهرت بجوار القصبة مجموعة من النوالات استقر بها السكان الذين توافدوا بكثرة. وهكذا، لما قررت السلطات الاستعمارية نقل الميناء من المهدية إلى القنيطرة لم تجدها أرضاً خلاءً، بل كان بها تجمع سكاني ونواة تجارية، سيطرت على أراضيهم .

**القنيطرة: الميناء والمدينة**

كان لابد من إيجاد ميناء نهري يستجيب لحاجيات الجيوش الاستعمارية التي ما فتئت تتعاظم وتتزايد بتزايد توغلها في الداخل. وبالإضافة إلى ضرورة إيجاد ميناء عسكري، كان لابد أيضا لهذا الميناء المرتقب أن يلعب دورا تجاريا، لأن المبادلات التجارية بين فاس ومكناس كانت تتم مع الخارج عبر ميناء العرائش، ولهذا فإن تبعية هذه المناطق لميناء العرائش الواقع في المنطقة الإسبانية يشكل تهديدا للمصالح الفرنسية. وهكذا، فإن الضرورة الإستراتيجية والجيوسياسية حتمت إقامة ميناء نهري كبير. وبإيعاز من إدارة الحماية تم القيام بدراسة ميدانية أسفرت عن وجود مكان مناسب لهذا الميناء قرب القصبة المخزنية التي شيدت سنة 1895. ويتميز النهر في هذا الموقع باتساع يتراوح ما بين 250 و 300 متر، وعمق يتراوح ما بين 6 و 10 أمتار، بالإضافة إلى وجود رصيف قاري يصل طوله إلى 1200 متر، ولا يتعدى ارتفاعه عن سطح مياه النهر مترا واحدا.

**I – القاعدة العسكرية البحرية:**

تؤرخ الإدارة الاستعمارية ميلاد مدينة القنيطرة بيوم 15 غشت 1912، ففيه أقيم اجتماع بمقر الإقامة العامة، وعُرضت نتائج العمليات الاستكشافية لمجرى نهر سبو على الجنرال ليوطي، فتقرر اختيار مرفأ " قصبة على أوعدي " لإنشاء ميناء عسكري عوض ميناء المهدية. فأعطى ليوطي أوامره بتوجيه الأجهزة والعتاد العسكري إلى المرفأ الجديد، وبدأت الأشغال الهندسية لإقامة القاعدة النهرية. واستخدمت القصبة لاحتضان المصالح العسكرية المختلفة، والتي تزايد عددها منذ ذلك الوقت. كما أقيمت حول الميناء الثكنات العسكرية.

أقامت البحرية الفرنسية رصيفاً صغيرا عائما على ضفة النهر، وأقامت مصالح الهندسة العسكرية، فيما بعد، رصيفا آخر أكثر متانة سمح برسو سفن ذات حمولة 1500 طن.

## II – الميناء:

بهذه الأعمال تكون السلطات العسكرية قد دشنت عمليات بناء الميناء والمدينة؛ إذ أن مصالح التموين لم تتأخر في التوسع التدريجي، فبدأ التفكير في جعل هذا الميناء مركزاً لتموين المنطقة الشمالية الغربية كلها. فكانت فكرة إقامة مركز أوربي وميناء تجاري بالقنيطرة نتيجة لهذا المشروع، الذي سيصبح واقعا ملموسا بمرور السنين.

وإذا كانت مختلف الدراسات تؤكد أن ليوطي هو المؤسس الحقيقي لميناء ومدينة القنيطرة، فإن هناك وثيقة تاريخية تؤكد أن الفضل في تصور هذا المشروع يعود، قبل ذلك، إلى السلطان المولى يوسف، الذي أمر بمقتضى ظهير شريف مؤرخ في 15 رجب 1331هـ بعض السكان المغاربة بالانتقال إلى القنيطرة مقابل مجموعة من التسهيلات والوعود، وذلك من أجل استثمار ثرواتها.[281]

هكذا، ساعدت مجموعة من المميزات الطبيعية والطبوغرافية لهذا الموقع على خلق مرسى نهري مهم، ونقطة عبور لكل الطرق البرية والحديدية التي ستربط ما بين مدن الدارالبيضاء وفاس وطنجة، ومنفذ طبيعي لسهل الغرب الشاسع ومنطقة بني احسن جنوبه، وجهات فاس ومكناس، والأودية العليا لنهري سبو وورغة شرقا وشمالا.

فمنذ فاتح يناير 1913م فُتح ميناء القنيطرة في وجه التجارة البحرية بعد أن كان مقتصرا على السفن ذات الأهداف العسكرية، وبذلك خلق الرواج التجاري مدينةً جديدة هي مدينة القنيطرة.

## III – المدينة:

ظهر،أولا، إسم مدينة القنيطرة في 20 ماي 1911. وفي خريف 1912، عُقد اجتماع جمع ممثلي السلطة العسكرية، ومصلحة الجمارك، وإدارة الحماية، حُددت بمقتضاه الأراضي العمومية وأراضي الخواص، إذ علينا ألا ننسى أن هناك بعض التجار كانوا يقيمون

---

281 – جريدة السعادة، عدد 10 ماي 1934 .

بالقنيطرة قبل 1912، كما أن بعض الأوربيين اقتنوا من الجماعات السلالية الأراضي وباعوها للإقامة العامة بعد معرفتهم المسبقة بنوايا إدارة الحماية في إقامة مدينة عصرية على هذه الأراضي، ونذكر على سبيل المثال المضارب العقاري السويسري روبير ميسار " Robert Mussard " الذي اشترى الأراضي التي بنيت عليها المدينة العصرية من سلالات: أولاد أوجيه، والحدادة والبوشتيين[282] . وعند نهاية نفس السنة ظهرت نواة لمدينة عسكرية بدأت تنتشر على الأراضي الحرة الواقعة شرق وغرب القصبة.

وفي 4 يونيو 1913، أُحدثت، بمقتضى قرار من الإقامة العامة، إدارة المراقبة المدنية للغرب وبني احسن، واختيرت القنيطرة كمركز إداري لمجالها.

وعندما فكر المستعمر في إعطاء إطار تمثيلي للمدن المغربية، كانت القنيطرة من أولى المدن، التي أُحدثت فيها لجنة بلدية مختلطة متكونة من : 12 فرنسيا، و 6 مسلمين،و يهودي واحد، وذلك بمقتضى قرار وزاري بتاريخ 30 دجنبر 1926.

وبمقتضى قرار آخر في 24 ماي 1932، أُعطي لمدينة القنيطرة اسم جديد هو ميناء ليوطي"Port-Lyautey " وهو الاسم الذي ظلت تُعرف به طيلة فترة الاحتلال الفرنسي للمغرب.

## IV – المدينة والميناء:

### 1 – تجهيز الميناء والحركة التجارية:

إن انطلاقة مدينة القنيطرة الحالية تتزامن مع بداية استغلال الميناء بعد أن فُتح في وجه الرواج التجاري البحري بقرار من الإقامة العامة في فاتح يناير 1913 بعدما كان خاصا بالنشاط العسكري. فموقعها له نفس الحظوظ الطبيعية والإستراتيجية، التي يتمتع بها ميناء مدينة الدارالبيضاء، حيث إنها تتوفر على أراضي خلفية غنية، وتوجد على الطريق التي تربط فرنسا بمستعمراتها في إفريقيا الغربية. وهي قريبة كذلك من مضيق جبل طارق، الذي يعتبر أهم ملتقى للطرق التجارية العالمية. وهكذا، أصبحت القنيطرة تُجلب إليها السفن التجارية العالمية، التي

---

[282] – بوراس عبد القادر، م س ، ص 6691 .

كانت ترغب إما في استكمال حمولتها أو لحاجتها الضرورية للمؤن، وهذه العمليات أعطت للحركة التجارية بالمدينة دفعة قوية، كما أعطت لمينائها النهري مكانة كبيرة، وتقاطرت عليها شركات الملاحة العالمية فرنسية وإنجليزية.

ويكفي للدلالة على الأهمية التي أصبحت لهذا الميناء أن نعرف تطور عدد السفن التي دخلت إليه فيما بين سنتي 1913 و 1931 ، وكذلك تطور كمية حمولتها:

| السـنـة | عدد السفن | الحمولة بالطن |
|---|---|---|
| 1913 | 35 | 13.000 |
| 1914 | 147 | 27.000 |
| 1915 | 250 | 42.000 |
| 1916 | 178 | 44.000 |
| 1917 | 171 | 55.000 |
| 1918 | 343 | 72.000 |
| 1919 | 303 | 82.000 |
| 1920 | 309 | 98.000 |
| 1921 | - | 160.264 |
| 1931 | - | 400.000 |

A. Baita : Regards historiques sur Kénitra.
In Lamalif, №197, Mars 1988.p.27

العلمي مصطفى مشيش، القنيطرة، ميلاد المدينة والحركة الوطنية 1913-1937 منشورات مؤسسة سيدي مشيش العلمي. ص 19

. بوراس عبد القادر، القنيطرة. ضمن معلمة المغرب ج 20، ص6692

إن تزايد نشاط ميناء القنيطرة يعود أساسا إلى ازدياد حجم الصادرات من المواد الفلاحية لحوض سبو، والمواد المعدنية، ومختلف المواد الأولية، وكذلك بسبب استيراد مواد التجهيز المختلفة والمواد المصنعة، وكذلك العتاد الحربي لمواجهة مقاومة قبائل الأطلس المتوسط ومقاومة الريف لاحقا بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي.

لقد أصبح ميناء القنيطرة يستقبل كل السفن- أقل من 100 متر طولا- بغاطس 4،30 متر إلى 5،50 متر. كما دُشنت الملاحة في النهر ليلا سنة 1927، ودخلت حيز التنفيذ

سنة 1931 .وتوبعت أشغال تجهيز الميناء، فأصبح يتوفر ، إلى حدود سنة 1957، على 744 مترا من الأرصفة مجهزة ب 12 رافعة متحركة من فئة 3 إلى 6 طن، وشُيد 13 مخزنا على مساحة 13.000 متر مربع.وإن أهم تجهيز أقيم بالميناء، سنة 1933، هو مخزن الحبوب من حجم 60.000 قنطار يسمح بشحن السفن بمعدل 400 طن في الساعة. وقد أضيف إلى ذلك مخزن بنفس الحجم.

سارت الحركة التجارية لميناء القنيطرة في تقدم منتظم منذ سنة 1914 إلى سنة 1931؛ فقد شهدت سنة 1921 زيادة 48% بالمقارنة مع السنة السابقة لها، ومثلت تاريخا مشهودا في حياة القنيطرة، إذ وصل فيها الرواج التجاري إلى 160.264 طن، وبذلك احتل الميناء الصف الثاني بين موانئ المنطقة الفرنسية، وهي الرتبة التي ظل يحتلها منذ سنة 1921. وفي سنة 1931 اقترب الرواج التجاري من 400.000 طن، وهو يمثل آنذاك 14،5% من الحركة التجارية لموانئ المغرب[283].

إلا أن الحرب العالمية الثانية جاءت لتوقف هذا النشاط التجاري؛ فقد سجلت سنة 1940 هبوطا قويا تفاقم سنة 1945، حيث نزل حجم السلع المفرغة في الميناء إلى 18.000 طن، وهو أضعف رقم مسجل منذ تشغيل الميناء. وبعد الحرب، انتعش نشاط الميناء بشكل هائل، إذ تجاوز في بعض السنوات الرقم القياسي المسجل في سنة 1931، ليستقر ابتداء من سنة 1952، ويصل إلى منتهاه سنة 1955 وهو 630.000 طن[284].

وكانت القنيطرة تقوم بدور ميناء بترولي، إذ أنها كانت تتوصل إما بواسطة الاستيراد مباشرة، أو عن طريق ميناء فضالة – المحمدية حاليا – بكل المنتوجات البترولية الموجهة إلى الشمال الغربي. فقد تجاوز حجم المحروقات 4000 طن سنة 1937، وهو ثلث واردات المغرب تقريبا آنذاك. وقد خُصصت لهذا الغرض 35.000 متر مربع لإقامة التجهيزات البترولية[285].

---

283 - M. Girard **, Port-Lyautey. Porte du nord du Maroc**. P.100.
284 - IBIDEM
285 - M. Nespola, **Kenitra, historique et analyse du Développement de l'agglomération et du port et ses incidences sur l'évolution de l'économie du Gharb**. In BESM 1969 .p.68-70.

ولإتمام تجهيزات ميناء القنيطرة الداخلي، ولمواجهة كل ما يتطلبه هذا الرواج المتزايد شُرع في تجهيز ميناء أمامي في المهدية قرب مصب سبو يكون صالحا لسفن ذات غاطس 7،50 متر.

أصبحت،إذاً، موانئ القنيطرة-المهدية تستفيد من كل امتيازات الموانئ النهرية كالسلامة وسهولة التجهيز والتوسع على طول ضفاف النهر. وإذا أضفنا إلى ذلك الأراضي الفلاحية الخلفية الغنية والواسعة، فإن ذلك يؤكد على أنها كانت مؤهلة للقيام بدور رئيسي وهام في الاقتصاد المغربي.

2 – تعمير المدينة:

إن نشاط الميناء والوجود العسكري بالمدينة أديا إلى توافد عدد كبير من العمال والتجار ومرافقي الجنود، وغيرهم ممن توافد على المدينة طلبا للعمل، مما سيؤدي إلى تطورات أخرى ستشهدها المدينة على مستوى الإسكان والنشاط الاقتصادي والعمراني. ولهذا أرست إدارة الحماية، أمام هذه الحشود الوافدة على المدينة أول تصميم للمدينة انطلاقا من نهاية 1912، فقسمت بلاد المخزن إلى 5 مجموعات:

* 13 هكتار شمال القصبة ، وعلى طول النهر، خُصص للميناء
* 50 هكتار جنوب شرق القصبة خُصص للجيش.
* 100 هكتار جنوب غرب القصبة خصصت للمصالح العمومية والتجزئات.
* 46 هكتار شرق القصبة خصصت لسكنى الأهالي.
* 103 هكتار للخواص في إطار الشركة العقارية للقنيطرة.[286]

وبذلك بدأت ترتسم المعالم لأولى لأحياء المدينة الحديثة النشأة.

وإذا كان قيام الحرب العالمية الأولى قد أخر عملية التجهيز الحضري للمدينة، فإنه لم يوقف تزايد عدد السكان سواء الأوربيين منهم أو المغاربة، إذ أصبحت القنيطرة سنة 1926

286 - A. Baita, op.cit. p.27

رابع مدن المغرب من حيث عدد السكان الأوربيين مثلا بعد الدار البيضاء والرباط ووجدة ومكناس، وذلك بفضل إمكانيات المدينة ومنطقة الغرب من الناحية الفلاحية والتجارية.

ويقدم لنا الجدول التالي صورة عامة على تطور عدد سكان المدينة:

| السنة | المغاربة | الأجانب | المجموع |
|---|---|---|---|
| 1912 | 500 | 600 | 1.100 |
| 1914 | 1.000 | 1.000 | 2.000 |
| 1916 | 2.000 | 1.100 | 3.100 |
| 1917 | 2.000 | 1.458 | 3.458 |
| 1920 | 2.263 | 2.204 | 4.467 |
| 1921 | 6.370 | 3.062 | 9.432 |
| 1926 | 6.030 | 3.901 | 9.931 |
| 1927 | 6.030 | 3.901 | 9.931 |
| 1937 | 11.917 | 5.484 | 17.401 |
| 1947 | 40.990 | 6.780 | 47.770 |
| 1957 | 60.256 | 8.480 | 68.736 |

M. Nespola, op. cit. pp. 53-55
A. Baita, op. cit. pp.28-31
العلمي مصطفى مشيش، القنيطرة...م س ص 27
بوراس عبد القادر، القنيطرة. م س

لقد أُجري أول إحصاء سنة 1912 في القصبة، فأعطى 600 نسمة من الأوبيين و500 من المغاربة المسلمين واليهود. وهكذا، فإن القصبة التي كان يبلغ عدد سكانها عند نشأتها سنة 1912 حوالي 1100 نسمة، سيصبح، سنة 1952، -أي بعد 40 سنة-أكثر من 55.000 نسمة، فأصبحت المدينة من بين المدن المغربية الكبيرة. وما يميز هذه المدينة، على خلاف المدن الأخرى، أنها لم تكن تتوفر على مدينة نواة باستثناء القصبة، التي لم يكن الهدف من إنشائها سوى الدفاع على مصب نهر سبو، واستعمالها كمحطة في طريق القوافل التجارية العابرة للمنطقة.

كان السكان المغاربة يتمركزون في المدينة القديمة، والمدينة الجديدة، وحي الساكنية. ويتمركز اليهود في حي الملاح المحصور فيما بين شارع مولاي يوسف -حاليا- والحي العسكري. أما الأوربيون فيتمركزون في الحي الأوربي الجديد.

عند بداية الحماية، كانت العناصر الأولى من السكان المغاربة، والتي جاءت لتستقر في مدينة القنيطرة من الفاسيين، خاصة التجار منهم، الذين استقطبهم، بدون شك، نشاط الميناء ونمو الحي الأوروبي. وجاء، في نفس الوقت، عدد مهم من سكان ضواحي المدينة -أغلبهم من الفلاحين- واستقروا إما قرب الميناء بالنسبة للذين عملوا في أشغال الميناء، أو بالقرب من المؤسسات العسكرية بالنسبة للذين كانوا يعملون فيها.

وشهدت المدينة والميناء، بالتتابع، انطلاقة مهمة على المستوى الحضري، فضلا عن المستوى الاقتصادي، فكانت الحاجة إلى اليد العاملة تتصاعد بحدة.

جاء السكان الذين كانوا أصل نمو المدينة وتوسعها من القبائل والدواوير المرتبطة بالأرض التي أقيم عليها الميناء ومؤسساته وتجهيزاته الاقتصادية، وهم من بني احسن والأزغار، نظرا لضعف النشاط الفلاحي وفقر الفلاحين في سهل الغرب. فكان خلق ميناء ومدينة جديدتين أملا لهؤلاء السكان في تحسين مستوى عيشهم.

من بين عناصر السكان، الذين ساهموا في توسع المدينة ،العسكريون، الذين كانوا معبأين في الجيش الفرنسي منذ بداية الاحتلال. فقد استفاد أغلبهم من امتيازات أساسية خاصة على مستوى البناء، مما ساعدهم على ضمان عيش كريم لأسرهم، وساهم في تطوير المدينة.

إن أحدث وأهم مرحلة لتعمير المدينة كانت قبيل الحرب العالمية الثانية وما بعدها، إذ نلاحظ هجرة مهمة من البوادي إلى المدن إلى حد أن منحنى النمو الديموغرافي للمدينة تجاوز منحنى حركة البناء، مما أدى إلى خلق أحياء الصفيح.

توزيع سكان أحياء الصفيح بالمدينة

| النسبة | الأصـــل |
|---|---|
| % 96,42 | قـــروي |
| % 3,25 | حضــــري |
| % 0,33 | أجنـــبي |

M. Néspola,op.cit.p.62

وكان سكان مدينة القنيطرة من الأصل القروي يتوزعون على الشكل التالي:

| النسبة | الأصل | النسبة | الأصـــل |
|---|---|---|---|
| %26،33 | قبائل ذات صلة بمجال القنيطرة | % 5،22 | من الشياظمة |
| % 11،38 | من قبائل الشاوية | % 5،07 | من صحراوة |
| % 9،65 | من قبائل الحوز وأعالي الأطلس الكبير | % 4،31 | من عبدة |
| % 9،38 | من دكالة | % 97،2 | من تادلا |
| % 6،79 | من السراغنة | % 2،64 | من الرحامنة |
| % 6،58 | من سوس | % 1،03 | من احمر |

M. Néspola, op. cit. p.61

يتشابه استقرار العناصر القروية في المدينة مع حالات الاستقرار بالمدن الأخرى؛ فالمهاجرون كانوا يتجمعون حسب مناطق انتمائهم.

3 – قطاعات الشغل بالمدينة:

كانت قطاعات شغل السكان النشيطين في مدينة القنيطرة، خلال مرحلة الحماية، تتوزع إلى خمسة قطاعات:

- القطاع الأول وهو القطاع الصناعي، كان يُشغل 6.635 شخصا يتوزعون على المصانع ومخازن الوقود، ومستودعات الأجهزة، ومقاولات البناء، ومخازن الفلين...الخ؛

- القطاع الثاني هو القاعدة الجوية العسكرية ، كانت تشغل 2.505 شخصا، غير أنها لم تكن مصدرا للشغل يمكن الاعتماد عليه في التخطيط لمستقبل العامل؛

- القطاع الثالث وهو الحي الأوربي حيث كان يشتغل حوالي 239 شخصا، يتكونون أساسا من الموظفين في مختلف المصالح الإدارية والمؤسسات الخاصة ذات الطابع الصناعي أو التجاري؛

- والقطاع الرابع هو الميناء، كان يشتغل فيه حوالي 738 شخصا، وقد ساهم في تحسين محسوس لوضعية عمال المدينة؛

وأخيراً، كان هناك قطاع خامس يشمل بعض المشتغلين بصفة حرة كالحرفيين ورؤساء المقاولات الصناعية والتجارية والتجار والفلاحين وأصحاب المهن الحرة، بما مجموعه 2.024 شخصا.

وكان عدد العاطلين يتراوح ما بين 1.500 و 2.000 شخصاً.[287]

### ثانيا: الدار البيضاء

أما الدارالبيضاء، فأصلها هو آنفا، المدينة القديمة ، التي تذكر المصادر حولها أنها لم تكن، في العصر الوسيط، قرية صغيرة، بل كانت مدينة حقيقية بما لها من مدرسة ومسجد وقضاة وأثرياء ومحصلي الضرائب. وقد جعلها ابن فضل الله العمري في المرتبة السابعة من حيث قيمة الضرائب التي تؤديها المدن الكبرى لبيت مال المخزن (40.000 مثقال ذهب ) في نفس المرتبة مع سلا، وقبل طنجة ومليلة. وتحتل المرتبة الثانية بين مدن الموانئ.هذه هي الوضعية التي كانت عليها قبل أن يدمرها أسطول برتغالي سنة 872هـ/1468م ،لأن سكانها، حسب الوزان، كانوا يسلحون في مينائهم الصغير زوارق خفيفة يقومون على متنها بالإتلاف والتخريب في شبه جزيرة قادس، وعلى طول الشواطئ البرتغالية ، لدرجة أن ملك البرتغال جهز حملة عملت على تدمير أنفا.

---

[287] - Néspola, op.cit. pp. 57-59

بقيت أنفا ،منذ ذاك، خربة مهجورة إلى حوالي الربع الثالث من القرن 18م، أي إلى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله العلوي (1757-1790) الذي عرف الاقتصاد المغربي في عهده تفتحا على أوربا والمحيط الأطلسي بصفة عامة. فكان على السلطان لإنجاز هذه المهمة إنشاء أو تجديد موانئ محيطية قادرة على القيام بهذا الدور. فتم بناء ميناء الصويرة سنة 1178هـ/1765م، وتجديد أنفا فيما بين 1769 و 1775م؛ وأمر ببناء مسجد ومدرسة وحمام ومطاحن وأفران وقنطرة على نهر بوسكورة ( شارع عبد المومن والحسن الثاني حاليا )، وزودها بأسلحة ثقيلة وحامية عسكرية، ذكر الناصري أن عددها بلغ ألفين من العبيد [288]، وهو عدد يساوي ما لثغري العدوتين سلا والرباط. ونقل إليها سكانا من إحدى قبائل حاحا وبعض روابض مكناس من أجل تعميرها.

وعقد السلطان معاهدات الصداقة والتجارة مع عدد من الدول الأوروبية، أهمها إسبانيا وفرنسا وهولندا وأنجلترا من أجل تطوير التبادل التجاري ، خاصة مع إسبانيا التي وقعت مع المغرب معاهدتين: سنة 1780 و 1785 تقضيان بتوسيع التبادل التجاري، فخصصت إسبانيا ميناء قادس لاستقبال السفن المغربية، بينما خصص لها السلطان بدوره ميناء الدار البيضاء، فتكونت به شركة إسبانية للتصدير والاستيراد استطاعت أن تُدْخِل ميناء الدار البيضاء إلى محاور التجارة العالمية.

لكن وفاة السلطان سيدي محمد بن عبد الله وضعت حدا لهذا النشاط التجاري، وأصبح مقتصرا على نشاط موسمي أو متقطع مرتبط إلى حد كبير بوضعية الإنتاج الفلاحي بإقليم الشاوية. و لم تستقر الجمارك الدائمة بالميناء إلا في سنة 1836، حيث بدأ يظهر اسم الدار البيضاء في سجلات الجمارك الموجودة بالقنصلية الفرنسية بطنجة.

لكن هذه العودة كانت متواضعة لأن الميناء كان يفتقر إلى التجهيزات والمخازن والأرصفة الكافية والمسيرين وبورجوازية تجارية وساكنة توفر اليد العاملة الضرورية لعمليات

---

[288] - الاستقصا، ج 8 ، ص 61 .

الشحن والإفراغ، إذ لم يكن عدد السكان يتجاوز 700 نسمة بمن فيهم بعض اليهود. وكان الجميع يسكن في الخيام والنوالات.

ورغم أنه ابتداء من 1836 بدأت وضعية الميناء تتحسن بإقامة مستودعات للجمارك، ومنح أراض للتجار لبناء المخازن، وتقاطر بعض يهود الموانئ الأخرى والتجار الأوربيين على المدينة لعقد صفقات تجارية، فإن نشاط الميناء لم يمثل سوى 3% من صادرات البلاد سنة 1836 عبر الموانئ الثمانية المفتوحة في وجه التجارة مع الأجانب ( تطوان، طنجة، العرائش، الرباط، الداراليبضاء، الجديدة، آسفي، الصويرة ) ، و 10 % سنة 1843. ويعود ذلك على الخصوص إلى سياسة المولى عبد الرحمان المتمثلة في الحماية الجمركية واحتكار رواج بعض السلع.

غير أن منتصف القرن 19 كان الانطلاقة الحقيقية والنهائية لميناء الداراليبضاء والمدينة نحو الاقتصاد العالمي بفضل أربعة عوامل حددها جون لوي مييج ( J.L Miège )في[289] :

* تأسيس سوق مهمة لتجارة الصوف؛
* استئناف تصدير الحبوب؛
* إقامة خطوط بحرية بحارية منتظمة ابتداء من سنة 1852 بين المغرب وفرنسا على العموم ومرسيليا والدار البيضاء على الخصوص؛
* عقد معاهدة الصداقة والتجارة مع الإنجليز سنة 1856 التي وضعت حدا لاحتكار التجارة من طرف المخزن، ووحدت واجبات الجمارك في 10% في جميع الموانئ المغربية؛

وقد جاءت هذه العوامل كنتيجة للوضعية الاقتصادية التي أصبحت تعيشها أوربا، أواسط القرن 19، والمتمثلة في الحاجة الماسة للمصانع الأوروبية إلى مادة الصوف الخام التي ارتفعت أثمانها في أوربا، والنقص الحاصل في إنتاج الحبوب بأوربا فيما بين 1848-1853، وإغلاق السوق الروسية للقمح في وجه أوربا الغربية.

---

[289] - J.I. Miège , Les origines du développement de Casablanca au 19 siècles. In Héspéris. XL. 1953.p.199-225.

هكذا، وصلت إلى مرسى الدارالبيضاء 32 باخرة في فبراير 1856، واستقرت بها شركات فرنسية مثل: La compagnie Française de Lodève ، وكذلك الشركة المرسيلية الجديدة: Nicolas Paquet et Cie التي ستلعب دورا رئيسيا في الدارالبيضاء.

ولكي يساير هذا التيار التجاري المتجدد مع تطور السفن التي أصبحت كبيرة وأكثر سرعة وتتطلب نفقات مرتفعة، اضطر التجار إلى البحث عن سلع أوربية لتصريفها في المغرب. وهكذا، فإن أهم الشركات البحرية تعاقدت مع مؤسسات صناعية ومعامل تكرير السكر في مرسيليا ومعامل نسيج القطن في مانشستر، لتزويدها بهذه المواد قصد تصريفها في السوق المغربي، فارتفعت واردات السكر مثلا فيما بين 1869-1909 من 240 طن إلى 12.160 طن، وصلت 30% منها عن طريق ميناء الدارالبيضاء ابتداء من 1894 .

ومن أسباب هذا الاستقطاب للرواج التجاري، تطور السفن إلى بواخر كبيرة وثقيلة، مما أدى إلى نتيجة إيجابية تخص ميناء الدار البيضاء؛ فهذه البواخر كان يعيقها عند دخولها إلى ميناء الرباط حاجز رملي. ولهذا بدأت هذه البواخر تتجه نحو ميناء الدارالبيضاء الذي جر إليه جزءاً مهما من الرواج التجاري لمرسى الرباط، الذي دخل في فترة تقهقر وتراجع.

وعلى العموم، فإن ميناء الدارالبيضاء، بالإضافة إلى ميناء الجديدة، كانا المستفيديْن الأولين من الوضعية الجديدة التي خلقتها العوامل الأربعة السابقة التي ذكرها "مييج" في مقاله السابق. وكان من نتائج ذلك:

* ظهور حركة جديدة للبناء بواسطة الأحجار ، وبالتالي بداية اختفاء الأكواخ والنوالات؛[290]

* تزايد عدد السكان.وعلى العموم وصل عددهم إلى حدود 1912 ، أي غداة عهد الحماية إلى ما يقارب 59.000 نسمة( أوربيين ويهود ومغاربة) بعد أن كان في منتصف القرن 19 حوالي 6.000 نسمة [291]؛

---

[290] - J.I. Miège**, <u>Le Maroc et l'Europe</u>**. T.3 p. 18-21.

[291] - Miège **Ibid.p.16**. et André Adam**, <u>Casablanca</u>**.T.1 p.137-176.

إن تطور نشاط الميناء والمدينة لم يجذب السكان المعوزين فقط، بل جذب كذلك التجار المغاربة من فاس والرباط، اللتين بدأ يميل عنهما اتجاه المبادلات التجارية مع أوربا، فأخذوا يؤسسون بالدار البيضاء فروعا لتجارتهم، أو يُنيبون عنهم وكلاء بالمدينة. ولكن عندما انتظمت العلاقات التجارية بين الدار البيضاء ومرسيليا ولندن، لم يعد التجار المغاربة يتجاهلون المركز الجديد للأعمال، فبدأنا نسمع بالمدينة أسماء جديدة مثل: ابن زاكور، القباج، بنجلون، بنكيران.... الذين كانوا يستقرون بالتناوب في فاس أو الدار البيضاء.

وهكذا، ففي بداية القرن20، كانت الدار البيضاء الصغيرة تتوفر على أكثر عناصر نموها وازدهارها: ميناء، خطوط بحرية بحارية منتظمة، منطقة خلفية غنية، جالية أوربية نشيطة ذات رساميل، تجار مسلمون ويهود، ساكنة في تزايد مستمر توفر اليد العاملة. وطبعا هذه العناصر الأساسية هي التي وجدتها فرنسا عندما بدأت قواتها العسكرية تزحف، انطلاقا من ميناء الدار البيضاء، نحو داخل المغرب لتحتله، وتُدخل البلاد ، ومعها الدارالبيضاء، في مرحلة جديدة من تاريخها.

وعندما فكر المقيم العام الجنيرال "ليوطي" في ميناء كبير، وقع اختياره،أولا، على ميناء الدارالبيضاء ،لأنه كان المؤهل من الناحية التقنية، وأن مجموعة من المصالح الاقتصادية ارتبطت به. وقد وقعت مزايدة بناء وتجهيز الميناء على La compagnie Marocaine سنة 1913. ودُشن سنة 1921 ، بحيث بُني على مساحة 140 هكتار، برصيفين، أحدهما بطول 1900 متر، والآخر بطول 1550متر.

وابتداء من 1912 بدأت تتكون مؤسسات صناعية ذات أهمية في البناء أساسا، مثل: La société des chaux et ciments أو ما يسمى ب " Lafarge " سنة 1913 التي ساهمت في تطوير صناعة البناء. ثم شركة التبغ. وإن جل هذه المؤسسات الصناعية أُحدثت بفضل شركتين مهمتين للاستثمار هما:

* La compagnie Marocaine التي تكونت سنة 1902، يرأسها L'Union Parisienne et de Schneider .

* La compagnie Générale du Maroc التي تأسست سنة 1912 بمبادرة من اتحاد الأبناك الفرنسية تحت إشراف La Banque de Paris et des Pays-Bas .

يظهر أن نشاط ميناء الدارالبيضاء عرف مرحلتين متباينتين:

* المرحلة الأولى 1912-1924 كانت الواردات أكثر من الصادرات.

* المرحلة الثانية 1925 – 1955 أصبحت الصادرات تتفوق من حيث الكم، على الواردات، وذلك بفضل تصدير الفوسفات والمعادن المختلفة والخضر والفواكه [292]. أما من حيث القيمة، فإن الواردات تتفوق، دائما، على الصادرات.[293]

وظهرت سنة 1919 أول باخرة فرنسية مجهزة للصيد البحري في ميناء الدارالبيضاء. وفي سنة 1922 تم تصدير أول كمية من السمك المجمد، وفي 1925 تأسست المعامل الأولى للتمليح والتعليب بالميناء، أصبح عددها خمسة سنة 1929، فبلغت كمية السمك المصطاد في الميناء سنة 1928 ما يساوي 4.450 طن من 6.670 طن من مجموع السمك المصطاد في منطقة الحماية الفرنسية.

وكان من اهتمامات "ليوطي" تأسيس البحرية الشريفة،إذ تأسست في شتنبر 1920 مصلحة التجارة البحرية والصيد البحري، التي نص أحد قوانينها على أن يكون ثلث رجال السفينة من البحارة المغاربة. وأصبح الأسطول التجاري المغربي، سنة 1932، يضم 14 باخرة. وفي سنة 1931 تأسست بالدارالبيضاء " المدرسة المهنية البحرية الإسلامية" و " المدرسة التقنية البحرية".

لقد أصبحت الدارالبيضاء، بفضل مينائها، الساحة المالية للمنطقة الفرنسية، وإن أول بنك أسس بها سنة 1904 كان هو Comptoir National d'Escompte de Paris ، الذي كان له فرع بطنجة سنة 1897 ، ثم توالى تأسيس أبناك أخرى:

- Compagnie Algérienne : 1904
- Le Crédit Foncier d'Algérie et Tunisie : 1904
- La Deutsche Orient Bank Ahtiengesellschift : 1906

---

[292] - **<u>Mémorial du Maroc</u>**. T.6.p.212.

[293] - André Adam, **<u>Casablanca</u>**. T.1 p.291-317.

- La Banque Commerciale du Maroc : 1911
- La Banque Française du Maroc : 1923
- Le Crédit du Maghreb : 1924
- La Banque Foncière du Maroc.

كانت هذه الأبناك تستثمر رؤوس الأموال المجلوبة من الخارج في تكوين شركات متعددة ومتنوعة الأهداف.

وكانت الأعمال التجارية الكبرى كلها تقريبا بيد الأوربيين، يأتي في طليعتهم الفرنسيون:

مثال عن إحصائيات 1931:

| السنة | الفرنسيون | الأوربيون | اليهود المغاربة | المغاربة المسلمون |
|---|---|---|---|---|
| 1931 | 2563 | 1343 | 301 | 153 |

أشارجميع الرحالة الذين وصفوا الدارالبيضاء،في القرن 19 وبداية القرن20، إلى وجود سوق كبير خارج أسوار المدينة أمام الباب الكبير ( ساحة محمد الخامس حاليا ) بالإضافة إلى الجوطية ورحبة بيع الحبوب والقطاني وقاعة الزيوت داخل الأسوار. انتقلت هذه المعالم كلها، في عهد الحماية، إلى المدينة الجديدة، خصوصا درب الأحباس. لقد جاءت فكرة إبعاد المغاربة النازحين عن الحي الأوربي القريب من الميناء، والذي أصبح مركز المدينة، من أحد مديري إدارة الأحباس التي أعيد تنظيمها في عهد الحماية، وهو Biarny لما تبرع أحد اليهود البيضاويين التجار بمساحة مهمة للأحباس، سيُبنى في جزء منها قصر السلطان مولاي يوسف، وفي جزء آخر سيُبنى السكن لموظفي القصر – درب السلطان – ومنه ستتوسع المدينة الجديدة. وبنى حاجب السلطان، التهامي اعبابو، في جزء ثالث حيا صغيرا يسمى اليوم درب الحاجب. أما الجزء الرابع فقد عهد به مصمم المدينة Prost إلى المهندسين Cadet و Brion لبناء حي آخر هو ما يعرف بدرب الحبوس، سكنته مجموعة من المهاجرين الفاسيين والتجار الفاسيين كذلك، ضم كل مرافق الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والتجارية إلى أن أصبح هذا الحي مركز الدارالبيضاء المسلمة.

إن توسيع المدينة في حي الأحباس كان على طول جنبات الطريق القريبة منه، وهو طريق مراكش أو طريق مديونة، التي استقرت بها بعد 1907 بعض الفنادق والمستودعات ومعامل صغيرة وحوانيت ومحطة للمسافرين- كراج علال- القادمين من البلاد الخلفية للمدينة ومن مختلف المناطق المغربية.

وفي سنة 1920، قررت السلطة البلدية الفرنسية نقل بعض السكان الذين تسربوا إلى الحي الأوربي إلى مكان فارغ بالمدينة الجديدة، وإسكانهم فيه بالكراء. هذا الحي هو الذي سيحمل اسم درب البلدية، الذي سيتوسع قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها، وستزوده المصالح البلدية بالمرافق الضرورية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن هذه المصالح البلدية ستشيد عدة أحياء في المدينة الجديدة لإيواء سكان النوالات والبراريك؛ وهكذا ستظهر أحياء جديدة، مثل: درب السبانيول(1928) ، درب كريكوان، لقريعة، كرلوتي، اليهودي،(28–1939 )، درب الشرفا(1930) درب الطلبا(1932) درب بوشنتوف(1936) درب الكبير(35–1936) درب الفاسي(1937) درب العفو(1930) درب مارتيني(1941) . وكل هذه الأحياء تقع غرب طريق مديونة، لأن حي لاجيروند La Gironde الفرنسي شرقا كان يقف عرقلة أمام توسع المدينة الجديدة شرق الدارالبيضاء.

أما أحياء الصفيح، فهي تحمل، في المجتمع البيضاوي، اسم كريان، لأن العمال الذين ساهموا في بناء محطة توليد الكهرباء الحرارية بنوا براريك للسكنى في مكان مقلع للأحجار، أي carrièreوكانوا يستعملون في ذلك صناديق الصفيح التي يستعملها الفرنسيون، ومن ثم انتشرت الظاهرة.

وقد تطور حي الصفيح ب carrière centrale على الشكل التالي:1925 : كانت به 300 براكة.,1939: أصبحت به 4.000 براكة؛ فيها 200 حانوت و5 أفران.

وظهرت أحياء صفيح أخرى، مثل كريان بنمسيك، كريان البشير، كريان المصطفى...الخ حتى أصبح عدد هذه الأحياء سنة 1950 ثمانية ضمت حوالي 13.250 براكة بساكنة قُدر عددها في 48.834 نسمة، معظمها جاء إلى الدارالبيضاء من البوادي الجنوبية على إثر الجفاف وانعدام المحصول الزراعي سنة 1945، أو لأن الدارالبيضاء أصبحت بفضل نمو نشاط

مينائها ، وتزايد أهمية منطقتها الصناعية، تستقطب اليد العاملة. غير أن الأعداد المتوافدة على المدينة كانت تتجاوز إمكانيات العمل المعروضة.

ففي سنة 1912 ، لم تكن بالدارالبيضاء صناعة ماعدا الحرف التقليدية، فالمؤسسة الصناعية العصرية الوحيدة التي كانت بالمدينة هي L'Usine du grand socco ، والمصانع الأولى التي أنشئت بالمدينة كان هدفها تلبية متطلبات الأوربيين في التغذية والبناء. وهكذا، تأسست بالمدينة:

- société des chaux et ciments : 1913
- Brasserie du Maroc :1919
- Les Ateliers de construction Schwartz Hautmont :1922
- La Chimie industrielle :1923
- La Compagnie des Superphosphates et produits chimiques :1923
- Les Conserves de toute sorte :1927-1929
- La Compagnie Sucrière Marocaines, les Huileries et Savonneries du Maroc, et la Société Africaine de Filature et Tissage : 1929 .

الواقع، إن تاريخ الميناءين: القنيطرة والدار البيضاء لن يتوقف عند هذا الحد أو هذا التاريخ، لأن الانطلاقة الحقيقية لهما ستكون على إثر قيام الحرب العالمية الثانية ابتداء من 1939، وما تلاها من تطورات كبيرة إلى حدود حصول المغرب على استقلاله.

وإذا توقفنا بالبحث عند هذا المستوى من التاريخ أو التطور، يمكن مع ذلك أن نستخلص بعض أهم الخلاصات أو الملاحظات الأساسية حول ما بحثنا فيه، منها:

1- لم تُخلق هذه الموانئ من فراغ، بل كانت موجودة، ولها تاريخ بحري وتجاري وحضري مهم في تاريخ المغرب.وإن ميناء الدار البيضاء مثلا عرف انطلاقته الحديثة منذ منتصف القرن 19م؛

2- كان اختيار هذين الميناءين من طرف المستعمر لعدة أسباب أو عوامل إيجابية ؛ متشابهة فيما بينهما من جهة، ومن جهة أخرى، تميزهما عن باقي الموانئ أو المرافئ الموجودة آنذاك.منها:

أ- وجود بلاد خلفية غنية بمواردها الفلاحية، وهي سهول الغرب والشاوية بفضل انبساطها وشساعتها وخصوبتها؛

ب- منافذ أساسية نحو الأقاليم الداخلية الغنية هي الأخرى بمواردها الغابوية والمعدنية وكذلك الفلاحية؛

ج- سهولة التنقل والتواصل، إذ تُعد من أقرب المراكز البحرية إلى أوربا عموما وفرنسا على الخصوص؛

د- وجود طاقة بشرية ستساهم في توفير يد عاملة غير مكلفة.

3- وإذا ساهمت هذه الموانئ/المدن في خلق طبقة عمالية جديدة وواسعة، فإنها تكون قد ساهمت، بطريقة غير مباشرة، في خلق فئة واسعة من المعارضة للاستعمار والاستغلال، وبالتالي في خلق عنصر جديد من المقاومين للاستعمار، ومن رجال الحركة الوطنية، الذين سيعملون إلى جانب كافة الشعب المغربي على استرجاع استقلال البلاد.

4- ساهمت ظروف الحرب العالمية، خاصة الثانية، في تطوير نشاط الميناءين، إذ أن التطورات الإيجابية في نشاطهما، خلال العقد الرابع من القرن20م كانت تسعى جاهدة إلى تزويد وتموين فرنسا بالمقومات البشرية( العمال والجنود ) والاقتصادية ( الحبوب، الماشية أو اللحوم،الصوف، الدواب، المعادن....) التي كانت في أشد الحاجة إليها من أجل تطوير قدراتها العسكرية والاقتصادية لمواجهة المد النازي والفاشستي والفرانكاوي؛

5- فتحت هذه الموانئ الباب واسعا لرؤوس الأموال الأوربية الضخمة وللمضاربين، خاصة في العقار، فظهرت أحياء جديدة في المدن المغربية، خاصة القنيطرة والدار البيضاء، تحمل أسماءهم المعنوية أو الذاتية؛

6- ستصبح هذه الموانئ مراكز جديدة سيستقر فيها التجار المغاربة الكبار الذين كانوا يستقرون، من قبل، في الحواضر التقليدية الداخلية، خاصة فاس ومراكش ومكناس، مما أعطى دفعة قوية لحركة المقاومة والنضال السياسي المناهضة للاستعمار؛

7- وإذا كانت ظاهرة الخيام والنوالات من المظاهر المميزة للسكن المغربي قبل عهد الحماية، فإن بناء هذه الموانئ، مع عهد الحماية، وما أدى إليه من تدفق للهجرات البدوية بحثا عن العمل، أعطى ظاهرة سكنية أفدح هي الأحياء الصفيحية التي لازال المغرب يعاني منها إلى اليوم.

# الرواج النقدي وإشكاليته في عهد السلطان مولاي يوسف

محمد الناصري

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – القنيطرة

**تقديم:**

إن الفترة التاريخية التي يتضمنها هذا الموضوع هي جزء من المرحلة الرابعة من تطور تاريخ النقود بالمغرب، حسب تقسيم بعض الدارسين[294]، وهذه المرحلة تحتوي فترتين:

فالأولى تبدأ من مؤتمر الجزيرة إلى عقد الحماية الفرنسية على المغرب وقيام الحرب العالمية في 1914. والثانية تنطلق من 1914 إلى بداية الاستقلال.

وسوف نستعرض في هذه المداخلة لأهم فترة في هذه المرحلة، لأن الرواج النقدي بالمغرب عرف تطورات مهمة ابتداء من عقد الحماية في 1912، حيث سيصبح الفرنك الفرنسي عملة رسمية إلى جانب "الحسني" العملة المحلية؛ وهذه الازدواجية النقدية ستكون دائما لصالح الفرنك كلما توالت الأزمات النقدية بالمغرب، والتي ستعصف بهذه الازدواجية، وذلك من خلال إصلاح جذري سيمكّن مغرب الحماية الفرنسية من عملة جديدة، أطلق عليها اسم "الفرنك".

وهذا الفرنك المغربي سيكون موحدا مع الفرنك الفرنسي، كما سيتمتع بالسعر القانوني والقوة الإبرائية، مع حق الانفراد بالرواج في المغرب.

لقد كان الرواج النقدي الشغل الشاغل لسلطات الحماية منذ مجيئها إلى المغرب، فقد جاء في تقرير إلى الجمعية الوطنية الفرنسية حول عقد الحماية، في الفقرة المتعلقة بتأسيس

---

[294] - Félix NATAF, « Le crédit et la banque du Maroc », Paris, 1929, p.9

المالية للحماية الفرنسية على المغرب، في ماي 1912 : «... أن مسألة الصرف سوف تكون من المسائل المهمة في التجارة التي يجب حلها».

فالبعض يرى أن الحل يكمن في المساواة بين الفرنك والبسيطة الحسنية، والبعض الآخر يرى بأن الاستقرار المالي في أن يستقر سعر الفرنك على 125 بسيطة حسنية المعمول بها اليوم، إلا أن النشاط التجاري يفترض في أن يرتفع هذا السعر إلى 150.

غير أن هذه الآراء تبدو متباينة فيما يخص الإجراءات التي يجب اتباعها لتحقيق استقرار الصرف: هل يتم نهج الإصلاح الذي طُبِّق في الهند، أي توحيد العملة ؟ أم العمل بالحلول التي استُعملت في تونس ؟ أم البحث عن خلق عملة ذهبية ؟

المهم أنه على المديرية العامة للمالية أن تواجه في أسرع وقت ممكن هذه المسألة الخطيرة»[295].

وإذا كانت هذه هي آراء رجال الحماية الأوائل حول مستقبل الصرف بالمغرب في ظل الحماية الفرنسية، والذي وصفوه بأنه «مسألة خطيرة» يجب حلها بسرعة. فإلى أي حد انطبقت هذه الآراء على الواقع ؟

إننا في الحقيقة أمام إشكالية؛ والتي سوف نلخصها في ثلاثة أسئلة: كيف كانت الحالة النقدية في المغرب عشية مجيء الحماية ؟ ما هي التطورات التي عرفها الرواج النقدي قبل الإصلاح الذي جاءت به الحماية ؟ وما هو الحل الذي عرفته هذه "المسألة الخطيرة" ؟

لمعالجة هذه الإشكالية، سوف تكون الإجابة على هذه الأسئلة الرئيسية الثلاثة بالتتالي:

### أولا : النقود المتداولة بالمغرب عشية الحماية

لقد كانت العملة المغربية "الحسني"، هي العملة الوطنية بالبلاد، التي سكّها السلطان مولاي الحسن سنة 1881، إلا أن الانهيار الكبير لهذه النقود في سنة 1902، بسبب الاضطرابات من جراء التدخل الأوروبي، وانتشار العملات الأجنبية بكميات كبيرة، فقد عُهِدَ للبنك المخزني الذي أنشأ في 27 فبراير 1907 بمهمة إصلاح الوضع النقدي بالمغرب. وبعد قيام الحماية وتدفق

---

[295] - Bulletin du Comité de l'Afrique Française ; n° 8, Août , 1912, p.323.

الفرنسيين على المغرب، وازدياد التبادل التجاري مع فرنسا، اختفت العملة الإسبانية من منطقة الحماية الفرنسية، و لم يعد فيها سوى العملتين المغربية والفرنسية.

1- النقود المغربية : منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عرف النظام النقدي المغربي عدة اختلالات أدت إلى اضطراب داخلي كبير، رغم بعض المحاولات الإصلاحية. إلا أن أهم محاولة إصلاحية كانت سنة 1881. وهي العملية التي أنهت النظام النقدي القديم الذي كان مبنيا حتى ذلك الحين على المقاييس والأوزان الشرعية. أما الإصلاح الجديد فقد تم على النمط الإسباني — الذي ينتمي للاتحاد اللاتيني – ذلك أن السلطان مولاي الحسن أخذ في الحسبان عملة "البسيطة"، ومن هنا جاء إسم العملة الجديدة، حيث أُطلق عليها إسم "الحسني" أو "البسيطة الحسنية" نسبة إلى السلطان مولاي الحسن. وهي عملة فضية ضُربت على أساس "الدورو" الإسباني، وتزن 116،29 غرام، بخلاف "الدورو" أو "الريال" الذي يزن 25 غرام، وتتكون من :

الدورو أو الريال، ونصف الريال .................. من عيار ° 1000/ 900

ربع الريال أو الرباعة، وعُشُر

الريال أو الدرهم، و1/20 من الريال

أو البليون، أو القرش ................................ من عيار ° 1000/ 835

والريال الحسني يتكون من 5 بساسيطْ، كالدورو الإسباني، غير أن البسيطة الحسنية لم تكن موجودة، فقد كانت عملة حسابية فقط .

هذه المحاولة الإصلاحية فشلت تماما، إذ أصبحت البسيطة الحسنية مماثلة للإسبانية، أي تُعطى لها نفس القيمة، رغم أنِ وزنها كان أعلى من الإسبانية. أما محاولة الإصلاح العزيزية التي نقصتْ من وزن الحسني الذي أصبح مساويا للريال الإسباني، أي 25 غرام، عوض 29؛ فبدورها انخفضت على غرار سابقتها. وقد قُدِّر انهيار العملة المغربية سنة 1902 بـــ: 37 ٪ .

أما النقود النحاسية فقد استمرت، و لم تعرف أي تغيير إلى غاية 1903؛ ففي هذه السنة سكَّ مولاي عبد العزيز بأوروبا نقودا نحاسية جديدة، كمحاولة للحدِّ من خطر انخفاض العملة، وهذه القطع كانت من النوع العُشري، حُدِّدت في: 1، 2، 10،5 موزونات. وفي 1911

ضرب مولاي عبد الحفيظ سكة جديدة، ولكن بقي الدورو بـ: 25 غرام كما سكّه من قبل مولاي عبد العزيز، ونفس الشيء بالنسبة لعملة مولاي يوسف، إذ بقي الحسني على ما كان عليه.

لقد بــدا بوضوح لأوساط الأعمال الأجنبية المستقرة في المغرب مع بداية القرن، التي كانت تتأثر بتفاعلات هذا الانهيار والتقلبات التي عرفتها العملة المغربية، أن إصلاحاً نقديا داخلياً لن يكون هو الحل الناجع للحفاظ على مصالحهم؛ وبعبارة أخرى، فإن السيادة النقدية للمغرب كانت تُعارض من الخارج.

# النقود الحسنية

- الحسني: استعمل المغاربة هذه الكلمة للدلالة على ريال الحسني أي قطعة عشرة دراهم وبات يطلق السكة التي ضربها مولاي الحسن ورغم إطلاق اسم العزيزي أو الحفيظي أو اليوسفي على سكة مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ ومولاي يوسف فقد ظل الحسني يطلق على جميع أنواع السكة إلى العقد الثاني من القرن 20.

- الدورو (DURO): كلمة إسبانية تدل في الاستعمال الإسباني على البليون وهو جزء من عشرين جزءا من الريال فالريال يساوي 20 بليونا. لكن المغاربة استعملوا الدورو مرادفا للريال دون تمييز بينهما. ونتيجة لهذا الخلط في الاستعمال حرم الأسبان [illegible] عند كتابة عقد [illegible] حرب تطوان 1860 وبذلك تم [illegible] أن عشرين مليون دورو هي في الحقيقة مليون ريال.

- الريال (REAL): لفظ إسباني، ومعناه ملكي، وقد اشتق [illegible] من العملة الإسبانية [illegible]. إذ كان الريال الإسباني يعرف بالريال الكبير، ويساوي 8 [illegible]، كما استعمل المغاربة الريال الفرنسي الذي كان يعرف بالريال [illegible] أو ريال [illegible] ويساوي 5 فرنكات. وقد أطلق الريال على قطعة [illegible] التي ضرب عام [illegible] بباريس [illegible]، وكانت تزن [illegible] غ [illegible] 25 غ التي [illegible] الريال الفرنسي والإسباني [illegible] 1866 [illegible]. واستعملت كلمة الريال الحسني والعزيزي والحفيظي واليوسفي، ولا زال الريال إلى اليوم يطلق في المغرب على قطعة 5 سنتيمات.

- البسيطة (PESETA): جمعها بسيطات، وهي عملة إسبانية تكون خمس الريال الإسباني، وقد [illegible] الكلمة المغربية [illegible] 1880 [illegible] البسيطة الحسنية، والبسيطة الحسنية عملة [illegible] نصف درهمين [illegible] وبيانا على البسيطة الإسبانية.



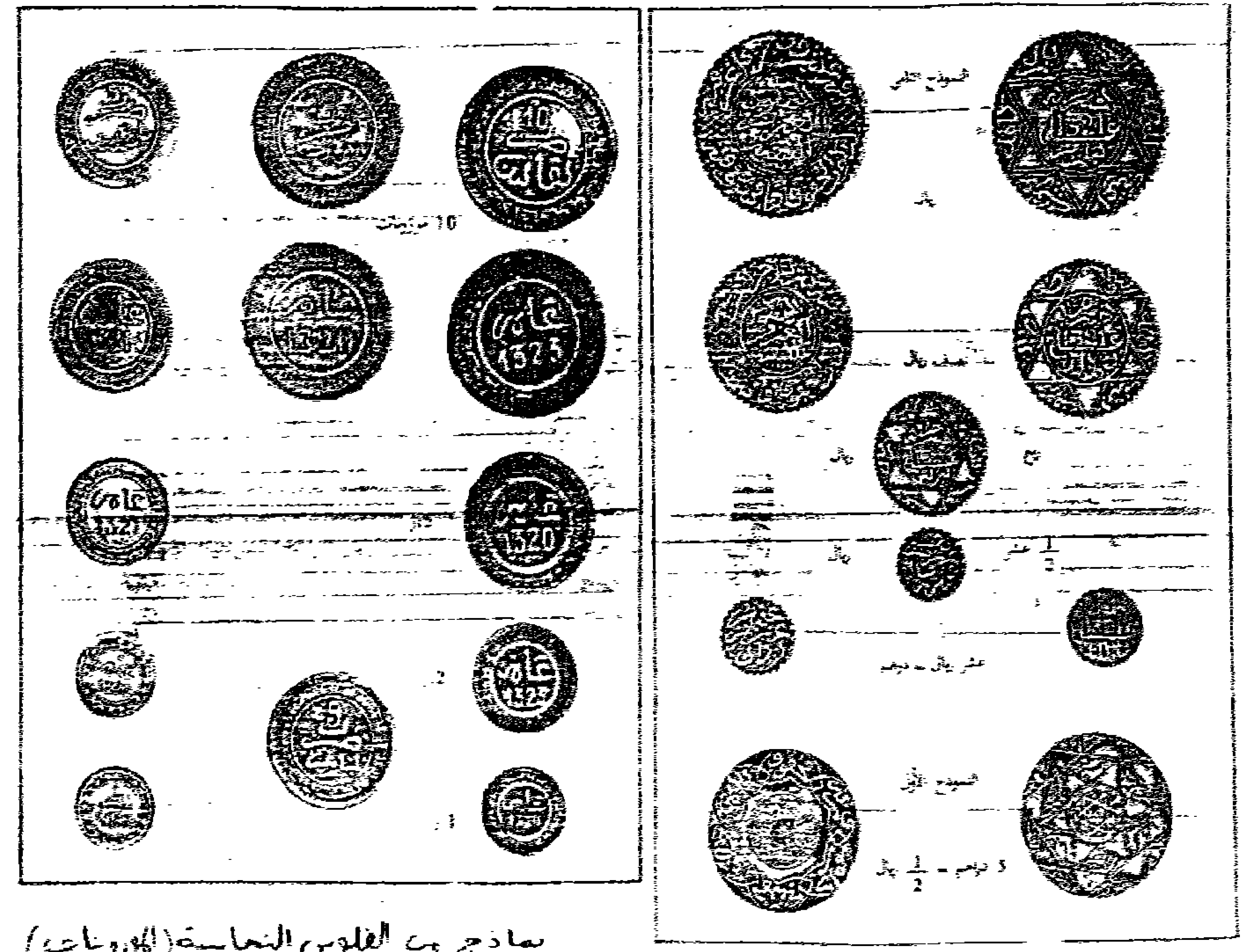

ريال — نصف ريال — ربع ريال — [illegible] — نصف درهم

أشكال قطع النقود الحسنية كما رسمها المهندس المغربي

قطع النقود الحسنية الحسني بعد تصنيعها بباريس

المرجع: عمر أفا، مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر، الدار البيضاء، 1988، ص 75-76.

# النقود العزيزية



نماذج من الفلوس النحاسية (البرونات) التي أصدرها مولاي عبد العزيز في 1902-1903 وقد سكت في أوربا

النقود العزيزية التي نقص وزنها عن النقود الحسنية إذ أصبح الريال العزيزي يزن 25 غرام عوض [illegible] الريال الحسني [illegible]

المرجع: عمر أفا: «مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر..»، الدار البيضاء، 1988، ص 215 و 253

فالقوى المجتمعة في الجزيرة، ستُكرّس طموحات هذه الأوساط، التي طالبت بخلق بنك للدولة المغربية، ذو طابع خاص، ويتمتع بحق إصدار العملة.

وهو الامتياز الذي اعتُرِف به لهذا البنك منذ إنشائه، وسيستعمل هذا الامتياز ابتداء من سنة 1910، إذ أصدر أوراقاً نقدية من فئة 20 ريالٌ بمبلغ 10.600.000، إلا أن استعمالها ظل ضعيفا، إذ لم تُستعمل منها سنة 1914 إلا 40٪ ، نظراً لمبلغها المرتفع، كما أن المغاربة والأجانب كانوا ينفرون منها، ويهتمون فقط بعملة الحسني المعدنية، وبالعملات الأجنبية.

والجدير بالذكر أن فرنسا، قبل وبعد توقيع عقد الحماية كانت تشجع كثيرا، المغاربة والأوربيين على استعمال عملتها، وذلك عن طريق دفع مرتبات جنود الاحتلال بالعملة الفرنسية، وبإدخال أوراق نقدية إلى المغرب يُصدرها بنك الجزائر، رغم مساهمتها الكبيرة في بنك الدولة.

أما بعد عقد الحماية، فقد أصبحت العملة الفرنسية سواء منها الصادرة عن بنك باريس أو بنك الجزائر عملة رسمية، وقد أنشأ هذا الأخير فرعا له بالمغرب منذ 1912.

2- النقود الأجنبية : أصبحت النقود الإسبانية والفرنسية متداولة في المغرب منذ القرن التاسع عشر، وقد استمر رواجها رغم إنشاء بنك الدولة.

أ – العملة الإسبانية : وتسمى بـ"البسيطة" (PESETA) التي تكوِّن خُمس "الريال" (REAL) أو "الدورو" (DURO) وكانت هذه العملة تروج بالمغرب قبل القرن التاسع عشر، حيث وقع القبول الرسمي لهذه العملة في المعاهدة التي عقدها السلطان مولاي سليمان مع إسبانيا سنة 1799، واستمرت متداولة بالمغرب إلى سنة 1845، عندما قُبلت رسميا العملة الفرنسية، وحلّت محلها من حيث قوة الرواج حتى سنة 1881، عندما قام مولاي الحسن بالإصلاح النقدي، فاستعادت العملة الإسبانية قوة رواجها، بعد أن تم على أساسها ضرب السكة الحسنية. فظلت العملتان أساسا للصرف في المغرب منذ ذلك الوقت حتى مطلع القرن العشرين، لينحصر رواج العملة الإسبانية في منطقة الحماية الإسبانية ومنطقة طنجة الدولية، خاصة بعد المعاهدة الفرنسية – الإسبانية في 27 نونبر 1912 ؛ ذلك أنه ابتداء من 1914 سيضعف تداول النقود الإسبانية بالمنطقة الفرنسية.

وقد أجْرت المركزية العامة للمالية الفرنسية بحثا في الموضوع، يوم 25 يوليوز 1914، فأعطى النتائج التالية للتوزيع النقدي بالمغرب [296] :

| المنطقة | العملة الفرنسية | العملة الحسنية | العملة الإسبانية |
|---|---|---|---|
| المنطقة الإسبانية | 35.913 | 771.305 | 228.507 |
| منطقة طنجة | 2.038.381 | 4.311.919 | 580.277 |
| المنطقة الفرنسية | 39.627.841 | 24.731.438 | 76.687 |
| المجموع ....... | **41.702.185** | **29.804.762** | **885.391** |

ب-العملة الفرنسية : رغم إنشاء بنك الدولة، فقد استمر تداول العملة الفرنسية بالمغرب، بل تزايد رواجها إلى جانب الحسني.

وقد تأخر مجيء العملة الفرنسية بالمغرب عن العملة الإسبانية. وعندما ستُصبح فرنسا كإسبانيا مجاورة للمغرب، من جهته الشرقية، سيغزو الفرنك الفرنسي السوق المغربية. وقد أصبحت قطعة 5 فرنكات الفرنسية، أي الريال (الفرنسي أو الجزائري)، تروج بالمغرب بصفة رسمية منذ 1945، خاصة بعدما اتخذ المخزن الريال الفرنسي – الذي كان معروفا بالريال الصغير أو ريال فرنصيص – كوحدة أساسية في الصرف بالمغرب، ما بين 1863 و 1881، ليتخلى عنه بعد ذلك، ويعود إلى الريال الإسباني من جديد. ومع ذلك استمرت العملة الفرنسية متداولة في المغرب، وسيزداد رواجها بعد أن تدخلت فرنسا عسكريا بالمغرب ابتداء من سنة 1907. مما أدى إلى تزايد انتشار رواج النقود الفرنسية بهذا الأخير، حيث أصبح الفرنك الجزائري يروج بالمغرب الشرقي والفرنك الفرنسي بمنطقة الشاوية، وقد لعب الجنود الفرنسيون دورا كبيرا في هذا الرواج، إلا أن ذلك لم يكن ليتعدى المناطق المحتلة.

---

296 - André J. MARTY, « Le Franc Marocain Monnaie Satellite », Paris, 1951, p. 88.

وانطلاقا من 1911، فإن احتلال فاس، وبداية عمليات "التهدئة"، كان بداية لتزايد وسرعة انتشار رواج الفرنك الفرنسي بالمغرب، وتزايد هذا الرواج كان يسير بموازاة عمليات "التهدئة"، لأن جنود الاحتلال كانوا يتقاضون رواتبهم بالفرنك، فعملوا بفعالية على ترويجه، من خلال اقتناء مشترياتهم بالفرنك من التجار المغاربة.

وهكذا، فبالإضافة إلى دورهم في تركيز سلطة الحماية، كانوا في نفس الوقت أداة فعالة في تثبيت رواج العملة الفرنسية بالمغرب، وبذلك تضاعف العمل الذي كان يقوم به بنك الجزائر بطريقة غير مباشرة.

## ثانيا: إشكالية النظام النقدي بالمغرب في ظل الحماية قبل 1920

بإبرام عهد الحماية الفرنسية على المغرب سنة 1912، أصبح للفرنك الفرنسي مكانة مرموقة في السوق المغربية بفضل مجهودات بنك الجزائر، الذي عمل المستحيل من أجل توسيع نشاطه بالمغرب. وهكذا أصبح الفرنك عملة رسمية إلى جانب الحسني، إلا أن هذه الازدواجية النقدية أدت إلى عدة صراعات – إن صحَّ التعبير – بين الفرنك والحسني، انتهت بتنحية هذا الأخير، لينفرد الفرنك مؤقتا بالسوق المغربية.

### 1- استحواذ العملة الفرنسية على السوق المغربية:

لقد عرف رواج العملة الفرنسية بالمغرب تطورا مهما، خاصة بعد عقد الحماية. ورغم امتياز بنك الدولة بمقتضى عقد الجزيرة، فإن بنك الجزائر نافسه؛ بل حاول ابتلاعه، والسيطرة على سوق الصرف المغربية.

إن غزو السوق المغربية استأثر باهتمام البنك الجزائري، فقانون 5 يوليوز 1900، خوَّل لهذا الأخير إنشاء مؤسسات، وإصدار أوراق نقدية في المستعمرات ومناطق الحماية الفرنسية بإفريقيا.

وإذا كان فرض الحماية الفرنسية على المغرب بعد ذلك لم يكن سوى مسألة وقت، فالتفكير كان في تعارض المصالح التي سيخلقها نظام الحماية مع بنك الدولة؛ إذ أصبح مسيرو

بنك الجزائر، وبعض مسؤولي الحكومة الفرنسية يفكرون في الاستحواذ على بنك الدولة. لذلك صدر قانون في 29 دجنبر 1911، يبيِّن شروط إحدى الوكالات التابعة للبنك الجزائري في البلدان الأجنبية. وبعد حوالي شهرين من هذا التاريخ، تقدم البنك الجزائري بطلب لوزير المالية الفرنسي، ليسمح له بإحداث وكالات بنكية في المغرب، إلا أن هذا الطلب، لم يلق أي جواب رسمي، نظرا لتعثر فرض الحماية الفرنسية على المغرب، بسبب الظروف الدولية المعقدة.

وإحداث فروع للبنك الجزائري بالمغرب كان سيثير معارضة بعض الدول الموقعة على عقد الجزيرة. وأمام هذه الصعوبات عمد البنك الجزائري إلى المشاركة بجدية في تأسيس "البنك الجزائري – التونسي للتصدير".

وهكذا، وبدعم من بنك الجزائر تمركز "البنك الجزائري- التونسي" خلال سنوات 1913، 1914 و 1915 في كل من طنجة، وجدة، الدار البيضاء، الرباط، مكناس وفاس. وقد عمل هذا الأخير بنشاط على ترويج الفرنك الجزائري بالمغرب.

ومع ذلك، فقد ساهمت ظروف خاصة إلى جانب مجهودات البنك الجزائري- التونسي في الرواج الكبير للفرنك الجزائري بالمغرب.

ذلك أنه ابتداء من شهر فبراير 1914، أصبحت جميع قوات الاحتلال الفرنسية بالمغرب تتقاضى رواتبها بالعملة الجزائرية، كما أنه منذ 1912 طلب وزير المالية الفرنسي من زميله وزير الخارجية أن تستعمل الخزينة الفرنسية حسابها بالبنك الجزائري لتأدية مصاريف جنود الاحتلال في المغرب بالعملة الجزائرية؛ غير أن الموافقة على هذا الطلب تأخرت إلى 23 يناير 1914.

وقد أجري بحث بإشراف مدير المالية حول توزيع تداول العملات الرائجة بالمغرب (الحسني، البسيطة الإسبانية والفرنك الفرنسي)، كما شمل البحث أيضا توزيع نوع العملة الفرنسية فأظهرت النتائج تفوقاً واضحاً لرواج الفرنك الجزائري على الفرنك الفرنسي [297].

---

[297] - André J. MARTY, « Le Franc Marocain Monnais Satellite », Paris, 1951, p. 89.

| المنطقة | الأوراق النقدية الفرنسية | الأوراق النقدية الجزائرية |
|---|---|---|
| المنطقة الإسبانية | 6.650 | 10.340 |
| طنجة | 90.250 | 1.058.240 |
| المنطقة الفرنسية | 8.056.500 | 18.462.140 |
| المجموع................ | 8.153.450 | 19.530.720 |

2- مسألة الصرف وإقصاء الحسني:

لقد كانت بداية الحرب العالمية في 1914، سببا في الخلل الذي أصاب الفرنك الفرنسي، مما سيفسح المجال للمزيد من تدفق الفرنك الجزائري على المغرب، خاصة بعد ارتفاع سعر البسيطة الحسنية بسبب ندرة الفضة وارتفاع سعرها.

لذلك فإن سنة 1914 ستُسجَّل فيها أول أزمة نقدية يعرفها المغرب في ظل الحماية الفرنسية. وهذه الأزمة، وإن كانت خفيفة بالمقارنة مع الأزمتين اللاحقتين، فإنها ستكون لصالح الفرنك الذي سيصبح عملة رسمية بالمغرب ابتداءً من هذا التاريخ.

ذلك أن الأبناك الفرنسية بالمغرب كانت تستعمل مدخراتها من الفرنك لتسوية الديون مع الميتروبول ولا تحتفظ في خزائنها إلا بالضروري من أجل الحسابات الجارية، غير أن المدَّخرون بالمغرب أصابهم الخوف والهلع في 1914 الناتج عن الخلل في قيمة الفرنك[298] ومستقبل العملة الفرنسية بصفة عامة، فتهافتوا على الأبناك لسحب أموالهم واستبدالها بالحسني الذي ارتفع سعره نظراً لقيمته الذاتية.

[298]- يرجع خلل قيمة الفرنك إلى توقف فرنسا في هذه السنة 1914 عن استبدال النقود بقيمتها ذهبا في الأبناك كما كان جاري به العمل من قبل؛ إذ كانت الأوراق النقدية تُستبدل أو تُصرف في البنك بقيمتها الأصلية 100٪، ثم مع توالي السنين نقصت قيمة الورقة البنكية حوالي 20٪، ثم 35٪، وأخيرا في 1914 توقف صرف الورقة النقدية (الفرنك) بالذهب؛ فتهافت الناس بالمغرب على استبدال الفرنك بالفضة، أي بالعملة المغربية "الحسني".

ففي 2 غشت 1914 أخبر مدراء أبناك الدار البيضاء المدير العام للمالية، بأن الطلبات تفوق المدخرات، وأنهم سيضطرون لإغلاق أبوابهم.

وللتغلب على هذه الأزمة المفاجئة والحد من خطرها، اتخذت سلطات الحماية عدة إجراءات استعجالية:

1) بما أن بنك الدولة كانت حالته في وضعية متشابهة للأبناك الأخرى، و لم يكن بإمكانه مساعدة هذه الأخيرة، فقد قام بنك الجزائربواسطة البنك الجزائري- التونسي بتقديم السيولة اللازمة لأبناك المغرب لمواجهة سحب المدخرات؛

2) ولتفادي المضاربة في العُملات الرائجة بالمغرب، صدر ظهير في 4 غشت 1914 والمُتمِّم بظهير 7 دجنبر 1915، ينص على عقوبات صارمة (الغرامة والسجن) في حق كل مضارب في العملة؛

3) أخيرا، لتفادي طلبات مالكي النقود الفرنسية لاستبدالها بالبسيطة الحسنية، صدر ظهير 4 غشت يخوِّل القوة الإبرائية للعملة الفرنسية، سواء كان مصدرها بنك فرنسا أو بنك الجزائر، أي أنه أصبح يروج رسميا في المغرب عملتان: العملة المغربية المعروفة بـ"الحسني" الممَثّلة خصوصا بالنقود المعدنية الفضية المتنوعة (الحسني، العزيزي، الحفيظي واليوسفي)، بالإضافة إلى الأوراق النقدية لبنك الدولة؛ والعملة الفرنسية المُمَثّلة بمختلف النقود المعدنية والأوراق النقدية الفرنسية، إضافة إلى الأوراق النقدية لبنك الجزائر.

وهكذا يبدو من هذا الإجراء أن رواج العملة الفرنسية بالمغرب لم يلق الدعم الرسمي إلا ابتداء من 4 غشت 1914، وكأن مسؤولي الحماية بالمغرب كانوا ينتظرون الظروف الملائمة لكي يُتخذ هذا الإجراء !

ذلك أن القوى المحايدة أو الحليفة لفرنسا لم تكن لتعارض هذه السياسة النقدية الفرنسية بالمغرب، نظراً لانشغالها بأحداث الحرب العالمية.

كما أن هذه الدول لم تُبد أي احتجاج من قبل، عندما تزايد انتشار رواج العملة الفرنسية بالمغرب، مما يؤكد أن هذه الدول كانت تنظر بعين الرِّضا إلى السياسة النقدية الفرنسية

في المغرب؛ إذ لم يكن الرواج الكبير للنقد الفرنسي بالمغرب ليطرح أي مشكل اقتصادي لهذه الدول، بل على العكس من ذلك كانت له نتائج إيجابية مادام الحسني غير مستقر.

ففي الصيف كان الإقبال على "البسيطة الحسنية" شديدا لدفع ثمن المحاصيل، فترتفع قيمته، ثم تعود الأمور إلى عادتها الطبيعية بعد ذلك، وحتى سنة 1916، كان سعر العملتين بالمغرب في الأحوال العادية 125 بسيطة حسنية مقابل 100 فرنك.

إن الهدف من الإجراءات السالفة الذكر التي اتخذتها سلطات الحماية لتطويق الأزمة النقدية هو إعادة التحكم نسبياً في الاقتصاد المغربي بسبب ارتفاع الصادرات اتجاه فرنسا إبّان الحرب العالمية، ومن ثمّ فإن الفرنك سيكون صرفه سلبياً بالمقارنة مع العملة المغربية، والحماية الفرنسية لم تكن لتقبل بتفوق الحسني على الفرنك.

**أ – أزمة 1917** : لقد ساهمت ظروف جديدة في ارتفاع سعر الحسني: فالميزان التجاري المغربي سيعرف تحسُّناً في الصادرات بسبب إقدام الإدارة الفرنسية على الرّفع من مشترياتها المغربية، كما أن ارتفاع ثمن الفضة، التي قلّ معدنها وكثُر الطلب عليها أدّى إلى ارتفاع سعر الحسني[299]؛ فاضطرت الإدارة الفرنسية إلى تحديد سعر الصرف في 124 بسيطة حسنية مقابل 100 فرنك.

ومع ذلك ففي صيف 1917 اقتربت البسيطة الحسنية من الفرنك تبعاً للتقلب العام لسوق العملات الفضية، واستفحلت الأزمة أكثر عندما قررت المكسيك أمام تصاعد سعر الفضة[300] إغلاق سوقها الذي يعتبر أكبر مُصدِّرٍ للفضة الخام. وقد تأثر المغرب مباشرة بذلك، حيث ازداد

---

[299]- في 1907 كان سعر الحسني ما بين 168 و147 بسيطة حسنية لـــ: 100 فرنك؛ وفي 1908 كان ما بين 163 و147 ب.ح. لـــ: 100 ف.، وفي 1909–1910 فكان بين 154 و143 لـــ: 100 ف.، وفي 1914–1916 كان بين 135 و124 فرنك.

[300]- كان ثمن الفضة يساوي 100 فرنك للكيلوغرام سنة 1913، ثم انتقل سعرها سنة 1917 إلى 160 فرنك؛ بل بلغ 200 فرنك، واستقر في اكتوبر 1917 في 170 فرنك، وفي يناير 1919 بـــ: 182,5 فرنك، وفي يناير

1920 بـــ: 530,50 فرنك.

نقص الحسني بشكل كبير من السوق، فتمخض عن ذلك مشكل كبير، وهو مشكل التبادل التجاري مع المغاربة، الذي كان يتمُّ في مجمله بالحسني.

كما أن بنك الدولة بدا عاجزاً أمام الأزمة الجديدة، إذ أن إمكانياته كانت محدودة للحفاظ على استقرار الصرف، لأن دوره كان محصوراً في توفير مخزون من النقود، يكون كافياً ليتمكن من بيع وشراء الحسني بثمن ثابت، مهما كانت أهمية العرض والطلب، حفاظاً على استقرار سوق الصرف من المضاربة.

لقد كان بنك الدولة يقوم من حين لآخر بضرب عُملة الحسني تلبية للحاجيات، إذ كان له دائماً احتياطي. بيد أن ظروف الحرب أدت إلى صعوبة التزود بالفضة، فانعكس ذلك على بنك الدولة، حيث أصبحت باريس تتأخر في تزويده بطلباته المعتادة من النقود الحسنية التي كان يسكُّها هناك. وهكذا فإنه لم يتوصل في 1916 بأي شيء، رغم تزايد الحاجيات الملحّة.

مبالغ البسيطة الحسنية التي أصدرها بنك الدولة[301]

| | | | |
|---|---|---|---|
| في 1911 | 15.393.000 ب.ح. | في 1915 | 4.141.775 ب.ح. |
| في 1912 | " 34.700.000 | في 1917 | " 11.303.407 |
| في 1913 | " 19.241.000 | في 1918 | " 11.400.000 |
| في 1914 | " 13.598.000 | في 1919 | " 19.887.000 |

إن ارتفاع ثمن الفضة، والخصاص في الحسني الذي ارتفع سعره، وعجز بنك الدولة عن تلبية الطلبات المتزايدة، وانهيار الفرنك الذي افتقد الناس ثقتهم فيه؛ كل هذا أدى إلى خلق مشكل في التبادل التجاري، وبالتالي إلى انفجار أزمة حادة في السوق المغربية، جعلت الإدارة الفرنسية تتخذ مجموعة من التدابير لتطويق هذه الأزمة.

وقد صدرت تلك الإجراءات بالجريدة الرسمية للحماية يوم 15 اكتوبر 1917، وهي عبارة عن قرار شبه رسمي، نصَّ على ما يلي:

---

301 - Felix NATTAF, «Le Crédit et la banque du Maroc», Paris, 1929, p. 15 & 17.

«1- تسبيق جباية الترتيب بثلاثة أشهر عن الموعد الذي كانت عليه العادة في السنوات السابقة.

2- تمّ طلب 15 مَ. من النقود المضروبة في باريس.

3- اتخاذ إجراءات جذرية ضدّ احتكار العملة.

4- قامت الحماية بوضع كل ما لديها من الحسني رهن إشارة العموم، كما قامت الخزينة بمجهود مماثل.

5- المراقبة المشددة لأي تهريب نقدي اتجاه طنجة والمنطقة الإسبانية، عن طريق المنع التام لإرسال أي حــوالــة بريدية بالحسني، والمراقبة المشــددة على الحدود.

6- مضاعفة التعامل بالفرنك الفرنسي، وعلى مديرية المالية التفكير في تهييء ميزانية السنة المقبلة بالفرنك.

7- على المدير العام للمالية أن يلتحق بباريس لمناقشة متطلبات المرحلة القادمة»[302].

هذه الإجراءات لم تكن كافية للخروج من الأزمة، إذ كان لابد من المساواة بين الفرنك والحسني كما جاء في هذا الإعلان الصادر بالجريدة الرسمية: « ابتداءً من يوم 8 أكتوبر [1917] ، فإن حكومة الحماية قررت – بهدف وضع حد لعدم استقرار الصرف، الذي يخلق اضطراباً في المبادلات، وكذلك استجابة لمتطلبات التجارة- قررت حكومة الحماية بأن مبيعات ومشتريات الحسني التي يقوم بها بنك الدولة المغربية لحساب الحماية، ستتم من الآن فصاعداً بثنائية 100، هذا الإجراء اتخذ لصالح الرخاء والصفاء العام.

كما تمّ رفع القيمة المتداولة للحسني عن قيمته المعدنية حتى يتوفر له الاستقرار والمساواة مع الفرنك في عمليّات الصرف، إذ حُدِّدت قيمة المقارنة بين العملتين كالتالي:

| | | |
|---|---|---|
| الـــــــدورو (الريال) | = 5 | فرنكات |
| نـــصـــف دورو | = 2,5 | " |
| الربع (1/4 دورو) | = 1,25 | فرنكـــاً |
| القـــرشـــين | = 0,50 | " |
| الـــقرش | = 0,25 | " »[303]. |

[302] - Bulletin du Comité de l'Afrique Française ; n° 9, 10 & 11 Septembre, Novembre 1917, p. 347-348.
[303] - Ibid.

إن هذا القرار الذي كان يهدف إلى إقامة موازنة بين العُملة الفرنسية والحسني، اتُخذ من طرف سلطات الحماية بواسطة مذكرة بسيطة كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وليس بواسطة مرسوم أو ظهير.

وهذا القرار غير شرعي، لأنه خرق إجراءات عقد الحماية وعقد الجزيرة، وكان يُنذر بالقضاء على عملة الحسني، وهو دليل على بداية الإدارة المباشرة.

ورغم هذه الإجراءات المُتخذة، فإن الموازنة بين العُملتين ستستمر سنتين فقط، حيث ستبرُز أزمة الفرنك واضحة، لأنه في الأخير كان التفوق للحسني؛ مما جعل بنك الدولة مرة أخرى يواجه صعوبة في تلبية الطلبات المتزايدة.

ب- أزمـــة 1919: لقد أدت الحرب العالمية إلى مضاعفة الطلب العالمي على الفضة التي انخفض إنتاجها بشكل كبير، مما أدى إلى انفجار سوق الفضة اللّندنية.

وهذا الارتفاع الصاروخي لثمن الفضة كان أثره كبيراً بفرنسا، فإذا كان سعر الفرنك ظل ثابتاً تقريباً خلال الحرب، فإن الهدنة التي أعقبت الحرب، وتوقف دعم خزائن الحلفاء للخزينة الفرنسية، كان بداية لأزمة الفرنك.

ذلك أن سعر الفضة بالسوق الفرنسية كان مماثلاً للسوق اللّندني حتى شهر فبراير 1919، إلا أنه سرعان ما ارتفع إلى ما يقارب الضعف بين شهر فبراير 1919 ونفس الشهر من السنة التالية، فانعكس ذلك على الفرنك الذي عرف انهياراً في قيمته.

وبما أنه لا فرق بين سبيكة الفضة والبسيطة الحسنية؛ إذ يكفي إذابة واحدة منها للحصول على الأخرى، وبما أن سعر الفضة قد ارتفع عن سعر الحسني المحدَّد من طرف الحماية، فإنه أصبح من السهل استبدال الفرنك بالحسني في شبابيك بنك الدولة، وبيع هذه العملة الفضية بالسعر المرتفع لهذا المعدن – وهي العملية التي كانت تقع عند كل أزمة – وهكذا انطلقت عملية المضاربة من جديد، حيث بدأت بطنجة، ثم في المنطقة الإسبانية، لتنتقل بعد ذلك إلى المنطقة الفرنسية؛ وبذلك انتهى عهد التعايش السلمي بين الفرنك والحسني الذي دام سنتين، إذ انفجرت أزمة الصرف من جديد بالمغرب.

ففي 15 أكتوبر 1919 تمّ الإعلان فجأة عن إلغاء المساواة النقدية بين الحسني والفرنك، مما أثار بلبلة داخل الساكنة المغربية[304]، فشُلّتْ حركة المبادلات تقريباً نظراً لسرعة تطور الأزمة. فقد ارتفع سعر الحسني إلى 60 بسيطة حسنية لـ: 100 فرنك[305]، ثم ما لبث أن تراجع إلى 83 بسيطة حسنية لـ: 100 فرنك في 23 أكتوبر.

وهذه العاصفة في سوق الصرف المغربية تسببت في غليان الساكنة المغربية، خاصة في المدن الكبرى؛ إذ هوجمتْ الأبناك التي وجدت صعوبة في تلبية الطلبات المتزايدة، فاضطرت لإغلاق أبوابها رافضة صرف الفرنك المنهار بالحسني، وشُدِّدَتْ الحراسة عليها.

وهكذا وجدت سلطات الحماية نفسها أمام خيارين: إما الإبقاء على إجراءاتها غير الشرعية والإقدام على سحب النقود المعدنية من السوق، وبالتالي المس بالمصالح التي وُجدَتْ الحماية لصيانتها، وإما تحرير السوق النّقدي، وهو قرار يحمل في طياته عدة تناقضات، ويصعب اتخاذه من طرف ممثّلي دولة من المفروض أنها تحافظ على الأمن والتنظيم.

وقد تمّ ترجيح الاختيار الثاني لتفادي أخطار الحوادث التي يُثيرها المعمّرون في مغرب لازالت به عمليات "التهدئة" متواصلة، وتمّ إقرار حريّة الحسني، لكنه اختيار مصحوب بعدة إجراءات، تُرسِّخ في نفس الوقت تداول العملة الفرنسية الصادرة عن بنك فرنسا وبنك الجزائر.

وهذه أهم الإجراءات التي تمّ إقرارها:

– على بنك الدولة بالمغرب أن يحدد باتفاق مع المديرية العامة للمالية الأسعار الواجب العمل بها؛

– إصدار أوراق صغيرة من فئة : 0,25 –0,50– 1 و 2 فرنك؛

---

[304] - Bulletin du Comité de l'Afrique Française ; n° 11 & 12 Novembre - Décembre 1919, p. 339 - 341.

[305] - Daniel RIVET, « Lyautey et l'institution du protectorat Français au Maroc 1912 – 1925 ; t.3, Paris,
1988, p.119.

- على المحتسبين ومُسَيِّري الأملاك المخزنية، وكل أرباب العمل ألاّ يؤدّوا بأي عُملة أخرى غير الفرنك، باعتباره العملة الوحيدة الرسمية منذ 1 يناير 1920، ونفس الأوامر أُعطيت لمكاتب الحسابات؛

- كتابة رسالة سلطانية تُقرأُ في الأماكن العمومية وفي المساجد، تحثُّ المغاربة على التعامل بالعملة الفرنسية؛

- تحويل الميزانية الخاصة للحبوس التي كانت بالحسني إلى الفرنك، بدون الرفع من أثمنة الكراء التي تتلقاها هذه المؤسسة.

- تطبيق ظهير 1917 على المضاربين.

وهكذا هدأت الأزمة قليلاً بهذه الإجراءات التي مهدت إلى إلغاء الازدواجية النقدية التي كانت تُعتبر العامل الأساسي لكل الأزمات. إلا أن مفعول هذه الإجراءات كان هزيلاً، فمع وقف إجراءات الموازنة واصل الفرنك انهياره، بحيث في 8 فبراير 1921 أصبحت 100 فرنك تساوي 52,50 بسيطة حسنية، وهو أدنى سعر وصل إليه الفرنك. وتمّ التهافت على الأبناك التي كانت عليها الحراسة مشددة. وفي الأوراش كان العمال يصرون على أن يكون الأجر بالحسني، وارتفع مستوى المعيشة، وتضررت التجارة. وإجمالاً فقد اضطربت الأوضاع، واندلعت عدة مظاهرات.

ويمكن إبراز نتائج هذه الأزمة في ثلاثة مستويات:

- فمن الناحية الاقتصادية: اختفت النقود الجزئية، وأصبحت المبادلات صعبة، كما ارتفعت أسعار المواد الغذائية؛ إذ بلغت: 35 — 60 ٪، وتوقفت الأشغال، وتمّ تعليق تنفيذ العقود والصفقات.

- ومن الناحية المعنوية : فإن الورقة النقدية فَقَدَتْ 500٪ من قيمتها، وقد حصل هذا خاصة بناحية مراكش التي لم تكن خاضعة مباشرة للتأثير الفرنسي.

وعلى المستوى السياسي : كانت الأمور تُنذر بالتحول إلى الاضطرابات، وانتاب المغاربة نوع من التذمر والريبة والحذر الخفي. كما طالب المعمرون بتغيير المقيم العام وحلّ بنك الدولة.

لقد خلّف انهيار الفرنك استياءً كبيراً لدى الأوروبيين بالمغرب، فهاجموا الإقامة العامة والبنك الدولي ومديرية المالية، وحمّلوهم مسؤولية هذه الأزمة. وبالدار البيضاء تشكلت "لجنة للدفاع عن الفرنك"، التي كانت تُنظم المظاهرات،كما كتبت الصحف مقالات منددة بالسياسة النقدية في المغرب. أما الغرف التجارية والفلاحية فقدّمت استقالتها احتجاجاً على انهيار الفرنك، ثم تبعتها بعض المجالس البلدية.

وهكذا أصبحت الضرورة مُلحّة لإيجاد حلٍّ عاجل لهذه الأزمة المتفاقمة؛ بل بدأ التفكير بجدية من أجل إصلاح جذري لإنهاء هذه "المسألة الخطيرة" والمزمنة.

### ثالثا: الإصلاح النقدي بالمغرب (1920 – 1925) :

إن الحجم المتزايد الذي اتخذته أزمة الصرف بالمغرب ابتداءً من صيف – خريف 1919، وتحت ضغط الرسائل العاجلة من الإقامة العامة التي كانت تطالب بحل عاجل، بعثت الحكومة الفرنسية يوم 23 فبراير 1920 لجنة يرأسها المفتش العام، من أجل تقصّي الحقائق، وتحديد أسباب هذه الوضعية التي لم تكن تُلائم أصحاب المصالح المالية من الفرنسيين المتوفرين على رؤوس أموال بالفرنك، وكذلك لتمتيع الحماية في المغرب بنظام نقدي قـــــار. وقد عقدت هذه اللجنة اجتماعاتها ما بين 28 فبراير و11 مارس لتدارس المشكل، حيث أسفرت عن النتائج التالية:

1– نهاية ازدواجية العملة : لقد كان الخلاف بين وجهتيْ نظر :

فمن جهة هناك المعمّرون الفرنسيون الذين يُحرّكهم بنك الجزائر وأوساط مالية أخرى موزِّعة للقروض، وهؤلاء كانوا من أنصار الازدواجية النقدية. ومن جهة أخرى هناك بنك الدولة المغربية الذي كان يفضِّل خلق عملة جديدة.

والغريب أن أحداً لم يفكّر في الحفاظ أو تقوية الحسني كعملة مغربية، التي كانت من ابتكار المغاربة، كما أن الجزء الكبير منها كان بحوزتهم.

وقد أخذت اللجنة السالفة الذكر كقاعدة للدراسة مشروع المدير العام للمالية المغربية (مشروع إلغاء النقود الرائجة بالمغرب).

وبعد مداولات عديدة، أصدرت هذه اللجنة نصاً تحول فيما بعد إلى ظهير؛ وهو ظهير 19 مارس 1920[306]، الذي يقرر ما يلي:

«- التّخلّي عن النقود الفضية "الحسني" حفاظاً على النظام وسهولة المبادلات [!]

- سحب هذه النقود "الحسنية" من التداول في انتظار إقامة نظام نقدي طبيعي [؟!]

أما العملات التي ستبقى مستعملة في جميع المعاملات هي الفرنك، ليس فقط "بسبب الضمانات التي يوفرها"، ولكن أيضاً، لأنه أصبح العملة التي تُستخدم في الحسابات العمومية [!].

- وأخيراً، فإن سحب هذه العملة المعدنية المحلّية سيكون لحساب العملة الصادرة عن بنك فرنسا وبنك الجزائر [!]».

لقد أعلن هذا الظهير عن توقيف القيمة القانونية والتحررية للعملة المغربية، وهو ما كانت تُمهد له سلطات الحماية منذ مدة، أي ضرب العملة المحلية وتنحيتها.

وهكذا تم جمع عُملة الحسني بشرائها بأوراق نقدية صادرة عن بنك فرنسا أو بنك الجزائر، كما أن العقود المبرمة بالحسني والتي أشرفت على نهايتها خلال أو بعد فترة الإلغاء، تمّ تحويلها إلى الفرنك حسب الأسعار التي حُدِّدت بهذا الظهير[307]، وغداة هذا الإلغاء سينحصر الرواج بالأوراق النقدية السالفة الذكر .

---

306 - Félix NATAF , « Le crédit et la banque du Maroc » ; Paris, 1929, pp.22-24.
- André J. MARTY ; « Le Franc Marocain monnaie satellite » ; Paris, 1951, p.106.
- Med. Larbi ben OTMAN, «Le Franc Marocain, histoire d'une monnaie disparue », Revue Dar Al-Niaba,
n° 11,été 1986, p.12.

307- يقول البند الثاني من هذا الظهير: « إلى غاية 20 أبريل ... كل مالك لهذه النقود [الحسني] يجب عليه بيعها لصناديقنا العمومية أو شبابيك بنك الدولة، وذلك بثمن 10 فرنكات للريال، 5 فرنكات لنصف ريال،

وقد تمّ استقبال هذا الظهير بارتياح من طرف الأوروبيين حسب ما ذكره ناطاف (NATAF)،مما أدى إلى الإتيان بمبالغ كبيرة من الحسني، والتهافت على شبابيك بنك الدولة وصناديق الحكومة لاستبدالها بالفرنك.

وقد سُحِب من التداول العام حوالي 220.000.000 بسيطة حسنية، منها: 5 مَ من منطقة طنجة، 15 مَ من المنطقة الإسبانية، وما بين 30 و 40 مَ من المنطقة الغير خاضعة للحماية.

ومشتريات سلطات الحماية للحسني، كانت قد بدأت قبل ظهير الإلغاء، فمن 15 أكتوبر 1919 إلى 10 مارس 1920، جُمعت 29.565.000 بسيطة حسنية.

وبعد مرور شهرين على تصفية الحسني، سيتم الإعلان عن ميلاد عملة جديدة بالمغرب

2- تأسيس "الفرنك المغربي" ورواجه: لقد كان برنامج الإصلاح النقدي في المغرب يقتضي في البداية إلغاء العملة المحلية "الحسني" من الرواج، وهو ما تمّ في ربيع 1920، حيث اختفى الحسني من التداول، فتكدَّس الجزء الأكبر من هذه العُملة في خزينة بنك الدولة، والجزء الآخر ظل رائجاً بالمنطقة الإسبانية، ومنطقة طنجة، والمنطقة الغير خاضعة، أو بقي مكتَنَزاً من طرف بعض الأثرياء. وأصبحت العملة الرائجة منذ اليوم الثاني للإلغاء تتكون من الأوراق النقدية لبنك فرنسا وبنك الجزائر.

وتحت ضغط حاملي الأسهم في بنك الدولة، وُضِع حد لهذه الحالة، حيث سيبدأ الفصل الثاني من سيناريو الإصلاح، إذ بعد شهرين من صدور الظهير الأول، صدر ظهير آخر في 21 يونيو 1920، من أجل خلق عملة جديدة تحمل إسم "الفرنك المغربي" والتي لها السعر القانوني، والقوة الإبرائية. وقد عُهد إلى بنك الدولة المغربية بإصدار هذه العملة، وذلك بمقتضى امتيازه.

وهكذا عَمل بنك الدولة من خلال المفاوضات مع وزير المالية الفرنسي، ومع الحكومة الشريفة، على تحقيق اتفاق مباشر مع الخزينة الفرنسية من أجل ضمان المساواة بين الفرنك

---

2,50 ف. لربع ريال، فرنك واحد لعُشُر الريال، و50 سنتيماً لجزء واحد من 20 جزء من الريال، يُقبض ثمنها بالتراضي مع الحكومة، إما بأوراق بنك فرنسا أو بنك الجزائر» .

المغربي والفرنسي، ومن أجل أن يُعطي كذلك الضمانة (معدنية أو بالعملة الفرنسية) لأوراقه البنكية الحاملة إسم الفرنك[308].

وهذه المفاوضات أدت إلى إبرام معاهدتين: الأولى مع الحكومة الشريفة في 28 دجنبر 1921، والثانية مع الخزينة الفرنسية في اليوم الموالي أي 29 دجنبر.

وبمقتضى اتفاقية 28 دجنبر 1921 حوّلتْ حكومة الحماية لبنك الدولة 40 مَ بسيطة حسنية فضية، حتى يتمكن هذا الأخير من إنشاء "رصيد" معدني من نفس القيمة من السبائك الفضية. وبموازاة ذلك فتح البنك للحكومة الشريفة قرضا بدون فائدة حتى نهاية امتيازه (1947). وهذا القرض قابلٌ للاستعمال بحساب جار بمقدار 15 مَ فرنك، هذا بالإضافة إلى عقود أخرى مع الخزينة مدتها سنة بقيمة 12 مَ فرنك.

أما اتفاقية 29 دجنبر مع الخزينة الفرنسية، فكان الهدف منها هو ضمان المساواة بين الفرنك المغربي والفرنك الفرنسي؛ وفي هذا الإطار فتحت الخزينة الفرنسية بباريس حساباً جارياً لبنك الدولة المغربية، وقد التزمت الخزينة الفرنسية بتسبيق المقادير الضرورية على قدر الاحتياجات؛ وذلك من أجل التغلب على عجز ميزان الأداءات في المغرب، وقد التزم البنك المخزني بنفس الالتزام إذا ما حدثت الوضعية المعاكسة. وهذا الحساب الجاري سمح بمتابعة تغيُّرات ميزان أداءات إدارة الحماية كميزان عاجز عندما لا تغطي دخول الرساميل عجز الميزان التجاري وأداء فوائد القرض، أو كميزان دائن عندما تتخذ مبيعات البضائع ودخول الرساميل حجما أكبر.

وبمقتضى نفس الاتفاقية فإن بنك الدولة تعهد كذلك بتكميل ضمانته لإصدار أوراقه النقدية، فأودع بالخزينة العامة بباريس قدراً مالياً يساوي الفرق بين ثلث أوراقه النقدية المتداولة من الفرنك، وبين رصيده المعدني (النقود المعدنية والسبائك)[309].

---

[308] - Bulletin du Comité de l'Afrique Française ; n° 3, Mars 1922, p. 165 – 166.
- Bulletin du Comité de l'Afrique Française ; n° 9, Septembre 1922, p. 429.

[309] - في 31 دجنبر 1922، بلغ الرصيد المعدني للبنك حوالي 2مَ من النقود والسبائك الذهبية وأزيد من 48 مَ من النقود والسبائك الفضية، إضافة إلى مخزون من الفرنك بالخزينة الفرنسية وعُملات أجنبية أُخرى، والكل

وقد دخلت هاتين المعاهدتين حيِّز التطبيق انطلاقاً من فاتح يناير 1922؛ إلا أن الاتفاقية الأولى (اتفاقية 28 دجنبر 1921) تمّ تعديلها باتفاقية 10 نوفمبر 1924، التي قررت بيع عملة الحسني لبنك الدولة. وبتطبيق هذه الاتفاقية بين حكومة الحماية وبنك الدولة، تكون مشكلة الحسني قد انتهت بالمنطقة الفرنسية.

أما اتفاقية 29 دجنبر 1921، والمبرمة لمدة ثلاث سنوات، فقد جُدِّدت مع بعض التعديلات باتفاقية 29 دجنبر 1924، ولمدة جديدة هي ثلاث سنوات.

وقد تمّ التوقيع على ملحق لهذه الاتفاقية في 27 يونيو 1927، بعد أن أُدخلت عليها بعض التنقيحات، لضمان الزيادة في صلاحية ثلاث سنوات أخرى، ابتداءً من 31 دجنبر 1927.

هذا عن "رصيد" الفرنك المغربي و"توحيده" بالفرنك الفرنسي، أما عن نوعيَّة النقود التي تكوَّن منها هذه العُملة الجديدة، فقد أصدر بنك الدولة في البداية أوراقاً نقدية من فئة: 5 ، 10 ، 20 ، 50 ، 100 و1000 فرنك، ثم أصدر ورقة 500 فرنك؛ كما سكّ أيضاً نقوداً معدنية (من النيكل والكيبرونيكل والبرونز) تقسيمية، من فئة: فرنك واحد، 50 و25 سنتيماً.

وقد تطور رواج هذه العملة الجديدة منذ إصدارها في 1920، سنة بعد أخرى، إلا أن هذا الرواج النقدي بالمغرب كان يعرف حركات تراقصية فصلية، تدل على أن هذا الرواج يتحدد خصوصاً بالحاجيات الواقعية للتجارة والصناعة. فمثلاً: في 1921 بلغ رواج الفرنك المغربي أقصاه بمبلغ: 165.179.000 فرنك في فاتح أكتوبر[310]، وهو الوقت الذي كانت فيه حركة العمل في أوجها، وفي 31 دجنبر تراجع هذا الرواج إلى 140.131.635. أما في سنة 1922 فبلغ هذا الرواج أقصاه في شهر شتنبر بمبلغ: 275.112.000 بعد أن كان في 21 يناير في رقم أدنى: 121.853.000 فرنك، ليُصبح في 31 دجنبر : 240.941.790 فرنك[311].

---

يمثل مجموعاً يساوي 86 مليون فرنك؛ والرواج الكلّي يساوي 241 مليون، أي 35٪، فيها 20٪ تتشكل من وحدات لها قيمة مستقلة عن الفرنك.

310 - Bulletin du Comité de l'Afrique Française ; n° 9, Septembre 1922, p. 429.

311 - Bulletin du Comité de l'Afrique Française ; n° 7, Juillet 1923, p. 387 - 388.

ومن خلال المُنحنى الذي رسمه رواج العملة الجديدة في بداية عشرينيات القرن العشرين يُلاحظ بأنه كان يصل أعلى درجاته في شتنبر وأكتوبر، بينما يُسجل أدنى درجاته في يناير وفبراير، أي الفترة التي توافق بالضبط فترة الحركة النشيطة، وفترات انخفاض حركات الأعمال والخدمات في مغرب بداية الحماية.

3- الفرنك المغربي وإقصاء العملات الأخرى: إن الإصلاح النقدي الذي أقدمت عليه الحماية، والذي استعرضنا فصله الأول والثاني، كان الهدف منه هو استعادة الوضعية المالية بالمغرب لقوتها وهدوئها، رغم الظروف الاقتصادية الصعبة التي كان لها تأثير على العالم أجمع بعد الحرب العالمية.

ومن أجل ضمان رواج نقدي سليم، وبالتالي انتظام المبادلات المحلية، والعمل على تفادي اضطرابات الصرف، كان لابد من تطبيق الفصل الثالث والأخير من هذا البرنامج الإصلاحي.

لقد كان الفرنك المغربي نفسه منذ البداية يعاني من منافسة أوراق بنك فرنسا وأوراق بنك الجزائر، وهو ما يدل على أن الازدواجية النقدية كانت لا تزال قائمة بالمغرب، وقد جاء الفصل الأخير من المخطط الإصلاحي لوضع حدٍّ لها.

وفي هذا الإطار صدر في 4 مارس 1922 المرسوم الوزيري الذي نص عليه البند 4 من ظهير 21 يونيو 1920، وهذا المرسوم يُقرِّر ابتداءً من فاتح يوليوز 1922 أن يتمَّ توقيف العمل بالامتياز الذي كانت تحظى به عملات بنك فرنسا وبنك الجزائر في رواجهما بالمغرب، والذي كان منحه لها الظهير السالف الذكر، وبالتالي تقرر بمقتضى هذا المرسوم الوزيري تجريد هاتين العملتين من أسعارهما القانونية بالمغرب.

وهذا الإجراء الهام كان من نتائجه تأثير إيجابي على رواج فرنك بنك الدولة، بحيث أصبح الرواج متجانساً، وهو ما كانت تتوخاه بنود عقد الجزيرة عندما أعطت لبنك الدولة المغربية امتياز إصدار النقود.

وإذا كان هذا المرسوم الوزيري قد سمح بضمان التنفيذ العادي لاتفاقية 29 دجنبر 1921 بين بنك الدولة والخزينة الفرنسية فإن بنك الجزائر رفض سحب أوراقه المالية، بل استمر في

نشاطه، خارقاً بذلك القانون النقدي المحلي. وهكذا ففي 1923 فإن 33٪ من الأوراق النقدية المتداولة في المغرب كانت صادرة عن بنك الجزائر، كما بلغت 47٪ في 1924 [312].

ولوضع حدّ لهذه الحالة الشادة، صدر ظهير في 6 يناير 1925، يُخضع بموجبه إلى ترخيص مسبق كل استيراد لأوراق نقدية أجنبية، كما أوكَلَ هذا الظهير إلى بنك الدولة المغربية بجمع الأوراق غير القانونية، وإعادة إرسالها إلى مصدرها، بينما اختصت السلطات العمومية بمراقبة صرف هذه النقود الأجنبية في البلاد.

وبهذا القرار يمكن اعتبار أن "الفرنك المغربي" الصادر عن بنك الدولة قد تمكّن من الانفراد بالرواج النقدي في المغرب؛ وكذلك يكون الإصلاح النقدي الذي ابتدأ رسمياً في 1920 قد أشرف على نهايته، وذلك بتعويض الفرنك المغربي للعملة القديمة المخزنية "الحسني"، وإقصاء العملات الأخرى، وانفراده بالرواج في مغرب الحماية الفرنسية.

## خاتمة

وخلاصة القول أن المغرب فَقَد استقلاله الاقتصادي والمالي منذ 1904، أي قبل فُقدانه لاستقلاله السياسي في 1912، أما استقلاله النقدي فقد تأخر إلى 1920، حيث سيصبح بعد ذلك نقداً تابعاً ومرتبطاً بالنظام النقدي الفرنسي.

وسبب هذا التأخير راجع إلى الصراع الذي كان دائراً بين رجال المال الفرنسيين، بالإضافة إلى الظروف الدولية المعقدة.

إلا أن قيام الحرب العالمية الأولى سيحرر فرنسا من التزاماتها الدولية؛ كما أن نهاية هذه الحرب مكّنتها من عدّة أسهم في بنك الدولة المغربية انضافت إلى حصتها الكبيرة في هذا البنك.

وهكذا لم يبق إلا التنافس الذي كان دائراً بين أصحاب بنك باريس والأراضي المنخفضة (الذي كان مهّد لسيطرته المالية والاقتصادية في السوق المغربية منذ 1902)، وبين أصحاب بنك ميرابو والاتحاد الباريسي الذي وصل متأخراً إلى السوق المغربية بواسطة بنك الجزائر، عندما ساهم في تمويل الحملات العسكرية الفرنسية على المغرب. إلا أن هذا التنافس سرعان ما انتهى

[312] - André J. MARTY, « Le Franc Marocain Monnaie Satellite », Paris, 1951, p. 114.

في 1925 لصالح بنك باريس، عندما تدخلت وزارة الخارجية الفرنسية والإقامة العامة لعقد اتفاق بين البنكين؛ وبذلك انفرد بنك باريس والأراضي المنخفضة بالسوق المغربية من خلال بنك المخزن.

وهكذا يكون قد تمّ تطبيق الإصلاح النقدي الذي كانت تتغنى به الحماية الفرنسية منذ البداية، عندما وصفت مسألة الصرف بالمغرب بأنها «مسألة خطيرة» "يجب حلها بسرعة"؛ إذ انتهى الاستقلال النقدي المغربي، وأصبح نقداً تابعاً لفرنسا.

لقد كان هدف فرنسا من وراء هذا "الإصلاح" أو "التحديث" النقدي هو إحكام سيطرتها على السوق المغربية وإخضاعها لنظامها من أجل استغلال البلاد والعباد في ظروف ملائمة ! وهذا ما حصل بالفعل.

**البيليوغرافية**

1- المراجع العربية:


-"عمر أفا، "مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر (سوس 1822-1906)"، الدار البيضاء، 1988.

- " " ، "مشكلة النقود ومحاولات الإصلاح في مغرب القرن التاسع عشر"، الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، أيام دراسية 20-23 أبريل 1983، منشورات كلية الآداب، الرباط، ص.73- 89.

- محمد خير فارس، " تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب 1912- 1939"،

- جرمان عياش، "أصول حرب الريف"،ص.305- 306.

- آلبير عياش، " المغرب والاستعمار، حصيلة السيطرة الفرنسية"، ط.1، الدار البيضاء، 1985.


2- المراجع الأجنبية:


- Félix NATAF, « Le crédit et la banque du Maroc », Paris, 1929.

- André J. MARTY, « Le Franc Marocain Monnaie Satellite », Paris, 1951.
- Daniel RIVET, « Lyautey et l'institution du protectorat Français au Maroc 1912 – 1925 », t.3, Paris, 1988.
- Revue Dar Al-Niaba, n° 11,été 1986.
- Bulletin du Comité de l'Afrique Française ; n° 8, Août, 1912.
- Bulletin du Comité de l'Afrique Française ; n° 9, 10 & 11 Septembre, Novembre 1917.
- Bulletin du Comité de l'Afrique Française ; n° 11 & 12 Novembre - Décembre 1919.
- Bulletin du Comité de l'Afrique Française ; n° 3 & 9, Mars - Septembre 1922.
- Bulletin du Comité de l'Afrique Française ; n° 7, Juillet 1923.
- Bulletin du Comité de l'Afrique Française ; n° 12, Décembre 1924.

# نصوص حول الطريق وظروف السفر ما بين تطوان وفاس
# على عهد السلطان مولاي يوسف

محمد الشريف

كليةالآداب والعلوم الإنسانية بتطوان

لم يكن المغرب في مطلع القرن العشرين يتوفر على طرق معبدة، فقد كتب شارل دو فوكو يقول : " لا أظنني بحاجة إلى القول بأن المغرب لا يتوفر على طريق معبدة. فليس به إلا عدد كبير من طرق السير على الأرجل المتداخلة فيما بينها والمكونة متاهات يضل المرء عبرها غايته بسرعة، اللهم إلا إذا كانت له معرفة جيدة بالبلد. هذه الطرق ممرات سهلة الممارسة في مناطق السهول لكنها صعبة جدا وكثيرا ما تكون خطرة في مناطق الجبال"[313].

وفي رصده لبعض معالم التغيير في تاريخ المغرب في القرن العشرين يقف الأستاذ إبراهيم بوطالب على الأهمية البالغة التي يكتسيها تحول المغرب ما بين سنة 1912 و1956 بانتقاله "في ظرف جيل واحد تقريبا من بلد لم يكن يتوفر ولو على كلمتر واحد من السكك الحديدية إلى ما يناهز ألفي كلمتر منها، ومن لا طريق معبد واحد إلى أزيد من ستة آلاف كلمتر معبدة تربط غرب البلاد بشرقها وجنوبها بشمالها، هذا فضلا عن الطيران والموانىء التي كانت مجرد خلجان، فإذا بها مراسي مرصفة تشحن وتفرغ أكبر السفن، مما شد البلاد إلى الأسواق الدولية بأقوى الروابط وجعل حركة النقل والمبادلات في الداخل على درجة تزري بما كانت عليه قبل الحماية. وشتان ما بين التاجر الذي كان يحتاج إلى شهر على الأقل للرحيل من فاس مثلا إلى الدار البيضاء، أو طنجة، فلا بد له من ثمانية أيام ذهابا وأخرى مثلها للإياب، مع

---

[313] - التعرف على المغرب **1883-1884** ترجمة المختار بلعربي، الدار البيضاء،1999، ص 13

خمسة عشر يوما لقضاء الأغراض واسترجاع الأنفاس، والتاجر الذي خلفه سنة 1956، فأصبح بوسعه أن يرحل إلى الدار البيضاء ويعود منها بعد قضاء مآربه في يوم واحد أو يومين"[314]

وفي هذه المداخلة نقدم نصوص رحلات ثلاثة طلبة من تطوان توجهوا للدراسة بجامعة القرويين بفاس وسجلوا ملاحظاتهم وارتساماتهم حول الطريق وظروف السفر ما بين تطوان وفاس. مبينين مخاطر الطريق وأهوالها، من ذكر قصص اللصوص وقطاع الطرق والتفتيش، ووصف العواصف والزوابع والأمطار وغير ذلك من المفاجآت، كما وصفوا لنا المدن والقرى والتزالات والجبال والوديان والمياه والعيون والجسور ... و لم يفتهم أن يلتفتوا إلى المناظر الطبيعية كالأشجار والنبات والورود والزهور، ويتوقفوا عند عوائد الناس وتقاليدهم في الملبس والمأكل والمشرب والمعاملات والتعرض إلى بعض الغرائب والعجائب التي التقاها في طريقه. يتعلق الأمر برحلة كل من :

- أحمد الرهوني[315]
- امحمد بنونة
- محمد داود

---

[314] – إبراهيم بوطالب، **معالم التغيير في تاريخ المغرب في القرن العشرين**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية– أكادير، سلسلة الدروس الافتتاحية، العدد 16، السنة الجامعية : 1999–2000، ص 13–14

[315] – كتاب عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، خاتمة الكتاب في التعريف بالمؤلف، تقديم وتحقيق : عائشة حيون، أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب، تحت إشراف د عبد الله المرابط الترغي، كلية الآداب بتطوان، 2002–2003، ج 2

## 1- الطريق من تطوان إلى فاس نهاية القرن التاسع عشر من خلال "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين"

ترك لنا أحمد الرهوني وصفا يفيض طرافة عن ظروف سفرته للدراسة بجامعة القرويين في القسم الأخير من موسوعته الموسومة بـــ "عمدة الراوين في تاريخ تطاوين" الذي خصصه لترجمته الذاتية. يقول :

" ولما ورد أمر النائب بطنجة على شيخنا العلامة سيدي الحاج أحمد الزواقي حفظه الله بالتوجه إليها كاتبا معه، وكان جل اعتمادنا في القراءة عليه لملازمته، وكثرة دروسه ونفعه وتحقيقه، حصل لي ولجمع من الطلبة أسف عظيم على ذلك، فأجمع رأينا على إعمال الرحلة إلى فاس الطيبة الأنفاس، وإذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه...

فعرضت رغبتي هذه على الوالدين رحمهما الله، فأما السيد الوالد فساعد على ذلك، وتحمل مشقة الفراق رغبة في تحصيل العلم الشريف، وأما سيدتي الوالدة رحمة الله عليها فكأنما نزلت بها صاعقة، إذ انطلقت أنهار من الدموع من عينها منذ ذكرت لها ذلك إلى أن رجعت إليها بعد ست سنين، حتى أضر ذلك بصحتها وأثر ضعف حالها رحمها الله لشدة محبتها لي، وقلة صبرها على فراقي.

... وجدت سيدي الوالد اكترى لي مع الحمّار الشريف سيدي محمد العربي اليعقوبي المدعو الطرابلسي، فخرجت معه يوم الأحد ضحوة تاريخ 21 ربيع الأول عام 1309 [1891/10/27]، في رفقة الشريف الجليل مولاي الحبيب البلغيتي العلوي، الذي كان ورد من مصر بعد إقامته فيها ما يزيد على أربعين سنة من هروبه من فاس بسبب وقعة وقعت له فيها، وهو أخو النقيب في عصره مولاي المامون البلغيتي وعم العلامة الجليل المحقق المحرر مولاي أحمد بن المامون البلغيتي التجاني وصهره أبو زوجته...

وخرج في رفقتنا أيضا الطالب الأجل السيد عبد الله بن الحاج محمد بن القائد الحاج عبد الرحمان أشعاش، وأخوه السيد عبد الملك.

ولما وصلنا **موضع الوداع وهو المحل المسمى (عقيبة المرة)** وجدنا هناك جمعا وافرا من العلماء والشرفاء والأعيان والأحبة بقصد وداعنا، **فقرأنا الفاتحة في دائرة من الناس** تقرب من مئة مطر، وودعنا الوالد والإخوان والأحباء، وتوجهنا في حفظ الله وعنايته، وكان من فضل الله علينا تواتر الأمطار علينا في الطريق ليتضاعف الأجر على قدر المشقة إن شاء الله.

**ولبثنا في الطريق أربعة عشر يوما، في حين أن العادة الوصول إلى فاس في ثمانية أيام**، ولكن صبت الأمطار وكثر الوحل في الطرق، فلم نصل لفندق (عين الجديدة) إلا ليلا. ولما وصلت إليه وقد كانت أول سفرة سافرتها على طريقه، استوحشت غاية، وحصل لي بكاء مفرط لم يتقدم لي نظيره، وتذكرت الوالدين والأهل فكدت أموت من الوحشة، وصار خدمة الحمار يتضاحكون مني لأجل ذلك.

ونزلنا في قهوة تمثل بيوت جهنم والعياذ بالله، ثم أصبحنا مقيمين به من كثرة المطر، وظل أصحابنا ومن به لاهين بلعب الكرطة وأنا في غاية الضيق والكدر، وهناك ورد علي رقاص من سيدي الوالد رحمه الله بكتاب، يأمرني فيه بدفع الدراهم التي زودني بها للحمار الطرابلسي، حتى تكون بذمته إلى فاس خوفا من سرقة أحد لها، اعتناء منه رحمه الله بشأني، وكان عددها ثلاثين ريالا فدفعتها له بمحضر الرفقاء.

وفي غده وهو يوم الثلاثاء نهضنا من **الفندق**، ولما نزلنا من عقبته استمر المطر علينا إلى أن وصلنا **نزالة عياشة** وليس على ظهورنا خيط يابس بل أفضى البلل إلى لحومنا رغما عما كان علينا من الثياب، وفي هذا اليوم الذي طال علينا سفره من الشروق إلى الغروب، تحققت ذوقا معنى القائل :

فما حنّ حجّام ولا حاك فاضل // وما كان جزار كريم فعائل

كذلك حمار ففيه تجمعت // قبائح هؤلاء وزدْ في الرذائل

إذ اختار لركوبي الحمار بغلا عاليا جدا أعرج، و لم يوطىء لي محل الركوب، بل جعله أقسى ما كان، و لم يمكني من لجام ولا شكيمة، بل ترك البغل يمشي حسب هواه، **وكان الطريق**

قد انشق جله من كثرة الأمطار، فما كان يمشي بي نحو خمسين مطرا حتى يقلبني على ظهره في الوحل أو غيره، وهكذا قضيت مدة الطريق جعل الله ذلك من مكفرات الذنوب.

مع أن هذا السيد كان من أصدقاء والدي رحمه الله منذ صباه إلى هلم جرا، وكانت دارنا دارهم، ودارهم دارنا، ولكن غلب عليه في تلك السفرة حب أصهاره الذين كانوا في رفقتنا، فانتخب لهم الدواب الصالحة ولم يفضل لي إلا ذلك البغل، لأني كنت قصيرا حقيرا ذميما ضعيفا حسا ومعنى، والحمد لله على فضله وإحسانه.

وكنت عزمت على إخراج بعض الختمات من القرآن الكريم في الطريق، لأهدي ثواب ما أقرأه منها قبل الوصول للقصر للقطب مولانا عبد السلام رضي الله عنه، وما بعده لقطب المغرب مولانا إدريس الأنور رضي الله عنه، فصرت أتلو وأنا على ظهر الدابة، فلحقني يوما وقال : **لا تقرأ القرآن على ظهر بغلي لأن القراءة تثقل على الدواب وتهلكها.** فاستعظمت منه هذه المقالة جدا حتى كدت أعدها كفرا، إلى أن وقفت في شرح القسطلاني[316] على صحيح البخاري على أن بعض السلف قال بذلك، لكنه رده بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ سورة الفتح على ناقته، ولعلي رأيت ذلك في تفسير سورة الفتح. فعلمت أن لهذه المقالة أصلا عند العلماء وإن كانت شاذة للغاية.

ولما وصلنا **لنزالة عياشة** على الحالة التي ذكرنا قابلنا أهلها بغاية القساوة، وطلبنا منهم أن ينزلونا في مسجدهم فامتنعوا من ذلك غاية، **فاكترينا منهم خيمة ببسيطة، وبتنا بين الدواب والبقر والكلاب والدجاج والغنم فوق خثاء البقر وروث الدواب، والأرياح تعصف من كل جانب، والأمطار تهطل، والرعود تقصف، والبروق تخطف، ونحن في حالة يرثى لها لا ماء للوضوء ولا موضع للصلاة، والمطر يصل إلينا من سقف الخيمة، والكلاب تنبح، والعجول تطوح**، وبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رجل أشيب من شيوخ الحلة وجلس إلينا يحدثنا ويؤنسنا، وكان من جملة حديثه أن قال أنه في العام السابق كان هنا في مسجدنا

---

[316] - إرشاد الساري، 475/7 كتاب فضائل القرآن- باب جواز القراءة على الدابة. وليس كما ورد عند الرهوني في تفسير سورة الفتح.

بعض الطلبة مثلكم، فوقع في ليلة مطر وريح وعد وبرق فنزلت عليهم صاعقة فأحرقتهم، وكان إذ ذاك عبد الله أشعاش ناعسا فلما سمع ذلك وأصوات الرعود تقصف من كل جانب، قام بسرعة فأرعد وأبرق في وجه ذلك الأشيب وسبه وأخرجه من الخيمة، فانقلب ذلك الكدر سرورا وضحكا، ولكن الله سلم.

ثم بتنا في كرامة الله، وفي يوم الأربعاء نهضنا في الأمطار وبتنا في مدشر من الخلوط يسمى الطواجنة، **فأنزلونا في مسجدهم**، وما قصروا معنا في الإكرام، إذ أتى كل واحد منهم بعشائه وسهروا معنا وآنسونا جزاهم الله خيرا.

وفي يوم الخميس دخلنا القصر الكبير قرب الزوال، بعدما **قطعنا وادي المخازن على ظهر الأعراب بدوابنا وأحمالنا**، وشهدنا من قوتهم ومقاومتهم لتيار حملة الوادي ما قضينا منه العجب. ونزلنا في **فندق الأعواد قرب السوق حيث ينزل الحمارة**، واكترينا غرفة فيه فوق بابه، وهناك تذكرت قول شيخنا المرحوم مولاي المفضل بن محمد أفيلال الحسني العلمي المتوفى بتطوان عام 1304 من قصيدة يصف فيها بعض فنادق القصر، ولا يبعد أن يكون هو هذا ما نصه :

حيطانه كحيطان الفران // فلا تسل عما به اعتراني
والبق والبرغوث فيه أكثر // من النجوم عضها لا يفتر
والفار يلعب عليّ كالأسد....

إذ قد رأينا الفئران به تسابق القطط، وتزاحمنا في الصعود والهبوط... وقد زرنا الولي المذكور [أبي الحسن علي بن أبي غالب المتوفى عام 568 هـ] وغيره من بقية أولياء القصر وهم كثيرون، وعليهم مهابة وأنوار ... وأقمنا بالقصر يوم الجمعة واغتسلنا في حمامها وهو عبارة عن ميضاة مملوءة بالأقذار من بابها إلى قعرها والعياذ بالله، وصلينا الجمعة في ضريح الولي الصالح النور الواضح سيدي... الهزميري...

وفي يوم الأحد خرجنا منه، وما جزنا وادي لوكس حتى قاسينا الشدائد، إذ كان **الوادي حاملا والمطر كثيرا والوحل عظيما، تكاد الأرض تبلع الدواب بأحمالها**، وخرج معنا

منه عدة من الحمارة منهم المعلم محمد الدودار وجماعة، فكنا في قافلة كبرى حاملة السلع من تطوان وطنجة إلى فاس.

ولم نخرج من القصر حتى ألزمنا المعلم الحمار بأن ننفق عليه وعلى رفقته، عملا بقاعدتهم الهمجية، وهي أن كل مسافر معهم أول مرة ووصل إلى القصر لا بد أن ينفق أو ينهق - أي مثل الحمار-، بعد أن يعلقوا في عنقه مخلاة الشعير التي يسمونها "بالعمارة"، فامتثلنا حكم هذا الطغيان، واشترينا لهم رجلة من اللحم وتوابعها، فطبخوا وأكلوا وشربوا، ثم سافرنا وبتنا ليلة الإثنين في عزيب الدليروا، ونزلنا ببيت له هناك وأكرمنا عزابته، لكون ربه تطوانيا.

ثم نهضنا يوم الإثنين، وبتنا على وادي سبو في الموضع المسمى بالمقرن، وهو موضع يجتمع فيه سبو وورغة.

وفي يوم الثلاثاء قطعناه في قوارب مملوءة بالمياه، وما نزلنا بين خوف ورجاء حتى نجانا الله من الغرق بفضله وكرمه. فبتنا ليلة الأربعاء في الجانب الآخر من الوادي، ثم رحلنا يومه، وبتنا ليلة الخميس في باب تيوكة، والأمطار تهطل والأرض تمتثل لقول الله لها "ابلعي ماءك"[317]، وتنشق حتى تكاد تبلع كل ما على ظهرها. فبتنا بها بين الماء والسماء، وذهبنا لمسجدها فوجدنا له بابا لا يزيد على ثلاثين سنطيما طولا وعرضا، ورام أحدنا أن يدخله فزلق ووقع في الطين. ثم نهضنا منها يوم الخميس وبتنا ليلة الجمعة في نزالة بني عمار. ويوم الجمعة نهضنا وبتنا في نزالة الجيوب قرب فاس، ويوم السبت 4 ربيع الثاني عام 1308 زوالا رحلنا للإدريسية حامدين شاكرين، راجين من المولى الثواب على المشقة، عملا بحديث ( حفت الجنة بالمكاره)، إذ أقمنا في الطريق أربعة عشر يوما، كانت كلها أمطارا ورياحا ووحلا وأودية، فالحمد لله على السلامة."

[317] سورة هود، 44

## 2- الطريق من تطوان إلى فاس من خلال يوميات طالب تطواني بجامعة القرويين :

ترك لنا الأستاذ امحمد بنونة[318] معلومات قيمة عن الطريق وظروف السفر من تطوان إلى فاس في يومياته التي عنونها بـــ "مذكرتي عن سفرتي إلى فاس لأجل الدراسة" : سنة 1338 هـــ/ 1919 م.[319] وقبل إثبات أهم نصوص هذه المذكرة تجدر الإشارة إلى أن الحاج امحمد بنونة، أخي الحاج عبد السلام بنونة، قيض له أن يجول مرارا في أرض الله. "فقد رحل إلى طنجة أولا، حين كان السفر من تطوان إلى طنجة سفرا طويلا يستغرق يوما بأسره، على ظهور الدواب. كما سافر بعدئذ رفقة أخيه الداهية، الحاج عبد السلام بنونة، الزعيم الكبير، وأبي الحركة الوطنية، كما يلقب، إلى بلاد الأندلس، والذي ابتغى من الرحلة أن يصرف أخاه الصغير عن التصوف ورهبانية الزاوية الحراقية، التي كان يبحث عنها رفقة خليله الشريف سيدي التهامي الوزاني[320]. ثم سافر في أوربا ومصر والحجاز، قبل أن يسافر إلى الرباط وغيرها من مدن المغرب للإعداد للعمل الوطني، بعد استسلام الزعيم الريفي. ولكنه وإن كان يدون يومياته في رحلاته هذه أو بعضها، فإنه لم يفرغ أو لم يعبأ بتدوين رحلته إلى مصر والحجاز والأندلس ومدن المغرب. أما رحلته العلمية إلى فاس فقد فرغ لتنقيتها، وإن وصلتنا مبتورة من آخرها"[321]

تبدأ مذكرات الأستاذ امحمد بنونة من يوم مغادرة لتطوان"يوم الإثنين 15 ربيع الأول 1338 هـــ/ 7 دجمبر 1919"، وهو اليوم الذي كان حاسما في حياته، إذ منه ابتدأ يعتمد على نفسه "من طقطق إلى السلام عليكم"، كما قال. وتنتهي عند حلوله واستقراره بفاس. ويختمها

---

[318] - ولد الحاج امحمد بن العربي بنونة بتطوان يوم 11 نوفمبر 1900، هو شقيق الحاج عبد السلام بنونة- وأحد رجال الحركة الأدبية والوطنية بتطوان كان عضوا في الكتلة الوطنية ومن مؤسسي حزب الإصلاح الوطني وقد تولى رئاسة لجنته الفرعية بتطوان، وكان من أفذاذ الشباب الذين كان لهم أثر فعال في تحوير الرأي العام بتطوان وفي توجيه الشباب إلى الناحية الثقافية الحديثة والاتجاه إلى الشرق وإنتاجه.

[319] - تصدير مالك بن محمد بنونة، منشورات جمعية تطاون أسمير، 1996

[320] - التهامي الوزاني ، الزاوية، ص 130-131

[321] - د. جعفر ابن الحاج السلمي، مقال ضمن : أعمال ندوة عبد الله الجراري- الحلقة الرابعة- الرحلات المغربية الداخلية 1912-1956، تنسيق د مصطفى الجوهري، الرباط، 2005

بمقارنة بين تطوان التي قضى فيها صباه وبداية شبابه، وفاس التي عرفها لأول مرة، وأحبها من أجل القرويين.

" سرت إلى باب التوت فوجدت هناك الرفاق ... وجما غفيرا من أهل المسافرين وأصدقائهم، ومن أهالي تطوان الذين خرجوا لوداعنا يعدون بالمئات كأننا حجاج بيت الله الحرام" ص 13[يمر الركب عبر عقيبة المرة، واد سمسة، واد السوير، اللوزيين]. فقال أحد الرفاق : " ها هنا كانت المعركة الأولى بين عسكر سبتة وأهالي وادراس بقيادة الحاج العربي".، ثم **قنطرة بوصفيحة**[322]، فمدشر الدشريين، فهضاب الحرشة. "قال لي أحد الرفاق إن هذه الأرض كل شبر فيها أخذ بالدم، وأن الصبنيول ترك هنا قتلى عديدين".

"ومن الغريب أننا منذ فارقنا القنطرة إلى الآن لم نجد ولا مركزا واحدا للإسبان. وقال لي الحمّار "هنا دخلنا في حكومة مولاي أحمد الريسوني، الذي عقد مع الصبنيول معاهدة عدم الاعتداء" (ص 14)

"ووصلنا إلى (زيتونة ابن سالم) قرب (واد أكراز) فقال أحد الرفاق : "هنا وقع على الصلح بين مولاي العباس والجنرال أودونيل".

"ابتدأنا بالصعود في عقبة كؤود قاصدين **فندق عين الجديدة**. وفي أثناء الطريق قال لنا الحمّار : " هذه العين كان يشرب منها سيدي عبد السلام بن ريسون"... فوقفنا وشربنا مها.. ثم سرنا نصعد بين جبال شاهقة – أنا أعرف هذه الطريق فقد رجعت من طنجة وعمري عشر سنوات، كنت في زيارة "باعمي" الحاج عبد الكريم بنونة- رحمه الله- لما كان أمينا بها... ولكن تظهر لي الآن أصعب مما كنت أتخيل. فإن الدواب تكاد تنقلب وتتدحرج في المهاوي من شدة الوعورة والضيق. فهي تشبه "الواديين" في طريق مولاي عبد السلام.

---

[322] – قنطرة على واد يحمل إسمه. وصفها شارل دو فوكو بكونها "ذات عقدين في حالة لا بأس بها" قبل أين يضيف قائلا : " وعدد القناطر في غاية القلة بالمغرب لا أظن أنني رأيت، طيلة سفري كله، أكثر من 5 أو 6 قناطر ". (التعرف على المغرب 1883-1884 ترجمة المختار بلعربي، الدار البيضاء،1999، ص 13)

"ولم نزل سائرين وقد صمتنا، إذ كل واحد باله مع دابته وأين تضع قوائمها، حتى رأينا على رأس أحد الهضاب **الفندق**[323]. وهو بناية مربعة كبيرة بها أفنية للدواب وأخرى للمسافرين. وبه بيت يكترى، ولكنه صغير. ففضلنا لأجل أن نبقى مجتمعين أن نترل في الفناء.

*** الثلاثاء 8 دجنبر 1919**

ودعنا بعض الرفاق الذين سيذهبون إلى طنجة ليسافروا مع الباخرة إلى الدار البيضاء في طريقهم إلى فاس مع القطار وهم سيدي عبد الرحمان اليعقوبي والفقيه الكحاك ومصطفى ابن المفتي. وسرنا نحن في طريق القصر الكبير، **لأن والدي رحمه الله، فضل أن نسافر في البر، لنعرف المغرب ونعرف الطرق.** وقال إن هذه الرحلة بهذا الشكل ستنتهي بعدما تتصل مدن المغرب بالسكك الحديدية (ص 16) وأصبحت قافلتنا مكونة من سيدي محمد ووالدته للاقامة، والفقيه طنانة وسيدي علي الذهبي وكاتبه، والحاج محمد بايسف صاحب الدواب وأتباعه.

خرجنا من الفندق وابتدأنا السفر في الساعة 7 صباحا قبل طلوع الشمس، وكان البرد قارسا إلا أننا لم نكد نترل من عقبة الفندق حتى أشرقت الشمس ودفئت الدنيا... فلما انتصف النهار "ريضنا" على العادة، وتغذينا ثم استأنفنا المسير إلى أن وصلنا **إلى نزالة تسمى "تزمورت"**، فاكترى الحاج محمد بايسق لنا بيتا، وأنزلنا به لوازمنا. وفرح بنا أهله وصنعوا لنا إكراما، وهو عبارة عن "بغرير" بالعسل. وكان وصولنا إلى هذه النزالة في الساعة 3.30...

---

[323] - وصف شارل دو فوكو هذا الفندق وكان قد قضى به ليلة، قائلا : " مكان مسور، مربع الشكل، بداخله سقيفة، يستقر المسافرون في هذا الملجأ وتبقى الحيوانات وسط الحظيرة. يتقاضى صاحب المكان أجرة ضئيلة مقابل إيواء البشر والبهائم، إضافة إلى هذا فإنه يبيع الشعير والتبن فطعام البهائم. المؤسسات من هذا النوع قليلة في البوادي بالمغرب، وكثيرة جدا بالحواضر. في المدن يعلو السقيفة طابق تصطف فيه بيوت صغيرة ذات أقفال تكرى للأجانب، هذه هي النزل الوحيدة الموجودة لإيواء العابرين. يبدو الفندق حيث نزلنا كثير الزبناء. يوجد به عند المساء حوالي 540 مسافرا والساحة ملأى: تتزاحم فيها خيول وحمير وبغال وجمال دون نظام مع قطعان الأبقار والغنام" (الرحلة، ص 23)، والجدير بالذكر أن هذا الفندق كان يعلو مدخله نقش تشير إلى سنة تشييده (1256 هـ/ موافق 1838، وذلك بأمر من السلطان مولاي عبد الرحمان)

كان البيت صغيرا اضطررنا أن ننام فيه كلنا ما عدا أتباع الحمار... كان البرد قارسا... اشتغلنا بالإنصات إلى أحد الحمارين يقص علينا خرافة الشاب مع بنت السلطان. " كانت هذه الليلة من أظرف الليالي، حيث تفاكهنا وتنادرنا وغنينا قبل أن ننام. واستيقضنا مع الفجر على العادة"

* **الأربعاء 9 دجمبر 1919**

ابتدأنا السير في الساعة 7.30 صباحا هذه الطريق هي "**المحجة العمومية بين القصر الكبير وتطوان.**

في ضحى النهار ابتدأت الطريق تصعب، ووصلنا إلى مكان وعر شديد الوعورة، فقال الحاج محمد هذا هو "**خناق جبل لحبيب**". فدخلنا بين جبلين ونحن ننحدر بينهما كأننا نقطع الصراط. وما سمي خناقا حتى كان يخنق الإنسان بوعورته. وعندما كنا نجتازه كان الحمّارة يقصون علينا كيف كان **اللصوص يقطعون الطريق** فيه، ويقتلون ويسلبون الناس ملابيسهم وأمتعتهم. والحق أن من يرى هذه المسالك وهذه الأجراف والكهوف والمخابىء يقدر خطورتها، ويتصور ما مر فيها من المصائب. فقد أحسست بهيبة تلامس قلبي حتى وددت أن لو لم يكونوا يحكون تلك القصص التي لا تخلو من مبالغة وربما كذب.

وأخرجني الفقيه طنانة من ذهولي بقوله : انظر إلى تلك الفتاة ما أجملها، لعلها من بنات أفيلال. فالتفت إلى تلك الناحية التي قال عنها، فرأت هناك فتاة جميلة، وهي سافرة على عادجة جبالة وعلى رأسها "الشمّال"، وفي رجلها "ريحية " حمراء، وهي محناة اليدين والرجلين...

مررنا بالخناق بسلام وقد تعب معنا الحمّارة.

- ريضنا... واستأنفنا المسير في هضاب وأرض خضراء حتى وصلنا إلى **عزيب الشعشوع**. الساعة 4.30
- قابلنا صاحبه سيدي محمد الشعشوع بالترحاب، وأنزلنا أثقالنا إلى بيت كأنه من بيوت تطوان مفروشا بأجمل الفرش ومؤثث ومدفى.

## • الخميس 10 دجبر 1919

خرجنا في الصباح على الساعة الثامنة إلا ربع:

الطريق بين عزيب الشعشوع سهلة فكلها هضاب خضراء وأرض خصبة وعزائب. وهنا اختلف الإخوان في مكان موقعة معركة واد المخازن...

وصلنا إلى **القصر الكبير** في الساعة الواحدة بعد الظهر.

خرجنا نتفسح في شوارع القصر. وهي مدينة صغيرة ضيقة الشوارع، وأهلها أقرب إلى البدو منهم إلى الحضر. وذهبت إلى المسجد الأعظم، وهو بسيط متواضع جدا. وكان الناس ينظرون إلينا بإمعان كأنهم لم يروا من الناس الأغراب قبلنا...

لما استيقضنا صباحا، وجدت نفسي قد احتلمت، فأخذني الحاج محمد بايسف إلى حمام هناك ما رأيت أقذر منه. فدخلت واغتسلت بسرعة وخرجت....

زيارة مولاي علي بوغالب

و لم أجد في القصر شيئا يلفت نظري، و لم تعجبني البلدة[324].

---

[324] – وصف شارل دو فوكو القصر الكبير بالوساخة والحزن وأنها "أقبح مدينة رأيتها في المغرب" (ص 26). أما الأديب الشاعر سيدي مفضل أفيلال (بتطوان 1823– 1886) فقد وصف القصر الكبير في منظومته عن رحلته إلى فاس سنة 1847 نقتطف منها هذه الأبيات :

خرجت يوم السبت رابع عشر // من المحرم وبت في الدشر

و لم أزل في السير نحو القصر // حتى دخلته بقرب العصر

وبت فيه والزمن يغدر // في فندق من الكنيف أقذر

حيطانه كحيطان الفران // فلا تسل عما به اعتراني

به البراغث كمثل النسر // باتت على طول ليلي تسري

والبق والناموس فيه أكثر // من النجوم عندنا لا يفتر

و لم أزل أتعب في حك الجسد // والفأر يلعب علي كالأسد

**[ في عرباوة، اصطدم الركب بحقيقة فاجعة، هي أن عرباوة نقطة الحدود بين شمال المغرب الخليفي، وجنوبه السلطاني.]**

*** السبت 12 دجنبر 1919**

خرجنا من القصر في الساعة 10.30 ضحى. واجتزنا النهر على جسر هناك. وسرنا بين هضاب ملتوية فوصلنا إلى **الحراس الإسبانيين للحدود بين المنطقتين الإسبانية والفرنسية.** فلم يطالبونا بشيء وإنما اكتفوا بأن سألونا عن وجهة سفرنا ثم سرنا وطلعنا في عقبة حتى وصلنا إلى حرس الحدود من الفرنسيين. فلفت نظرنا أنهم يتكلمون بالعربية، وطالبونا بالباسبورطات، وكنا أخرجناها من القنصلية الفرنسية. ثم سألونا عما عندنا من الأحمال، فأفهمناهم أننا طلبة وسنسكن في المدارس وهذه أفرشتنا وكتبنا، واكتفوا بأن ألقوا نظرة عابرة على ما في "الشواريات"، ثم تركونا نسير. وقد أخذت هذه العملية من الوقت قدرا غير قليل. ولاحظت في معاملتهم جفافا وقسوة واحتقارا للمغاربة لا أعهدها في الإسبانيين. وشعرنا برعب منهم لا نعرفه في منطقتنا. والحق أن كلهم نصارى أعداؤنا - والكفر ملة واحدة- ولكن شتان بين معاملة الإسبان مع معاملة الفرنسيس. فنحن الآن لم نزل في البدء، والله يعلم كيف يكون المستقبل.

وبعد خروجنا من **عرباوة** لم نذهب إلا مسافة يسيرة و"ريضنا" وتغذينا. ثم استأنفنا حتى وصلنا بعد الغروب في 5.15 إلى عزيب الدليرو. فبتنا فيه.

**الأحد 13 دجنبر 1919**

ابتدأنا المسير من **عزيب الدليرو** في 7.30 وقصدنا **مشرع بلقصيري** فاجتزناه على "**بركاسة**" كبيرة.... وابتدأنا السير في وطاء لا يرى فيه جبل ولا هضبة، وإنما هي قبة السماء متصلة بالأفق المنبسط من كل جهة.. استواء الأرض وخلوها مما يحجب البصر، كأن الإنسان يسير على وجه الماء في المحيط كما يحكي لنا الناس الذين سافروا في البحور... **وهذا الوطاء يسمى الخلاّط.** و لم يضق صدري مثل ما ضاق في هذا اليوم، لأننا نسير الساعات الطويلة وكأننا لم نبرح أمكنتنا.

بعد ضجر وتعب وصلنا إلى عشش... فأجرنا ما يسمونه **"بالكفوسة" وهي عبارة عن نوالة مستديرة الشكل مثل قبة**. ونمنا في الكفوسة في ازدحام شديد لصغرها.. ولم نتم مطمئنين من شدة **لسع البرغوث**.

## الإثنين 14 دجمبر 1919

**النزالة** التي نمنا بها تسمى **"جمعة الحوافات"**. ابتدأنا السير منها في الساعة 7.30 صباحا وبعد مسيرنا بضع ساعات ابتدأ يظهر تحت السراب أثر جبال بعيدة قال الحاج محمد إنها **جبال "باب تبوكة"** المتصلة بجبال زرهون حيث يرقد فاتح المغرب الأعظم مولانا إدريس الأكبر.

ومع العصر تقريبا وصلنا إلى باب تبوكة، وسرنا نقطع طرقا يظهر أن الفرنسيس عبدوها لتسير عليها السيارات، أو ليمد عليها السكة الحديدية، فهي طريق قد وضعوا لها أساسا من الحجر المكسر، ثم أهالوا عليها أطوابا من التراب، ودهقوه فأصبحت طريقا سهلة، إلا أنها تثير الغبار خصوصا لقافلة مثل قافلتنا المتعددة الدواب.

وصلنا إلى **"نزالة" تسمى سَهْب الخرشف** في الساعة 5 مساء.

اكترينا من أهل (النزالة) نوالة صغيرة أكل الدهر عليها وشرب، ولم يبق منها سوى سقفها.

- حفر سواقي حول الخيمة وحول نوالتنا. وهذه العملية يسمونها "التّونيّة"..
- المطر ينزل بغزارة... وإذا النوالة كلها غريقة في المياه المنحدرة من الهضبة المرتفعة..

وأصبح الصباح وكف المطر عن النزول وأشرقت الشمس... وقد طلع النهار ونحن في مكاننا والحمارون **يتنازعون في السفر وعدمه، لأن الوحل في الطريق سيعوق البغال عن المسير**. وبعد أخذ ورد طال سوائع، قرروا السفر بسبب أن هذه النزالة لا يوجد بها علف للبغال، وأنهم اشتروه في الليلة الماضية زائدا في السعر. وفي الساعة 12 ظهرا ابتدأ مسيرنا من سهب الخرشف.

## الثلاثاء 15 دجنبر 1919

سرنا في طريق بلغت الغاية في الوحل. فلقد كان الفرنسيس- كما قلت سابقا- عبدها، أو بالقول الشارع ابتدأ في تعبيدها، فجعل فيها حجارة مكسورة، فوقها صب التراب الناعم، فلما نزل مطر الليلة الماضية عليه صيره وحلا، ويا له من وحل تغوص فيه قوائم الدواب ويعوق سيرها. وليس أمامنا سوى ذلك الطريق الملعون. وسرنا فيه لا نتكلم، فكل واحد مشتغل بنفسه كأننا في يوم القيامة. فإين تلك النكت وهاتيك القهقهات، وأين الغناء والذكر واللالة؟ نحن الآن في حال يرثى لها، آخذون بزمام بغالنا، نسير بها الهوينا، نتبع الرائد الذي يبصرنا بالطريق السالم لئلا نقع في هوّة مغطاة بالوحل. وقد حصل لنا ضيق، فابتدأ أحدنا يقرأ القرآن. فقام أحد الحمارين يصيح به أن لا يقرأ القرآن فوق دابته، لأن قراءة القرآن فوق الدابة يجعل حملها ثقيلا، هكذا زعم! وأنه إن لم يكف التالي عن تلاوته فإنه ينزله من فوق البغلة.

وبعد ذلك بقليل خرجنا من تلك الطريق، وسرنا إلى اليمين نقطع عقبات، تارة نصعدها وأخرى نهبطها، فقد اتصلنا من جديد بالجبل، وظهرت أمامنا قرية في سفح الجبل يقال لها "زكوطة"، وقد سماها بعض الحمارين " ازْصيفي" ... فلما وصلنا أردنا أن نترل بمسجد هناك، فأبى أهل القرية إلا إذا أجرناه منهم، فأدينا لهم الأجر، ولكننا وجدناه مكتظا بصبيان مع فقيه مدرر يعلمهم القرآن، فلم يرد الفقيه أن يصرف الصبيان ليخلي لنا المكان حتى أدينا له نصف ريال، فعندئذ صرف "المْحاضْرة".

## الأربعاء 16 دجنبر 1919

خرجنا من زكوطة وسرنا في طرق ملتوية بين جبال وأوهاد ومزارع خصبة وجمال في الطبيعة يأخذ الألباب... إلى أن وصلنا إلى نزالة "مكس" وهي قرية يجري قربها نهر عليه جسر صغير، وأهلها بربر، وهي قريبة من جبل زرهون إذا لم تكن في أحد سفوحه. فترلنا بها... وبتنا بها في حالة يعلمها الله من شدة البرد وهبوب العواصف.

. وما أصبح الصباح حتى كنا فوق ظهور دوابنا ننحدر إلى النهر لتشرب البغال، وكانت الشمس قد طلعت، فما أن وقعت أعيننا على النهر حتى رأينا عجبا لم يكن يخطر لنا على بال، ولا سمعنا به من أحد، ولا ظننا أنه يقع في بلاد يسكنها المسلمون. فقد رأينا سكان القرية قد نزوا إلى النهر يعومون رجالا ونساء عرايا لا يسترون عوراتهم، فهم كأنهم وحوش، ولم يأبهوا بنا ننظر إليهم، بل الحقيقة أننا غضضنا أبصارنا عن هذه المصائب. وأغرب من ذلك أنهم لا يحسون بما نحس به من البرد، كما تعودوا قلة الحياء. وقطعنا النهر ولا حديث لنا إلا ما رأينا.

## الخميس 17 دجنبر 1919

خرجنا من مكس في الثامنة إلا ربعا، وسرنا في طريق ملتوية نوعا ما إلا أنها جميلة كلها أشجار وأزهار برية الأرض كأنها زرابي مبثوثة... وقال الحمارة هذا جبل **"تغات"** المتصل بجبل **"زلغ"** الجاثمة في حجره فاس، كما تجثم ابنتها تطوان في حجر "درسة". وسرنا... وقال أحد الحمارة : هذه **"الضايات"**. وسرنا وسرنا وقالوا أيضا من هناك طريق **حمة مولاي يعقوب**. وسرنا وسرنا وقالوا أيضا هذه **نزالة فرجي** التي كنا نريد أن نبيت فيها، فندخل فاسا على وجه النهار. ولكن **عاقتنا الأوحال** في الطريق. وهذا **"واد اللبن"**..

"والحمارون يحفظون لكل مكان حكاية فنوادرهم لا تنتهي ولو أنها لا قيمة لها لا من ناحية الصدق ولا من ناحية المعنى"

وسرنا في وطاء سايس (مصارعة هبوب الرياح لعاصفة).. وقد ظهرت مآذن فاس الجديد... **رأس الماء** الذي ينبع منه "واد فاس" وسرنا وسرنا وقد ظهرت **"دار الدبيبغ"**، وظهر واد فاس في خط مستقيم ليتوزع على دورها ومساجدها وحماماتها وأرباعها. وقال لنا الحاج محمد بايسف أنه لم يكن كذلك مستقيم المجرى. فقد كان منحرفا، ولكن **الفرنسيس** جعله على هذه الصفة.

واقتربنا من أسوار فاس فقال قائلهم هذه أسوار **دار المخزن**، وهذه أسوار "مشور **باب البويجات**" وسرنا وسرنا، فقال الآخر : وتلك باب **"الساكمة"**... باب الكيشة،

ودخلنا فاس وقصد الحمارون فندقا يسمونه فندق المصلوحي، هناك قرب درب اليهودي".

### 3- الطريق من تطوان إلى فاس عبر القطار والمراكب البحرية.

في أواخر سنة 1919 وأوائل سنة 1920 تحركت همم بعض رفقاء محمد داود إلى شد الرحلة إلى فاس للدراسة فيها بجامع القرويين، وتهيأت لهم الأسباب، فسافر جلهم في ربيع الأول من هذه السنة ( 1338)، دجنبر 1919 ثم تبعهم الباقون، وكانت هذه البعثة مؤلفة من أحد عشر شخصا كلهم من رفاق محمد داود في الدراسة.[325] ولم تسمح الظروف لمحمد داود بمرافقتهم، فبقي بتطوان يدرس إلى أن جاء شهر رمضان، فإذ ذاك لم يبق له بد من اللحاق برفاقه لإتمام دراسته بكلية القرويين التي هي أعظم المعاهد المغربية وأقدمها، خصوصا وقد كانت فيها إلى ذلك التاريخ بقية من كبار العلماء والمؤلفين الذين هم شيوخ أشياخه، مثل ابن الخياط وابن الجلالي والوزاني والشرادي والعراقي وبناني إلخ[326].

ولقد ترك لنا محمد داود -في سيرته الذاتية الموسومة بـ :"على رأس الأربعين" وصفا طريفا لظروف السفر آنذاك من تطوان إلى فاس. وكانت عادة السفر مع الحمّار من تطوان إلى فاس لا تزال متبعة إلى تاريخ سفر محمد داود، ونفس البعثة التي توجهت قبله إلى فاس، قد سافرت مع الحمّارة. إلا أنه حرصا على راحة إبنه، أراد والد محمد داود أن يسافر فلذة كبده

---

[325] - وهم :

محمد بن عزوت (النبخوت)، محمد طنانة، مَحمد بنونة، عبد الرحمان اليعقوبي، عبد الكريم الدليرو، محمد القاسمي، أحمد بن ادريس، علي الذهبي، أحمد الفرطاخ، محمد الكحاك، مصطفى بن المفتي. انظر : محمد داود، على رأس الأربعين، الجزء الأول، تقديم وتعليق حسناء داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، 2001

[326] - محمد داود، على رأس الأربعين، الجزء الأول، تقديم وتعليق حسناء داود، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، 2001

من طريق آخر أقصر مسافة وأكثر راحة بالنسبة للطريق السابق، وهو طريق القطار الحديدي والمراكب البحرية.

"اتخذنا - يقول محمد داود- الإجراءات اللازمة للسفر، وفي مقدمتها الحصول على جواز السفر من القنصلية الفرنسية، التي كان من اختصاصها إعطاء الجوازات أو التأشير عليها لمن يريد السفر إلى فاس أو غيرها من مدن المنطقة السلطانية الواقعة تحت النفوذ الفرنسي.

ولعل مما يستغرب منه أن شخصا مغربيا لا يسمح له بالانتقال من جزء من بلاد المغرب إلى جزء آخر منها، إلا إذا كان حاملا لجواز السفر من قنصلية دولة أجنبية!

ولعل الأغرب من ذلك أن هذا الجواز لا يحتوي على حرف واحد باللغة العربية التي هي اللغة العامة للأمة المغربية واللغة الرسمية للحكومة المغربية!

## كيفية السفر من تطوان إلى فاس

وأرى من المناسب هنا أن أبين كيفية سفري من تطوان إلى فاس، لأن ذلك أصبح الآن من الغرابة بمكان.

فالذي يريد الآن السفر من تطوان إلى فاس يمكنه أنْ يركب السيارة صباحا، فلا يأتي الزوال إلا وهو بفاس، لأن المسافة بين البلدين بالطريق العادي للسيارات لا تزيد اليوم على 332 كيلومترا، بل إن هناك طريقا آخر أقرب من هذا.

أما حين سفري إليها سنة 1338 هـ/ 1920، فلم يكن بينهما طريق في البر إلا طريق الحمّارة الذين ينقلون المسافرين والبضائع على البغال والحمير، يسافرون من تطوان إلى القصر ثم إلى فاس، فيقطعون المسافة في ثمانية أيام كاملة، إذا لم ينزل المطر وتفض الأنهار الكبيرة التي لم تكن عليها قناطر للمرور، فتنقطع السبل وتتعذر المواصلات. أما إذا وقع شيء من ذلك، فإن مدة السفر قد تصل إلى بضعة أسابيع.

وكانت عادة السفر مع الحمّار من تطوان إلى فاس لا تزال متبعة إلى تاريخ سفري، ونفس البعثة التي توجهت قبلي على فاس في هذه السنة، قد سافرت مع الحمّارة. إلا أن والدي

رحمه الله، حرصا على راحتي، أراد أن أسافر من طريق آخر أقصر مسافة وأكثر راحة بالنسبة للطريق السابق، وهو طريق القطار الحديدي والمراكب البحرية.

وبناء على ذلك، ركبت القطار من تطوان قاصدا سبتة... وكان سفري من تطوان يوم الأحد عاشر شوال سنة 1338 هـ/ 27 يونيو 1920.

وما زلت أذكر وجهي وقد بللته دموع والدتي العزيزة وجدتي الكريمة، وهل يمكن أن يغيب عن عيني منظر هاتيك القطرات التي سقطت على تلك اللحية الناصعة البياض، تلك الدمعات التي سكبتها تلك العيون الجميلة الزرقاء، عيون والدي الكريم، تلك العيون التي لم أرها تبكي في حياتي إلا ساعة وداعي. لقد ضمني والدي رحمه الله إلى صدره، وقبلني وبكى، ورضي عني ثم ودعني ودعا لي بكل خير.

ودق الجرس، فتحرك القطار، ثم غابت تطوان عن الأنظار، وكانت أول رحلة طويلة أقوم بها في حياتي.

ووصلنا سبتة، والمسافة بينها وبين تطوان 44 كيلومترا، يقطعها القطار في نحو ساعة ونصف...

أما رفيقي إلى فاس، فهو السيد محمد بن عبد الله الحجام. وقد نزلنا في سبتة بأوتيل إسباني، وقضينا فيها يوما وليلتين، ننتظر وصول الباخرة التي تحملنا إلى طنجة.

وفي يوم الثلاثاء، ركبنا باخرة إسبانية صغيرة تحركت بنا صباحا، وبعد ساعتين وصلت إلى مرسى القصر الصغير، الذي يسميه بعضهم بقصر المجاز أو قصر مصمودة.

وبعد نصف ساعة تحركت ثانية، وكانت الأمواج تتقاذفها، ومياه البحر تبلل أثوابنا، ومن لطف الله وصلنا ميناء طنجة سالمين بعد سير الباخرة نحو أربع ساعات...

وقد كان بإمكاننا أن نسافر من تطوان إلى طنجة مباشرة في الطريق البرية التي تبلغ مسافتها 60 كيلومترا، يقطعها المسافر على ظهور البغال في يوم واحد، إلا أن هذه الطريق كانت مقطوعة بسبب الحرب القائمة بين الإسبانيين وسكان القبائل الجبلية.

ولقد أقمنا بطنجة ثلاثة أيام ننتظر موعد الباخرة التي تسافر منها إلى الدار البيضاء، لأن السيارات العمومية لم يكن لها طريق معبد في ذلك التاريخ، كما أن القطار الحديدي لم يكن له وجود أيضا.

## [ 16 ساعة إبحارا من طنجة إلى الدار البيضاء]

وبعد ظهر يوم الجمعة، غادرنا طنجة قاصدين مدينة الدار البيضاء على ظهر الباخرة الفرنسية المسماة "دكالة"، وكان قيامها في الساعة الرابعة ونصف مساء، وباتت ليلتها سائرة، فوصلت مرسى الدار البيضاء في الساعة الثامنة ونصف صباحا. وكان ميناء الدار البيضاء في ذلك العهد غير مبني بناء يسمح بوصول البواخر إليه، فكانت البواخر ترسو بعيدة عن الشاطىء، ويركب المسافرون الفلك التي تنقلهم من الباخرة إلى البر.

وقد مكثنا في مدينة الدار البيضاء أربعة أيام قضيناها في ضيافة أمين الديوانة بها الحاج عبد الرحمان بريشة التطواني.

## [12 ساعة في القطار بين الدار البيضاء وفاس][327]

وفي يوم الأربعاء ركبنا القطار ثانية، فتحرك بنا في الساعة السادسة، ومر بمدينة مكناس، وفي الساعة السادسة مساء وصلنا مدينة فاس. وكنت مع رفيقي محمد الحجام أول من سلك هذا الطريق بين تطوان وفاس من طلبة العلم".

## الوضعة الجديدة من خلال :" الرحلة من أجل المصير ووحدة الهدف" سنة 1926

وفي 23 يونيو سنة 1926 رحل امحمد بنونة إلى المنطقة السلطانية وسجل يوميات هذه الرحلة تحت عنوان " الرحلة من أجل المصير ووحدة الهدف"[328]، والتي كان من نتائجها

---

[327] -في سنة 1926 سيستغرق السفر 8 ساعات ( الرحلات المغربية الداخلية، ص 91) و8 ساعات من فاس إلى الرباط (نفسه، ص 93)

تأسيس جمعية أنصار الحقيقة، أو الرابطة المغربية التي كان من عضويتها كل من أحمد بلافريج والمكي الناصري ومحمد بن محمد القباج وعبد الله كنون ومحمد داود وعلال الفاسي والفقيه غازي والمختار السوسي، ولها مكاتب في كل من الرباط والدار البيضاء وطنجة وتطوان وفاس.. وقد تطور التنسيق بين تلك المكاتب السياسية التي كانت النواة التي تمخضت عنها كتلة العمل الوطني بين شمال المغرب وجنوبه...

-السفر من تطوان إلى طنجة بالسيارة في ساعتين (أو ساعة ونصف)

- من طنجة إلى أصيلا في ساعتين إلا ربع

من أصيلا إلى العرائش ساعة و35 دقيقة (والنزول بأوتيل إسبانيا) الإقامة في الإوتيلات.

- السفر بالقطار من العرائش إلى القصر الصغير في ساعة ونصف

- **[12 ساعة في القطار بين الدار البيضاء وفاس عام 1920]** في سنة 1926 سيستغرق السفر 8 ساعات

- من آفي إلى الصويرة : 4 ساعات ونصف

- من أسفي إلى مراكش 3 ساعات (الإقامة في برك أوتيل)

- من مراكش إلى الدار البيضاء 6 ساعات إلا ربع

- من فاس إلى الرباط 5 ساعات و 20 دقيقة

- من الرباط إلى الدار البيضاء في السيارة : ساعتين

- من الدار البيضاء إلى طنجة بالسيارة 11 ساعة

---

[328] - نشرها مالك بنونة، ضمن أعمال ندوة عبد الله الجراري- الحلقة الرابعة- الرحلات المغربية الداخلية 1912-1956، تنسيق د مصطفى الجوهري، الرباط، 2005، ص73-100

# دور القروض في توطيد النفوذ الاستعماري بالمغرب
# في العهد اليوسفي

نادية الميماني
باحثة بكلية الآداب- ظهر المهراز فاس

عرف المغرب في عهد السلطان مولاي يوسف مجموعة من التحولات الإقتصادية ناتجة أساسا عن فرض نظام الحماية الفرنسية على البلاد.

و قد سعت فرنسا بموجب هذا النظام إلى تحقيق مكاسب اقتصادية مهمة، باستغلال ثروات المغرب المتنوعة، ولتحقيق هذه الأهداف بذلت إدارة الحماية مساعي متعددة لدى جهات مالية و حكومية مختلفة للحصول على قروض ضخمة و متنوعة قصد تجهيز المغرب بالإمكانات اللازمة لتيسير سبل استغلال ثرواته، ونظرا لأهمية هده القروض في توطيد السيطرة الفرنسية بالمغرب ارتأيت التطرق إليها في هذه المداخلة بالتركيز على محورين أساسيين هما:

- دواعي اهتمام الرساميل الأجنبية بالإستثمار في المغرب؛
- دور القروض في تأمين الظروف المناسبة للإستغلال الفرنسي بالمغرب.

## 1-دواعي اهتمام الرساميل الأجنبية بالاستثمار في المغرب

لعل ثروات البلاد المغربية الوفيرة كانت تثير أطماع الرساميل الأوربية منذ مدة طويلة، و بالفعل فإن التجهيز و التنمية و الاستغلال الإقتصادي فتح أمام رجال الأعمال آفاقا واسعة يوم تفتح البلاد أمام المقاولات الأوربية.وهذا ما يفسر تلك المنافسة القوية بين الرساميل الأجنبية من أجل السيطرة على السوق المغربية خصوصا منذ أواخر القرن التاسع عشر نتيجة التطور الذي حصل في وظيفة الأبناك، إذ ظهر نوع جديد من الأبناك يدعى بنك الأعمال،الذي اتجه

نشاطه إلى الإستثمار[329]، واحتل مكانة مهمة و صار يهيمن على كل مرافق الحياة الاقتصادية [330]. بخلاف أبناك الإيداع التي ظلت إلى حدود العقد السابع من القرن التاسع عشر هي النوع الوحيد من الأبناك التي تنحصر وظيفتها فيما سمي بعمليات البنك الخالصة من خصم الأوراق التجارية، وحسابات جارية وسلف على المدى القصير [331]، بينما اتجه نشاط أبناك الأعمال إلى الاستثمار. وفي هذا الإطار بدأت تقوم بتوسيع استثماراتها بإحداث المقاولات الصناعية و التجارية، والعمل على تمويلها.و مكنها ذلك من التحكم في جميع مرافق الحياة الاقتصادية فتقوت مكانتها داخل البلدان الرأسمالية، وتراكمت لديها أموال طائلة بدأت تبحث لها عن توظيفات بالخارج، لاسيما أن الطلب على الأموال داخل تلك البلدان كان قد قل في أواخر القرن التاسع عشر،مما نتج عنه انخفاض في سعر الفائدة[332].

و للحصول على الربح و الاستثمار الجيد للأموال نقلت الأبناك نشاطها إلى باقي بلدان العالم حيث كان سعر الفائدة مرتفعا، فدخلت بذلك في منافسة قوية من أجل السيطرة على الأسواق الخارجية،وللوصول إلى ذلك الهدف كانت تلتمس تدخل حكوماتها للسيطرة على الإقتراضات العمومية التي كانت تتطلع للعمل بها إذ تكون لبنك الأعمال في ذلك مزايا متعددة، فبالإضافة إلى الأرباح المباشرة التي يحصل عليها من تلك العمليات المالية فإنه يعزز مكانته بالبلاد ،ويمهد السبيل أمام إحداث مقاولات في الأشغال العمومية الكبرى من سكك حديدية ، وموانئ، وطرق ...و غيرها.[333]

---

329 - Edmond Baldy , " les banques d'affaires en France depuis 1900" , Paris 1922, P 110.

330 بيير كيلين،الإقتراضات المغربية : 1902- -1904 ،ترجمة وتقديم :مصطفى البرنوسي،د.د.ع ،1992 - 1993
كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط،ص22. -

331 - نفسه.

332 -نفسه.

333 – Edmond Baldy,op.cit,P 110.

وهكذا أضحى التوسع البنكي عماد التوسع الاستعماري للبلدان الرأسمالية في أواخر القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين ،وصارت الأبناك تمد حكوماتها بسلاح فعال (الأموال) ،وفي نفس الوقت تحصل منها على دعم لأعمالها، فارتسم مسلسل جديد للسيطرة الإستعمارية يقوم على استغلال الصعوبات المالية للبلدان المستهدفة لدفعها إلى التماس القروض، وحينئذ تقوم بمنحها قروضا ترتبط بمجموعة من الإمتيازات و التنازلات لفائدة الدولة المقرضة، تستغلها لفرض تأثيرها الإداري والسياسي.[334]

و في هذا الإطار وحدت المالية و الدبلوماسية الفرنسيتين جهودهما للسيطرة على المغرب وفسح الطريق أمام الرساميل الفرنسية، حيث استطاعت بفضل هذا التعاون توريط المغرب في مسلسل من القروض تمكنت بموجبه من وضع مالية البلاد تحت وصايتها ومن تم فرض وصايتها السياسية عليه كنتيجة حتمية للوصاية الأولى، وذلك بتوقيع معاهدة الحماية سنة 1912.

وقد استطاعت المجموعات المالية التي كان لها إشراف على قروض ما قبل الحماية كبنك باريس والبلاد المنخفضة و شركة شنايدر و بنك الإتحاد الباريسي أن تعزز مكانتها لدى الحكومة الفرنسية و ترسخ قدمها في المغرب بامتلاكها لمجال فلاحي و عقاري شاسع شكلته قبل الحماية، وكذا إحداثها لعدة شركات عهد إليها بمهمة تنمية وتنظيم السيطرة على المغرب، وفي مقدمة هذه الشركات نجد الشركة المغربية التي أسست سنة 1902 والتي تمثل بصفة خاصة مصالح شركة شنايدر ،وبنك الإتحاد الباريسي ، ثم البنك المخزني الذي أسس سنة 1907، و أخيرا الشركة العامة للمغرب التي أسست سنة 1912[335].

و إذا كان لهذه المؤسسات المالية والصناعية الكبرى دور في تدعيم الدبلوماسية الفرنسية قبل الحماية، فسيصبح لها دور هام في مساعدة إدارة الحماية لمواجهة المصاريف الضخمة التي كانت تتطلبها منها برامج تجهيز المغرب بالبنية التحتية اللازمة لاستغلال خيراته في أحسن الظروف.

---

[334] -بيير كيلان،الإقتراضات المغربية....م س ،ص 24.

[335] -ألبير عياش ، المغرب والاستعمار :حصيلة السيطرة الفرنسية ، دار الخطابي للطباعة و النشر ،الطبعة الأولى، 1985،ص 91.

وقد حرصت فرنسا منذ توقيعها لمعاهدة الحماية على أن تضع في المعاهدة نفسها قواعد سيطرتها المالية التي كانت تراها شرطا لابد منه لتوطيد سيطرتها السياسية و الاقتصادية في المغرب (الفصل 1 ) [336].

وللوصول إلى هذه الغايات الأساسية التي قادت فرنسا نحو المغرب كان لابد من مد البلاد بالتجهيزات الضرورية، الأمر الذي استلزم من إدارة الحماية إمكانات مالية ضخمة حتمت عليها اللجوء منذ سنة 1914 إلى الاقتراض.

فما هوالدور الذي قامت به القروض لتوطيد الاستعمار الفرنسي بالمغرب ؟ و ماهي أنواع القروض التي تم تسخيرها لهذا الغرض؟.

## 2- دورالقروض في تأمين الظروف المناسبة للاستغلال الفرنسي بالمغرب.

كان الاستغلال الفرنسي لخيرات البلاد يقتضي إعداد المغرب بالتجهيزات اللازمة لتوطيد السيطرة الفرنسية السياسية والاقتصادية وتمهيد الطريق أمام تدفق المستوطنين و استقرارهم، و تنقل جيوش قوات التدخل، و تيسير سبل استغلالهم لثروات المغرب الصناعية و الزراعية لذلك اهتمت إدارة الحماية بإنشاء مديرية الأشغال العامة منذ 1912 حيث عهد إليها بمسؤولية إنشاء الطرق، و الجسور و السكك الحديدية و الموانئ التي تقوم بها الدولة، و مراقبة النقل العام و توزيع الطاقة الكهربائية ، و إنشاء السدود ووسائل الري الأخرى ...[337]

وقد استلزم إنجاز هذه المشاريع الكبرى مبالغ مرتفعة، لم تستطع الميزانية العادية[338] للحماية تغطيتها، مما جعلها تلجأ إلى طلب القروض لتحمل أعباء التنمية الاقتصادية.

ويمكن تقسيم هذه القروض إلى نوعين:قروض مباشرة و أخرى غير مباشرة.

- بالنسبة **للقروض المباشرة** :هي مجموع الإقتراضات التي أبرمتها إدارة الحماية بضمانة الحكومة الفرنسية، و كان البرلمان الفرنسي يتابع استعمال أموالها التي كانت مبرمجة لمباشرة

---

336 - نفسه ، ص 95.

337- محمد خير فارس، تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب،دمشق،1972،ص 345

338- الميزانية العادية:تبين مصاريف الدولة العادية و الموارد الضرورية لتغطيتها.

الأشغال الكبرى وقد تم إنجاز قرضين مهمين على عهد السلطان مولاي يوسف سنتي 1914 – 1920.

حصلت إدارة الحماية على الترخيص بإبرام قرض 1914 بمبلغ 170.250.000 فرنك تحت ضمانة الحكومة الفرنسية، على أن يتم الاقتراض حسب الحاجات بدفعات يأذن بها مرسوم من رئيس الجمهورية يصدره بناءا على اقتراح وزيري الشؤون الخارجية والمالية.[339] وقد تم الرفع من مبلغ هذا القرض سنة 1916م إلى 242.000.000 فرنك،بسبب العواقب التي ترتبت على اندلاع الحرب العالمية الأولى .[340]

ومن المعلوم كذلك أن مختلف الأشغال التي رصد لها اقتراض 1914 تم تحديدها بالقانونين اللذين رخصا بإبرام القرض والزيادة في مبلغه،أي قانون 16 مارس 1914م وقانون 26 مارس 1916م ،وقد حددت هذه القوانين لكل فئة من فئات النفقات الاعتماد المحتمل لها. ونصت كذلك على توجيه ما يفضل من هذه التوقعات بمراسيم رئاسية إلى فئة أخرى من البرنامج العام .[341]

أما بخصوص قرض 1920 الذي سوف نركز عليه في هذا العرض لإبراز المبالغ الضخمة التي تم رصدها لإنجاز المشاريع الكبرى التي تخص البنية التحتية على الخصوص، فقد رخص قانون 19غشت1920م لإدارة الحماية باقتراض مبلغ 744.140.000 فرنك بضمانة الحكومة الفرنسية كذلك و خصص للأشغال التالية:

1- البنايات الإدارية.......................................44.690.000 فرنك

2- نفقات ذات طابع اقتصادي أو اجتماعي:

*الأشغال العمومية :

- تكوين الرأسمال الأصلي لاستغلالية الفوسفاط......36.000.000 فرنك

- الموانئ.............................................. 280.000.000 فرنك

---

[339] – مصطفى البرنوسي، جوانب من المسألة المالية بالمغرب على عهد الحماية :الميزانيات1912 -1925 (المنطقة الفرنسية) ،دكتوراه الدولة ،2004 -2005 ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ، ج 2،ص 300 .

[340] – نفسه، ج2 ،ص 355.

[341] – نفسه، ج2 ،ص355

- الطرق..............................................60.000.000 فرنك

*تنمية الموارد الطبيعية بالمغرب:

- الفلاحة و التجارة و الاستعمار..................30.000.000 فرنك
- الري الفلاحي..................................90.000.000 فرنك
- المياه و الغابات..............................15.500.000 فرنك
- الملكية العقارية(تسجيل أراضي الاستعمار)........5.500.000 فرنك
- الأملاك المخزنية..............................18.000.000فرنك.
- البريد والتلغراف والهاتف...................... 71.000.000فرنك.
- الصحة.........................................43.050.000 فرنك.
- التعليم.......................................40.400.000 فرنك.

3 – نفقات مختلفة:

- الفنون والمعالم التاريخية ........................10.000.000فرنك.[342]

يظهر من خلال هذه المعطيات أن قروض 1914و1920 شكلت الدعامة المالية الأساسية التي اعتمدتها إدارة الحماية لإعداد و تجهيز المغرب بالبنية التحتية الضرورية.

و قد استفادت كبريات الشركات الفرنسية من هذه القروض مثل شنايدر و هرسان التي استأثرت بكل المشاريع التجهيزية كالطرق والسكك الحديدية والموانئ وذلك رغم مبدأ الباب المفتوح (1906) المضمن في عقد الخزيرات[343]

و قد تمكن ليوطي الذي اعتبر بأن مرحلة إعداد المغرب تحتاج لحوالي عشر سنوات حتى يصير منتجا ،أن يقنع اللجان البرلمانية التي أصبحت تنادي بتخفيف التكلفة المغربية على ميزانية الميتروبول خاصة في فترة الحرب العالمية الأولى بجدوى القروض.[344] و اعتبر بأن كل نفقة يتم القيام بها بالمغرب سواء لإعداد الموانئ أو بناء السكك الحديدية أو تربية الماشية أو

---

[342] – البرنوسي،جوانب من المسألة...، م.س ،ج2 ،ص 355-356.

[343] – عبد الله العروي ،مجمل تاريخ المغرب،الجزء 3،الدار البيضاء،المركز الثقافي العربي،الطبعة الأولى،1990،ص 168 -169.

[344] – نفسه، ج3 ، ص 168.

الفوسفاط...أو غيرها تحمل في طياتها خدمة مهمة للمتروبول .وقارن بين ما استلزم إعداد مصر من إنجلترا من مجهود و ما استلزمته تونس و الجزائر من فرنسا .[345]

**القروض غير المباشرة:**

بالإضافة إلى قرض 1914 و 1920 ،عقدت إدارة الحماية قروضا غير مباشرة لفائدة بعض الشركات الفرنسية التي وافقت على ضماناته ،وتحملت الدين وهي حالة القروض التالية:

- قروض لشركة سكك (C.F.M)؛
- قروض لشركة الطاقة الكهربائية المغربية (E.E.M)؛
- قروض للشركة المغربية لتوزيع المياه والغابات (S.M.D).

و كانت هذه الشركات كلها تحت سيطرة بنك باريس والبلاد المنخفضة، مما يبرز سيطرة الرأسمال الفرنسي على معظم أعمال التجهيز مستفيدا من الضمانات والتخفيضات الضريبية التي منحتها له إدارة الحماية.[346]

- **القروض الخصوصية** : بعد سنة 1926م ستزداد النداءات على الرساميل الخصوصية و ذلك تماشيا مع الارتفاع الذي عرفته الشركات، فقد انتقل عدد الشركات من 340 شركة خلال سنة 1926م إلى 600 شركة في ظرف سنة واحدة.وبالاعتماد على مصادر هذه الرساميل يظهر أن14% منها مغربية بينما 76% الأخرى فرنسية و تبقى 10% لفائدة دول أخرى.[347]

- **القرض الفلاحي**: حرصت إدارة الحماية على تقديم أنواع مختلفة من الدعم المالي والتقني المباشر وغير المباشر للفلاحة الكولونيالية.

وفي هذا الإطار تم تأسيس صناديق القروض الفلاحية بظهير 15 يناير 1919 الذي نص على تأسيس الصندوق المركزي للقرض الفلاحي بالرباط وصناديق جهوية في كل من

---

[345]- البرنوسي ،جوانب من المسألة... ،م س،ج 2،ص 428.

[346]- ألبير عياش،م س ،ص 143.

[347] - René Hoffherr ,l'economie marocaine , librairie du recueil sirey ,Paris 1932,PP 299-300.

الرباط و القنيطرة و دار بلعامري، كما ينظم الظهير " الصناديق المحلية "والجمعيات التعاونية " و "الصناديق المركزية للقرض الفلاحي ".[348]

وفي 9 ماي 1923م صدر ظهير يلغي الصناديق المحلية الموجودة و يؤسس ثلاثة صناديق مركزية هي كالتالي:

- الصندوق المركزي للشمال بالرباط؛
- الصندوق المركزي للجنوب بالدار البيضاء؛
- الصندوق المركزي للمغرب الشرقي.

وكان لهذه الصناديق فروع محلية تشتمل على مكاتب الحسم المحلية، و هي التي تشرف على طلبات القروض و تقوم بتحويلها إلى المجلس الإداري المركزي الذي يتولى مناقشتها و البت فيها.

و يمكن تقسيم صفقات القرض الفلاحي إلى قسمين:

1- صفقات القرض الفردي: تقدم القروض إلى المستوطنين المزارعين الأوربيين، و تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

* قروض قصيرة المدى :لا تتعدى مدتها 10أشهر؛
* قروض متوسطة المدى : 10سنوات؛
* قروض طويلة المدى : من 6 إلى 30 سنة.[349]

2-صفقات القروض الجماعية الطويلة المدة : مخصصة للشركات .

قروض شركات التعاونيات الأهلية:كانت شركات التعاونيات تمنح للأوربيين كل التسهيلات للزيادة في الإنتاج كما كانت تساعد السكان المغاربة على تفادي الكوارث كالمجاعة و الفقر، و كانت القروض التي تقدمها نقدية أو عينية .[350]

هذا بالإضافة إلى أشكال أخرى من القروض لا يتسع المجال هنا لذكرها كاملة كانت تسعى كلها لتزويد إدارة الحماية و المستوطنين الفرنسيين بالإمكانيات المالية اللازمة لتوطيد النفوذ الاستعماري الفرنسي بالمغرب.

---

[348]- أحمد تافسكا ، الفلاحة الكولونيالية،في المغرب 1912 -1956 ،مطابع امبريال،الرباط ،الطبعة الأولى 1998،ص 84.

[349]-André Collez op.cit, P-P 336-337.

[350]- Ibid,P 334.

**خلاصة :**

هكذا يتضح لنا من خلال هذا العرض الموجز أن إدارة الحماية سعت من خلال نهجها لسياسة القروض إلى تكميل العمل العسكري بسياسة اقتصادية مكثفة من خلال تخصيص المغرب بمشروع واسع من الأشغال العمومية الكبرى و تشجيع الاستثمارات و حركة الرساميل، وذلك بغية وضع بنية تحتية تسمح بتوحيد مختلف الجهات المغربية و تسهيل عملية الاستغلال الفلاحي و المنجمي و البشري و توجيهها نحو الميتربول.

كما أن الأشغال الكبرى و المشاريع المتعددة التي سعت إدارة الحماية إلى إنجازها استنادا إلى هذه القروض كان لها تأثير سياسي، و ذلك بإيجاد مناصب الشغل للفئات العريضة من المجتمع المغربي، و بالتالي إبعادها من الانخراط في الفعل النضالي و المقاومة و إدماجها في النظام الاستعماري الفرنسي.

كما أدت هذه القروض إلى إثقال المخزن المغربي بالديون، مما دفع بإدارة الحماية إلى نهج سياسة أكثر قساوة، و التي تتمثل في السياسة الضريبية التي أثقلت كاهل المغاربة.

# موقف المغاربة من التقنيات الحديثة
## التلغراف نموذجاً

لطيفة الكَندوز
كلية الآداب – الرباط

عرف المغرب منذ بداية القرن العشرين عدداً من المستجدّات الوافدة عليه من الخارج، والتي ازداد انتشارها مع فرض الحماية، لتتدرج البلاد إلى نمط جديد من الحياة من الوجهة التقنية والاقتصادية والتعليمية والفكرية وغيرها، مما أثار الكثير من الجدل والخلاف داخل الأوساط العلمية، مابين مؤيد ومعارض لهذه المستجدَّات الواردة من الغرب.

وسأحاول من خلال هذا العرض إبراز كيفية تعامل المغاربة مع الحضارة الطارئة إيجابا أو سلباً، مع التركيز على مسألة علمية شغلت أفكار كثير من الناس بالمغرب آنذاك وكان لها صدىً كبيراً بالأوساط العلمية، وصدرت في شأنها العديد من الفتاوى، ألا وهي مسألة العمل بالتلغراف خصوصاً في المسائل الشرعية.

لقد ظهرت خلال هذه المرحلة مجموعة من النصوص المنوعة، لتطرح المرونة الفقهية إزاء المستجدات النافعة، وفي مقابل ذلك يأتي الرفض لما يتصادم مع تشريع البلاد: منجزات وأفكاراً، وظهرت هذه المواقف في رسائل على حدة، أو في نصوص ضمن مؤلفات.

يقول أحمد العمراني في افتتاحية تقييده المسمى"**الإعلان بحرية الإنسان، في التكلم بأي لسان، بدلائل السنة والقرآن**":( وبعد، فإن أُناساً لا يفرقون بين حلال وحرام...أنكروا على من يتعاطى تعلم اللغة التي ليست عربية، على الوجه المرضي والحالة السنية، ولمزوه بما لا يليق...)

كما وضع محمد بن محمد بن العياشي سكيرج تقييداً سماه:" **طرفة الأدباء بإباحة ضوء الكهرباء**".

هذه الكتابات تشرح الموقف المتشدد للعديد من المغاربة إزاء المستحدثات الأوربية،ورفضها التعامل معها، لتصل لحد التحريم خصوصاً أن هاته التحولات لم تمس أذواق وعادات السكان فحسب، بل امتدت أيضا إلى الميدان الديني، فظهرت العديد من الفتاوى إزاء بعض الإشكالات التي جدّت مع الأنظمة الحديثة، فكيف يفسر موقف المغاربة هذا؟ وما هي مبرراته؟

يجيبنا عن هذه الأسئلة سعيد بن سعيد بقوله: "والحق أن المواقف المغربية من (الغرب) كانت في المغرب مختلفة بين إرادة التحديث ورفض الاستعمار، بين الرغبة في قبول(الإصلاحات) والحفاظ على الهوية والاستقلال المميزين"([351]).

فالنفور من التحديث قد يكون بدافع الخوف من أن تمس هذه الحداثة الغازية هويتهم الثقافية، وقد عبر أبو عبد الله السليماني عن هذه الرؤية المزدوجة تجاه المدنية الأوربية وحداثتها قائلاً:"أرى دول الاستعمار في هذا الزمان مهما عمروا بلاداً ونزلوا بساحتها بثوا فيها الأمنية واستنتجوا خيراتها وربطوا بين مدنها أسلاكاً تلغرافية لجلب الأخبار وفتحوا طرقاً حادة مرصّفة للمارة والعربات والمركبات وغيرها، وبنوا على جميع الأنهار ومجاري المياه والشعاب حسوراً في غاية الإتقان محكمة البناء وغرسوا الأشجار المتنوعة...إلا أنهم مع هذا كله يشينون هذه الأعمال المفيدة بنشر مفاسدهم بين العامة...زد على هذا منازعة الوطني في موارد رزقه ومزاحمته في ساحة بيته يخادعونه بزبرجهم ويبهرونه ببهرجهم حتى يستولوا على بلاده ويعمدوا إلى إفساده"([352])

هذه الرؤية الثنائية إزاء المستحدثات الأجنبية تفسر سياسة العزلة والانطواء التي لجأ إليها المغاربة، ورفضهم التجديد والتغيير أو التعامل مع الحضارة الغربية، مما جعل بعض الكتابات الأجنبية تصف المغاربة بالانغلاق والجمود والتزمت، يقول سان روني طاياندي **Saint René Taillandier**، سفير فرنسا بطنجة في إحدى رسائله إلى وزير الخارجية ديلكاسي**Delcassé** في

---

[351]- سعيد بن سعيد، الاجتهاد والتحديث، مركز دراسات العالم الإسلامي، ص40.وانظر أيضاً فائزة البوكيلي، تقديم وتحقيق مخطوط: جهود الإسلام في تمدين البشرية وترقية الإنسانية لأبي بكر زنيبر، د.د.ع، مرقون، الجزء الأول، ص 17.

[352]- أبو عبد الله السليماني، اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، مطبعة الأمنية، 1971، ص171.

يوليوز 1901" هذا بلد لم يرغب لحد الساعة في اتخاذ السكة الحديدية، أو خط التلغراف، أو استغلال المناجم أو شق طرق صالحة للعربات". ويصف أ.أوبان E.Aubin سكان المغرب بكونهم أشد الشعوب انغلاقاً في الشمال الغربي الإفريقي. وخير مثال عن التأويل الاستعماري المشوه، الكيفية التي وصفت بها حادثة الدار البيضاء سنة 1907، فقد اعتبر هجوم السكان على عمال السكة الحديدية من باب السعار الذي أصاب هؤلاء السكان المتوحشين لما سمعوا صفير القاطرة. وقد برّر هذا الوصف القَنبَلة التي تعرضت لها المدينة([353])

ولم تنفرد الكتابة الاستعمارية بهذه الأحكام، بل صارت معها في نفس الاتجاه بعض الكتابات المشرقية وفي ذلك يقول أسعد كرم "إن المغاربة لم تكن لهم معرفة بأحوال هذا العالم، وما هو عليه من التقدم، وظنوا أنهم في غنى عن كل شيء، ولا تُعوزهم حاجة، ولا يبغون تغييراً أو تبديلا"([354]). ونفس الرأي تبناه محمد بن مصطفى المشرفي، صاحب" **الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية**"، والذي يرى أن المغاربة على اختلاف أجناسهم من عرب وبربر(هم على غاية التوحش وشدة النفور من هذه المخترعات التي لم يألفوها ولا رأوها قط)([355]).

هذه الكتابات تظهر الموقف السلبي للمغاربة الرافض لمعظم المستحدثات الأوربية، على اعتبار أنها تمس أذواقهم، وتلحق أضراراً بعاداتهم وتقاليدهم، وقد كان الناصري من مؤيدي هذه الفكرة، حين استنكر اقتراح بعض الدول إصلاح وسائل المواصلات بالمغرب، وعبر عن ذلك بقوله:"وإنما النصارى جربوا سائر البلدان، فأرادوا أن يجربوا هذا القطر السعيد الذي طهره الله من دنسهم"([356]). كما رأى البعض أن المستحدثات الأجنبية ستكون الطريق التي تؤدي إلى التسرب الأوربي إلى المغرب، وفرض سيطرته على البلاد، وهو ما جاء على لسان ابن زيدان

---

[353] – عبد الرحمان المودن ، بعض المواقف المغربية من المستحدثات التقنية الغربية في القرن التاسع عشر، ندوة الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1983، ص368.

[354]– أسعد كرم، المغرب الأقصى ولغته، مجلة المقتطف، عدد فبراير 1903، ص 135.

[355]– المودن، المرجع السابق.

[356]– أحمد خالد الناصري،الإستقصا، ج4، ص 254.

حين قال:" وكل هذا كان اتقاءً لما يؤدي إليه ذلك من التدخل الأجنبي، والتنافس الدولي"([357]) وهذه من أهم العوامل التي جعلت المغرب آخر دولة في العالم العربي تقع تحت نير الاستعمار.

ولكن بعد أن فرضت الحماية على المغرب، صار لزاماً على المغاربة الاحتكاك بالنصارى الذين حملوا معهم ثقافة حديثة وغربية على المغاربة، تمثلت بالأساس في العادات، ونمط العيش، بالإضافة إلى الآلات والأدوات الحديثة التي كانوا يستعملونها من درّاجة هوائية أو نارية وسيارة وطائرة و تلفون و تلغراف... وما إلى ذلك من أدوات حملت معها بريق الحداثة وجاذبيتها، استهوت مجموعة لا يستهان بها من المغاربة، إلا أن مجموعة أخرى من المغاربة وقفت منها موقف الرفض لتصل لحد التحريم خصوصاً أن هاته التحولات لم تمس أذواق وعادات السكان فحسب، بل امتدت أيضا إلى الميدان الديني، فظهرت العديد من الفتاوى إزاء بعض الإشكالات التي جدّت مع الأنظمة الحديثة، و كمثال عن ذلك ما حدث حول مسألة العمل بالتلغراف، وهي تتعلق بورود خبر هلال عيد سنة ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة وألف(1915) على السلطان المولى يوسف بواسطة التلغراف، وسؤاله للعلماء حين حضروا لتهنئته بالعيد عن هذا الأمر الوارد عليه هل يلحق بباب النقل أم الثبوت؟ خصوصاً لعدم تقدم نظيره عند السلف وخلو مصنفات المذهب من ذكره. فعيّن وزير العدلية آنذاك الشيخ أبو شعيب الدكالي، لجنة من العلماء للنظر في مسألة العمل بالتلغراف في الأمور الشرعية، خصوصاً هلال رمضان وشوال. ونَصُّ السؤال على أن الهلال إذا ثبتت رؤيته بالرباط مثلاً ثبوتاً معترفاً به من الناحية الشرعية، وقام المكلف هناك ببعث خبر ثبوته إلى مدينة أخرى من المغرب بواسطة التلغراف، فهل يعتبر ذلك الثبوت صحيحاً في نظر الشرع ؟ وتجري عليه أحكامه من صوم وإفطار؟

لقد أثارت هذه المسألة الكثير من الجدل والخلاف بين العلماء حتى أصبحت الشغل الشاغل لأفكارهم، فانقسموا بسبب ذلك إلى قسمين: قسم رأى فيها حراما لا يجوز استعمالها في نقل خبر رؤية هلال رمضان أو العيد، باعتبارها مملاةً من طرف الأجانب، ويديرها أحياناً نصارى مما يؤكد تحريمها، وباعتبارها أيضا بدعاً تغزو المجتمع التقليدي وتهدد قيمه"فكل تجديد

---

[357] عبد الرحمان ابن زيدان، الإتحاف، ج2، ص501.

بدعة"، مع إصرار-هذا القسم- على الرؤيا العينية ونقل خبر الرؤيا كما هي العادة منذ القدم(صوت المدافع، رؤية النار على الجبل، والقنادل المستنيرة على المنار، وسماع صوت النفير).أما وجهة النظر الأخرى التي تبناها القسم الآخر الذي يمثله المتنورون من العلماء، فقد رأت في آلة التلغراف آلة كسائر الآلات لا ضرر يأتي من استعمالها في المسائل الشرعية، بل قد يأتي منها النفع والخير للمجتمع لسرعة نقلها الخبر.

ونورد هنا بعض الفتاوى التي ناقشت هذه النازلة :

خصص محمد بن عبد الوهاب بن عبد الرازق الفصل السابع من كتابه(**العذب الزلال في مباحث رؤية الهلال**) في الحديث عن النقل بوسائل التبليغ كالتلفون وغيره، تحدث في البداية عن الوسائل القديمة المستعملة في نقل خبر الهلال سواء للصوم أو للإفطار كإيقاد النار أو البارود وحكم الشرع في ذلك، ثم أورد جواباً لأحد علماء السودان ردّ فيه على الإمام ابن السراج القائل: أن الهلال يثبت بإيقاد النار، وعلى الفقيه محمد الرهوني القائل بثبوته أيضاً بالبارود، وعلى مفتي الديار المصرية محمد عليش القائل بثبوته أيضاً بالتلغراف، زاعماً هذا المجيب(العالم السوداني) أن الشرع حصر ثبوت الهلال في ثلاثة أسباب: رؤية العدلين أو المستفيضة وكمال شعبان، إذن لايجوز إحداث سبب رابع لثبوته. وقد رد ابن عبد الرازق عن ذلك بكون تلك الوسائل( النار والبارود والتلغراف) تدخل في باب النقل والإخبار وليس الإثبات، وتحقيق ذلك أن أهل ذلك المحل، أي محل البارود والنار والتلغراف، ثبت عندهم الشهر بموجبه ولا إشكال، ولما أرادوا نقله لغيرهم بسرعة، كي يعزموا على الصوم ليلاً أو يصبحوا بنية الإفطار وتعذر النقل إليهم بالرسول بسرعة، أنابوا تلك الأشياء لسرعتها، فتلك الأمور الثلاثة إنما هي من باب النقل لما ثبت، وهذه الأشياء نائبة عن التبليغ بالكلام للضرورة الداعية لذلك، إذ التلغراف إنما هو آلة لتبليغ خبر ثبوت الرؤيا التي هي أحد الأسباب التي نصوم ونُفطر بها.كما أورد ما جاء في نوازل الفقيه المصري علّيش حول مسألة العمل بالتلغراف في نقل خبر الهلال وإقراره وتأييده لهذا العمل الذي صار قانوناً معتبراً في العديد من الدول الإسلامية([358]).

[358]- ابن عبد الرازق: **العذب الزلال في مباحث رؤية الهلال**، ص 144- 147.

أما محمد العابد بن سودة فقد وضع تقييداً في الموضوع سماه"**التعاضد والائتلاف بقبول خبر مدير ءالة التلغراف**"ركز في فتواه على مدير الآلة أي مشغل آلة التلغراف لكونها جامدة لا تتحرك إلا بمحرك، وهل هو ناقل أم مخبر؟ وبعد مناقشة الأمر ومقابلته بمقياس الشرع، خلص إلى أن مدير التلغراف ما هو إلا مخبر وظيفته بعث الخبر لا غير فهو بمنزلة عون القاضي وشرطي العامل والمنادي في الأسواق للإعلام بالعيد أو ما في معناه الذين ينقلون أخبار الأحكام، بشرط السلامة من جريمة الكذب سواء بالنسبة للناقل أو المخبر. وحيث أن مدير التلغراف في هذه النازلة بعث بالخبر للسلطان بطلب من باشا مكناس بعد ثبوت الرؤيا شرعياً وهو شخص يعتد بكلامه،فإن الخبر جائز وجب العمل به.

ويرى بوجندار في هذا الباب بأن حامل البريد وعامل التلغراف كل منهما واسطة في إيصال الرسالة من مرسلها وليس واحد منهما هو المرسل والمخبر فلا يلتفت إليهما ويستوي فيهما أن يكون عدلاً أو غير عدل، مسلماً أو غير مسلم، واستشهد بما جاء عن الرسول(صً) عندما بعث رسائله إلى أباطرة الفرس والروم وغيرهم، استعان على إيصالها بمن كانوا على غير الإسلام.([359])

وقد عرّف محمد بن مصطفى بوجندار في كتابه "**الإنصاف في مسألة العمل بخبر التلغراف**" بمعنى التلغراف([360])لغوياً وعلمياً، مبرزاً أهمية استعماله في سرعة نقل الأخبار،

---

[359]- محمد بن مصطفى بوجندار، **الإنصاف في مسألة العمل بخبر التلغراف**، طبعة حجرية1915/1334، ص6-7.

[360]- التلغراف أو ما صار يعرف باسم البرق، كلمة مأخوذة عن اليونانية وتعني « télé » البعد «graphein » كتابة، برز التلغراف إلى الوجود سنة1834/1252، وأول خط تلغرافي وضع بين مدينتي باتليمور وواشنطن بالولايات المتحدة الأمريكية، أشرف على وضعه الفزيائي الأمريكي صمويل مورس(1791-1872) الذي يعتبر المكتشف الحقيقي للتلغراف في صورته المألوفة.وقد عرف المغرب استخدام التلغراف في العقد الأول من القرن العشرين، وعهد إلى تشغيله سنة1907/1325 بموافقة السلطان مولاي عبد العزيز إلى شركة خاصة"الشركة المغربية للتلغراف"، حيث أصبح المغرب قبل الحماية يتوفر على

خصوصاً في خبر ثبوت هلال رمضان وشوال، معتمداً في ذلك على الأحكام الشرعية، وعلى فتاوى فقهاء المشرق في المسألة، كما أشار الكاتب إلى انتشار التلغراف بين الأقطار واستعماله من طرف الدول الإسلامية، ومن جملة ما قاله في هذا الصدد( هذه المسألة من المسائل التي أصبح العمل بها اليوم جارياً في مشارق الأرض ومغاربها ومحل اتفاق بين كافة الأمم الراقية الذين رضعوا ثدي المعارف وغذوا بلبان لبنها ولُبابها، ولكن نحن معشر المغاربة ويا أسفي أبينا إلا الخلاف والاختلاف وسلوكَ مهيع التعصب والاعتساف فبقيت المسألة مشتبهة على الكثير لعدم الإنصاف).

ومن جهته عالج عبد الله الفاسي في كتابه **"سيوف الحق والإنصاف لردع من لم يقل بالعمل في ثبوت رؤية الهلال بخبر التلغراف"**، قضية الاجتهاد في الإسلام، منتقداً الفقهاء الذين يأبون إلا أن يكونوا عقبة أمام تقدم المسلمين علمياً وأدبياً، داعياً إياهم إلى الخوض في جميع قضايا العصر، لأن لكل زمن شبهه ولكل وقت سلاحه، طالباً منهم دراسة الأشياء وقياسَها قبل معارضتها والفتوى فيها، لأنهم أمام تيار جارف من سيل المدنية و التجديد، لامناص لهم من الوقوف أمامه وقفة الرجل العاقل المفكر الذي يعرف كيف يعالج الأشياء بذهنه. وقدم الفاسي أمثلة عن فتاوى بعض الشيوخ المتقدمين التي تجيز بعض المسائل مراعاة للمصلحة العامة، معتبراً استعمال التلغراف في إبلاغ خبر ثبوت رؤية الهلال يدخل في باب المصلحة العامة للمسلمين.

كما صار محمد بن عبد السلام الطاهري في كتابه **"كمال الاعتراف بالعمل بالتلغراف"** في نفس اتجاه الفتاوى السابقة التي أجازت العمل بالتلغراف.

وقد حسم السلطان مولاي يوسف في نازلة التلغراف بعد ما رفعت إليه نتيجة مفاوضة أهل العلم، بإقراره العمل بالتلغراف في المسائل الدينية والعملية، موجهاً في نفس الوقت انتقادا للعلماء المتعصبين على لسان الصدر الأعظم. ملخص ما جاء فيه«لقد استقبح مولانا أيده الله صدور هذا الفعل الذميم منكم وعدّه من الطيش والتعمق في الدين والتعصب الأعمى حيث أن

---

ست محطات تلغرافية بكل من طنجة والدار البيضاء والرباط والصويرة وفاس وصفرو.أنظر ذلك بتفصيل في **"معلمة المغرب"** الجزء 8، سنة 1995/1415،ص2520-2521.

المسألة منصوصة وجريان العمل بها لدى جميع دول المسلمين في غير هذه الأيالة موجب للعمل بها ورافع لكل إبهام ولبس ويأمركم مولانا أعزه الله بالرجوع عن هذه الأفكار العقيمة والمبادرة إلى امتثال الأوامر المخزنية وعدم التفرقة بين ما يصدر منها مشافهة أو كتابة أو بواسطة التلغراف فإن المخزن يحتاط فيما لا يحتاط غيره فيما يصدره جازماً به. وفي صدر الكتاب وقعت حكاية الإعلام بالثبوت ثبوتا شرعيا عند قاضي مكناس أولا ثم الإعلام ثانيا بثبوته ثبوتا شرعيا أيضا لدى الجناب الشريف المتره عن التهاون سيما في مثل هذه الأمور التي هي من أركان الدين الإسلامي الحنيف معتمدا أعزه الله على التلغرافين المذكورين.ومع الإعلام صدر ما صدر مما ظهر منه تهاونكم بالأمور المخزنية ونسبتكم الضلالَ لكل من يستعمل التلغراف في مهمات الأمور في سائر أقطار المعمور...الخ »([361]).

هذه الفتاوى توضح الجدل القائم حينها حول قبول أو رفض المغاربة التعايش مع المستجدات الأوربية وإدماجها في حياتهم العامة، خصوصاً أن هاته المستجدات لم تمس أذواق وعادات السكان فحسب، بل امتدت أيضا إلى الميدان الديني.كما تطرح هذه الفتاوى، المرونة الفقهية التي بدأت تظهر حينها إزاء المستجدات النافعة في المسائل الشرعية، وتطرح كذلك قضية تدخل السلاطين للحسم في بعض النقاشات الدائرة بين العلماء، وإقرار ما فيه مصلحة للبلاد مع التركيز على السند الشرعي.

ويمكن اعتبار عهد السلطان مولاي يوسف، بداية تعامل المغاربة بشكل إيجابي مع المستحدثات التقنية، سواء في الحياة العامة أو في المسائل الشرعية.

---

[361]- عبد الله الفاسي، سيوف الحق والإنصاف،مرجع سابق، ص 57-58.

# المحور الثالث : وثائق ونصوص

# مقاربة قصيدة : الخريدة الغيداء في وصف الدار البيضاء
# للشاعر محمد بن يحيى الصقـــلي

الصادقي العماري
أستاذ التعليم العالي

تعد قصيدة "الخريدة الغيداء في وصف الدار البيضاء " للأديب المغربي محمد بن يحيى الصقلي، من القصائد النادرة في الأدب المغربي الحديث، وذلك بالنظر الى زمن نظمها وطولها وموضوعها ([1]) ومع هذه الأهمية، لم تحظ بدراسة أو تحليل أحد من المهتمين بالنقد الأدبي أو التاريخ، و لم يرد عنها في المصادر والمراجع الأدبية والتاريخية غير إشارات محدودة، فقد أشار إليها العلامة المرحوم عبد الله الجراري في كتابه : التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين ([2]) . كما ذكرها محمد أديب السلاوي في كتابه: الشعر المغربي- مقاربة تاريخية -([3]) ، إلا أنه أخطأ الصواب لما عدها ديوانا للشاعر محمد بن يحيى الصقلي ، والواقع غير ذلك ، إذ ليست غير جانب مما أبدعه الشاعر ، أما البحاثة المرحوم محمد المنوني ، فلم يورد لهذا ذكرا في كتابه : المصادر العربية لتاريخ المغرب -الجزء الثاني -، مع أنه نوه بالشاعر وأثبت له منجزات أخرى ([4])

لمقاربة هذه القصيدة بدا لنا أن نسلك الخطة الآتية :

* معالم من حياة الشاعر ومنجزاته وعصره
* تحليل القصيدة وفق ما يأتي من عناصر :

1- نوعية النص وظروفه العامة؛
2- دلالات القصيدة ومكوناتها؛
3- تراكيبها وصورها ومعجمها؛
4- مظاهر الوزن والإيقاع؛
5- ملامح تقييمية.

* التعريف بالشاعر وعصره وآثاره

هو أبو عبد الله محمد بن يحيى بن الرشيد الصقلي الحسيني، يبدو أنه من مواليد فاس، أقام بالدار البيضاء حيث فتح مكتبة تعرف بالمكتبة الشرقية، وبحكم مهنته، فقد تسنى له أن يوسع مداركه بالإطلاع على معارف عصره وماكان رائجا من أفكار، خاصة ما يتعلق باتجاهات النهضة والإصلاح، ومن ثمة لاشك في أنه كان بصيرة بالحركات التحررية والمنجزات الأدبية بالمشرق العربي، ومن ذلك حركة البعث والإحياء ثم الحركة الرومانسية وما واكبهما من دعوات سلفية جديدة وتطلعات وطنية وقومية، وتوجهات ليبرالية.

أما مآل الوضع في المغرب، فإن المستعمرين الفرنسيين والإسبان قد بسطو سيطرتهم على مجمل المغرب خاصة الشمال والوسط ، وبقيت مقاومة شعبية في الجنوب كما قامت مقاومة في الشمال بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي، هذه المقاومة الشعبية، مع ما اتسمت به من جرأة وتضحية إلا أن هناك خللا اعتراها يتمثل في ضعف الإمكانات والقدرات الحربية ونقص في التنظيم والتنسيق، وقصور في إدراك السياسة الدولية :

إن المتنورين العارفين بأحوال العالم، وبخفايا المؤامرات الجارية بين مختلف الدول – من أمثال الشاعر الصقلي – كانوا يعلمون أن المقاومة من مظاهر الوطنية الصادقة النابعة من عمق الإيمان وأقوى دلالة على رفض الاحتلال أو التبعية وإن تسنى لهذه المقاومة أن تحقق إنجازات وتحرز انتصارات بطولية، عرقلت بسط المستعمر لسيطرته، ورسخت مبدأ الوطنية في النفوس، وبذرت بذور الأمل في الحرية، إلا أن هذه المقاومة المسلحة لم يكن في وسعها أن تمنع الإحتلال ولا أن تصل إلى حد تحقيق الجلاء، بعدما حصل عليه المستعمر من تفويض دولي حيث جرت اتفاقات بين الدول لاسترضاء مختلف الأطراف، بالإضافة إلى ما للمستعمر من مقدرات وقوات وعتاد و تخطيط وتنظيم وقدرات علمية وصناعية واحتلاله لمواقع استراتيجية – **وجدة الدار البيضاء**-

لقد حدثت نقلة في التفكير الوطني، تمثلت في التطلع إلى ضرورة اكتساب المعرفة، وترسيخ الوعي الوطني، وحتمية مواجهة المستعمر بالأساليب النضالية السياسية، بعد أن تعذر

الانتصار عليه أو صده بالمقاومة المسلحة ،إن التجربة التي اجتازها الوطن ثبتت الآمال في الوجدان الجماعي، وبدأت بوادر لتكون رأي عام وطني، وأن حقوق المغرب لن تضيع مهما طال الزمن نستطيع أن نستنتج أن الشاعر محمد بن يحيى الصقلي ليس بعيدا عن هذا الإحساس الوطني بحكم مكانته وموقعه وثقافته. ومعايشته للأحداث، ويتضح ذلك في آثاره، ومن صدق وطنيته وتطلعه الى التحديث ورغبته في توعية مواطنيه، قيامه برحلة الى المشرق حيث زار مصر وسوريا وفلسطين وتركيا، وكانت هذه الرحلة سنة 1928.

هذه الرحلة مكنت الشاعر من معاينة ما كان يعرفه المشرق من نهضة في مختلف المجالات العمرانية والثقافية والفكرية. وما كان يروج على مستوى الطبع والنشر والصحافة من إحياء للتراث وترجمة للآراء والمعارف الحديثة وما تنجزه الشخصيات المتزعمة للإبداع والأفكار السلفية الجديدة والتوجهات السياسية الوطنية التحررية ولا شك في أنه تمكن من الاتصال ببعض تلك الشخصيات من رجال الفكر والآداب والسياسة والإصلاح ورأى ما تقوم به من نشاط بالمنتديات من خطب ومحاضرات ونشر في الصحف وتأليف المصنفات، ورأى إقبال المواطنين على العلم والتعلم، وذلك كله حاصل بالمشرق في وقت مازال فيه وطنه المغرب يلتمس طريقه للنضال السياسي والنهضة الفكرية والعمرانية، من أجل استرداد حقوقه التي سلك الاستعمار أساليب مختلفة، من مؤامرات وإغراءات وتحايلات في الداخل والخارج مع لجوئه إلى القوة العاتية لسلبها وبسط نفوذه.

عمد الشاعر الكاتب محمد بن يحيى الصقلي إلى نشر رحلته إلى تركيا — خاصة — في جريدة السعادة من عدد يوم الخميس فاتح نوفمبر 1928 الى عدد يوم السبت 23 فبراير 1929 ([5]) ويبدو جليا أن ما كان يتوخاه الشاعر الكاتب من نشر هذه الرحلة يمكن فيما تضمنته من أوصاف لواقع تركيا وهي آخذة في تحقيق التجديد في مجالات الحياة قبل أن يعتري مسلكها التطرف والمغالاة إلى حد طمس هويتها وتنكر لتراثها وثوابتها وأصالتها. الأمر الذي جعل الكثيرين يعرضون عن النهج الذي سلكه مصطفى كمال إذ كان عدد من دعاة الإصلاح يتطلعون أن تنهج حركته نهجا قويما إلا أن ظنهم خاب بعدما صار يتخذ قرارات اتسمت بالغلو والتطرف باسم التجديد والإجهاز على التقليد .

بالإضافة إلى الرحلة المذكورة ترك محمد بن يحيى الصقلي ديوانا تضمن أغراضا شعرية متنوعة ومن ذلك : مساجلات وتشطيرات وتخميسات لإبداعات سابقة، وكذا لإبداعات معاصريه، وعلى العموم، يلاحظ أن أشعاره تدل على بواكير النهضة الشعرية المغربية أثناء العشرينات وبداية الثلاثينات من القرن العشرين وهذا الديوان ليس في متناول الجميع لأنه في حوزة أحد الخواص. على حد ما ذكره البحاثة المرحوم محمد المنوني ([6])من جملة آثاره الشعرية قصائد ومقطعات غزلية دعا هذا المجموع :" نبذة الزهرائيات ،وقد تضمن أيضا أشعار غيره من أدباء عصره ، أمثال : محمد الجزولي ، ومحمد بوجندار ([7])

في نطاق آثاره ايضا ، الشاعر تشطير لقصيدة أم هانىء في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم . توجد في الخزانة الحسنية تحت رقم 2638، كما توجد في الخزانة العامة تحت رقم P.1270 ([8]).

من جهة أخرى لمحمد بن يحيى الصقلي كناشة مودعة في الخزانة العامة تحت رقم 155. ك ([9]) ومن المعلوم أن الكناشات عادة ما تتضمن معلومات شتى، ومن ذلك ما يتصل بحياة الكاتب أو ما وقف عليه وعاينه أو اطلع عليه أو سمع به، وهذه الكناشات تعد من المصادر التي من شأنها أن تغني حصيلة الباحث لما تلقيه من أضواء على الفترة التي عاش أثناءها كاتبها.

يتبين لنا من اللمحات الآنفة الذكر، أن الشاعر الكاتب محمد بن يحيى الصقلي، يعد من الأدباء المغاربة المستنرين ذوي النزوع الوطني ، التواقين لينال وطنهم ماهو أهل له من وعي وعلم وحرية وكرامة.

لقد حز في نفسه أن يرى بلاد المشرق — رغم ما منيت به، هي أيضا من احتلال، إلا أنها تنبهت واستيقظت وغدت تعج بتيارات نضالية وتقطع أشواطا في مضمار النهضة الفكرية — في حين أن المغرب لم يسلك بعد السبيل اللاحب الذي يمكنه من إثبات وجوده .

لم يفارق الشاعر الكاتب محمد بن يحيى الصقلي الحياة حيث توفي سنة 1935 - حتى رأى الوعي الوطني قد بدأ يشتد عوده ويينع زهره، وتجلى ذلك في موجة الاحتجاجات العارمة إثر ما سمي بالظهير البربري هذه الاحتجاجات كانت مسبوقة بما يمكن عده بداية انبثاق الحركة الوطنية المنظمة منذ أواخر العشرينيات.

- تحليل القصيدة *

## 1- نوعية النص وظروفه العامة

تنتمي هذه القصيدة إلى فن الوصف، وهو مجال واسع، حتى عده ابن رشيق القيرواني شاملا لمختلف أغراض الشعر، فالمدح ما هو إلا وصف للمزايا الرفيعة للممدوح ومكارمه النبيلة والهجاء ما هو إلا إبراز لمعاييب المهجو ورذائله، والغزل لا يعدو أن يكون غير تجلية لمفاتن المحبوب ولواعج المحب .....لكن الوصف بمعناه الخاص كان يرد ضمن أغراض شعرية منذ العصر الجاهلي و لم يغد بابا مستقلا وغرضا محددا إلا إبان ازدهار الحضارة العربية في العهد العباسي بالمشرق، وكذلك في الشعر الأندلسي، وقد استطاع شعراء الأندلس أن يتفوقوا في هذا المجال خاصة وصف الطبيعة.

من الجدير بالذكر أن الوصف يتناول ما يأتي :

1- وصف الطبيعة الحية والجامدة؛

2- وصف المنشآت والمصنوعات التي هي من ابتكار الإنسان.

يمتثل النوع الأول في الأزهار و الأشجار والحيوان والصحارى والبحار والأنهار والجبال والنجوم وغير هذه من الكائنات الحية والجامدة.

أما النوع الثاني فيشمل البنايات والأدوات والمخترعات، وقد يتسع الوصف لتصوير الأحاسيس والمشاعر والأفكار والمتخيلات وذلك بواسطة التعابير التشخيصية والبيانية.

من حيث فنية الوصف وطريقة معالجته، قد يكون تقريريا وتصويريا ، قد يكون ابتداعنا ينحو منحى التفسير كما أن الوصف يكتسب فنيته، فيما يضفيه الشاعر على الموصوف من مشاعره وأحاسيسه الإنسانية، أما إذا اقتصر على الجانب التصويري، فغالبا ينم عن ذلك دقة ملاحظة الشاعر وحصيلته اللغوية وتمكنه من ضعته.

ومن ثنايا دلالات القصيدة التي سنعرضها وشيكا يمكن أن نستشف مظاهر عديدة مما سبق ذكره آنفا .

## 2 – دلالات القصيدة ومكوناها

هذه القصيدة : " الخريدة الغيداء في وصف الدار البيضاء" مطبوعة سنة 1342 هـ / 1923م ، انطلاقا من هذا التاريخ فإن الشاعر قد نظمها – طبعا- قبل ذلك من مدة تطول أو تقصر، وقد أهداها الشاعر الى الجناب العالي بالله السلطان مولاي يوسف بن الحسن الأول، الذي تربع على العرش العلوي المجيد سنة 1912 بعد تنازل أخيه السلطان مولاي عبد الحفيظ – كما هو معلوم – يقول الشاعر في إهدائه :" إهداء الكتاب لجلالة سلطاننا الأعظم وملاذنا الأفخم مولانا يوسف. أيد الله ملكه وأجرى في بحر الصالحات فلكه، آمين" ويختم إهدائه بهذه الأبيات: ([10])

| | |
|---|---|
| إليكم سيدي أهدي كتابي | وأنهي بالثنا لكم خطابي |
| فأنتم بالولا أهل وأولى | أحق به بفضل وانتساب |
| أدام الله نصركم بعـــــــز | تنال من الحبا أوفى نصاب |

إن نظم هذه القصيدة مرتبط بما تحقق لمدينة الدار البيضاء من نمو سريع، مما أهلها أن تعد أكبر مدينة مغربية شاطئية حديثة، فقد عرفت مشاريع متنوعة سكنية وتجارية وصناعية ومرافق دينية وتعليمية ومنشآت سياحية وترفيهية وحدائق للاستجمام وطرقات فسيحة ومرصفة، هذا التوسع ولد لدى الشاعر باعثا نفسيا بالإضافة الى كونه واحدا من سكان هذه المدينة الفخمة عايش التحولات فبهره ما كان يراه من أعمال ومنجزات، وامتلأ وجدانه إعجابا واعتزازا بما تحقق لوطنه من عمل حضاري ، بغض النظر عن وجود المستعمر وسيطرته ، فهو لا يعترف وجدانيا به وكأن لا يد له فيما حدث ولا يستحق المستعمر منه ولو مجرد ذكر أو إشارة في قصيدته ولا إلى أحد من رجال الإدارة التابعين للحماية بينما نوه وأشاد بوزير الأحباس لأنه وزير من حكومة المخزن، تابع للسلطان ونوه كذلك بناظر الأحباس وأثنى عليه.

اختار الشاعر أن يعنون قصيدته بهذا العنوان التفصيلي: " الخريدة الغيداء في وصف الدار البيضاء " ، فهذا العنوان يدل على نعت القصيدة بأفضل صفة، كما يدل من جهة أخرى على المقصود والغرض المتوخى من القصيدة ، فلفظ الخريدة في أصله اللغوي هو اللؤلؤة التي لم

تثقب، وقد يراد به الفتاة العذراء، أما الغيداء فمعناها: المتثنية الناعمة، فانتقاء الشاعر للفظين، إنما من باب الاعتزاز بقصيدته وتحبيبها إلى القارىء وإثارة انتباهه وتحفيزه إلى الاهتمام بها لأنها أعلى شأنا وأسمى قدرا وأبهى حسنا.

استهل الشاعر قصيدته بقوله : ([11])

عج بالديار ديارنا البيضاء

ياحادي الأظعان في البيداء

يمم حماها واغتبط بجمالها

وانظر محاسنها بكل فناء

واسلك مناهجها الرحيبة لاترى

إلا البهاء مسيجا بسناء

واعجب لما خصت به من رفعة

ومكانة تسمو على الجوزاء

وانظر بإمعان وفكر صائب

ما الله خصصها من الاعطاء

من الملاحظ أن الشاعر بدأ قصيدته بما دأب عليه الشعراء من تقليد متبع من قديم في مطالع قصائدهم، وذلك بما يفيد مطالبة المخاطب بحيث يستعملون فعل الأمر أو النداء وقد وظف الشاعر هنا فعلا معتادا وهو : " عج" بمعنى مل واحبس مطيتك ، وإمعانا في الاتباعية وجه الخطاب لحادي الأظعان في البيداء ،وهو سائق المطايا في الصحراء مع أنه ليس هناك حادي ولا أظعان ولا بيداء. ومثل هذا المطلع في استعمال فعل "عاج " قول النابغة الذبياني : ([12])

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار

ماذا تحيون من نؤى واحجار

ومثل هذا أيضا قول النابغة الجعدي في قصيدة مدح بها -الرسول صلى الله عليه وسلم - ، ([13])

خليلي عوجا ساعة وتهجرا

ونوحا على ما أحدث الدهر أو ذرا.

أتينا بما سبق لنتوصل إلى نتيجة مفادها أنه يمكن عد فعل "عاج" الوارد بصيغة الأمر مفتاحا لقصيدة محمد بن يحيى الصقلي والأمر هنا قد خرج عن معناه الأصلي الذي هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء، ليفيد الالتماس من كل قارىء أن يتوقف ويفرغ باله من كل ما يشغله ، ويولي اهتمامه زيارة الدار البيضاء وضمن ذلك أن يمعن النظر في هذه القصيدة التي غدت دليلا ومحفزا وصورة بيانية للمدينة العظيمة التي تعد ملكا لكل مواطن مغربي، وأغلى مفخرة، ويستفاد ذلك من قول الشاعر " ديارنا البيضا" باستعمال ضمير جمع المتكلم في " ديارنا" الذي يفيد التملك مع الاعتزاز بالممتلك.

إمعانا في ترغيب المخاطب وبث الشوق فيه لزيارة الدار البيضاء، نجد الشاعر يستعمل فعل الأمر في بداية كل بيت من الأبيات الخمسة الأولى، ويستفاد من السياق أن الأسلوب يدل على الالتماس والإرشاد والترغيب.

نلاحظ أن الشاعر عمد بعد البيت الأول إلى تقديم وصف عام للدار البيضاء، إلى البيت الرابع ، وقد أبرز في هذا الوصف المظاهر الآتية :

1- شمول مسحة الجمال كل ما في المدينة من بنايات ومرافق؛

2- سعة طرقاتها مما يزيد ها بهاء وحسنا.

ارتفاع بناياتها بعد أن كانت من قبل واطئة ، ولم يجد في مخيلته ما يقرنه بها غير الجوزاء وهي من بروج السماء نظرا لسموقها.

بعد هذا الوصف العام طفق الشاعر يخوض في التفاصيل ويخص الجوانب والمجالات الآتية :

## 1- المجال السكني

أ – القصور الفخمة والدور الأنيقة؛

ب – ما يحوطها أو يجاورها من عرصات رائعة غناء، وقد شبهها بجنان الخلد.

## 2- المجال الديني والمعرفي

أ- المساجد والمعابد وهي المرافق العامة التي يؤمها المؤمنون لأداء العبادات وتلقي المواعظ وتعلم أمور الدين.

ب- المكتبات العامرة التي تسد حاجة المتعلمين وتلبي رغبة الباحثين والمتطلعين الى المعرفة وعامة المولعين بالقراءة

## 3- المجال التعليمي والاجتماعي

أ-المدارس المتعددة والمتنوعة من حيث درجاتها وتخصصاتها. ومن شأنها أن تزود المتعلمين وتنهض بمستواهم وتسمو بمداركهم حتى يتهيأوا لبناء وطنهم .

ب- المستشفيات والمستوصفات ودور الإيواء وهذه مؤسسات حديثة العهد بالمغرب في ذلك الوقت .

## 4- المجال السياحي والترفيهي

أ- تشييد الفنادق على أحسن طراز عصري يأوي إليها كل زائر أو طارىء سائح، فيجد ما يؤنس غربته ويسليه حتى كأنه بين أهله وذويه

ب- المسارح لعرض التمثيليات والحفلات الفنية؛

ح – الحدائق والمنتزهات للتمتع بجمال الطبيعة والترويح عن النفس.

## 5- المجال الإداري والصناعي والتجاري

أ-إنشاء مركز ضخم للبريد، ولا يخفى ما لإدارة البريد من أهمية جليلة نظرا لما تسديه من خدمات شتى ذات تأثير بالغ في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية؛

ب- تعدد أصناف المتاجر الضامنة للرواج وتقريب الخدمات وتلبية الرغبات الاستهلاكية المتنوعة؛

ح – إقامة المصانع التي جمعت بين الفخامة والاتساع وتنوع المصنوعات وهي من أركان الاقتصاد و ما لها من دور في استيعاب اليد العاملة؛

عـــ – المخازن الواسعة المنظمة وقد قرنها الشاعر بما كان قديما في بغداد وما صار حديثا في باريس.

هـــ- استحداث الميناء الذي أتاح للسفن والبواخر الرسو بالشاطىء وهذا ما لم يتوفر من قبل، بالإضافة الى بناء سياج متين يقي الساحل من مفاجآت المحيط ويؤمن المدينة، وبفضل هذه المنشآت أضحت المدينة مهيأة لتكون عاصمة اقتصادية تجاريا وصناعيا.

انتقل الشاعر في قصيدته بعد أن استوفى جانبا من المدينة إلى جانب آخر دعاه بلدة الأحباس التي عدها الشاعر درة في تاج الدار البيضاء. ولاسيما القصر السلطاني الذي بني بها، وقد أضفى عليها بهاء ورفعة. وزادها عزا وفخارا، اعتبره الشاعر من آيات الفن المعماري الرفيع وحاز من لمسات الجمال ما يعجز البلغاء عن استيفاء وصفه وبيان مكامن حسنه.

يضاف إلى ذلك المسجد الذي نسبه الشاعر إلى الحاجب السلطاني، هذا المسجد، كما نعته الشاعر تحار العقول فيه لما اتسم به من تصميم بديع وبناء رفيع ورحابة رقعته، أما ما يجاوره من منازل فهي في غاية التنظيم الفائق ، حتى إن الشاعر لم يجد في مخيلته ما يقرنها به إلا بنايتين في الأندلس وهما : الحمراء والزهراء وعلاوة على ذلك هناك طرقات مرصفة منسقة وأسواق منظمة أروع تنظيم حتى إن الشاعر لم يعرف لها نظيرا فيما رآه أو سمع به، حتى القيسرية وهي مجمع تجاري زيادة على هذه الروائع العمرانية التفت الشاعر إلى ما تميز به جو المدينة الذي رآه شفاء للنفوس وما ذلك إلا لانتفاء التلوث –الذي لم يعرف في ذلك الوقت وكذلك النظافة الفائقة.

نظرا لما للمسجد من قدسية ووقار وإجلال في نفوس المؤمنين جميعا، فقد خصه الشاعر بنصيب وافر واهتمام بالغ. إذ أفرد له واحدا وعشرين بيتا استهلها بترغيب كل قارىء لشعره بأن يؤم هذا المسجد خاشعا متبتلا ويدعو بخير الدعاء لمنشئه.

عمد الشاعر إلى وصف أبرز معالم هذا المسجد الذي شيد على الطراز المعماري المغربي الرائع وتجلت هذه الروعة في تصميمه ومرافقه وتجهيزه وبديع نقشه خاصة محرابه ومنبره وقبابه وثرياته وفنائه الذي تتوسطه فوارة يندفع منها الماء بغزارة بالإضافة إلى شموخ مئذنته.

خلص الشاعر بعد ان استوفى قصده من بديع الوصف ودقة البيان، إلى مدح السلطان مولاي يوسف الذي تهيأت في عهده أسباب الترقي العمراني والصناعي والعلمي والفني وقد تسنى للمغرب أن ينهج سبيل النهضة والرخاء ، ثم مدح الشاعر وزير السلطان في الأحباس أحمد الجاي كما مدح ناظر الأحباس بالدار البيضاء وهو حينئذ أحمد الرجراجي الذي عده من علماء زمنه النبهاء ونوه بجده وعمله الدؤوب.

يبدو واضحا أن قصيدة " الخريدة الغيداء في وصف الدار البيضاء" تتوافر فيها وحدة شعورية بالإضافة إلى وحدة الوزن والروي ووحدة الموضوع وهو وصف الدار البيضاء وما يتصل بها، وتتسم مقاطع القصيدة بحسن التخلص من جزء الى آخر ويمكن أن نلاحظ — بناء على ذلك — أن القصيدة تتكون من خمسة مقاطع هي :

1- مقدمة تعد منطلق الشاعر حيث عمد إلى تشويق القارىء وتحفيزه إلى أن يؤم الدار البيضاء لما انفردت به من مزايا وما عرفته من نهضة شاملة؛

2- وصف الكثير من معالمها وأبرز مؤسساتها ومرافقها وقد وفق الشاعر في بيان هيئات كل المشاهد بما يناسب من نعوت؛

3- عرض عدة مظاهر لبلدة الأحباس؛

4- وصف المسجد المحدث ببلدة الأحباس؛

5- مدح السلطان بذكر فضائله وما تم في عهده ومدح وزيره في الأحباس وناظر الأحباس .

## 3- تراكيب القصيدة وصورها ومعجمها

### أ- التراكيب

من الملاحظ في أسلوب القصيدة أن الجمل الخبرية أكثر من الجمل الإنشائية ذلك أن القصيدة نابعة من رغبة الشاعر في إيصال مضمون وصفي شعوري مفعم بعاطفة الإعتزاز والإكبار لمدينته وقد اكتسى أسلوبه مسحة سردية، ومن المعلوم أن الجمل الخبرية تفيد الثبوت إذا كانت إسمية وقد تفيد الثبوت والتجدد إذا كانت فعلية ماضية وتدل على الإستمرار التجددي إذا كانت مضارعة وتوظيف ذلك كله، رهين بمقامات الكلام.

إذا أمعنا النظر في تراكيب القصيدة على ضوء ذلك سنجد أن الشاعر قد سلك السبل التي ارتأى أنها ستفي بقصده وتنقل الحمولة الشعورية التي تعتمل في أعماقه وتتصورها مخيلته متطلعا إلى إثراء قصيدته بالمعاني التي تبلورت لديه وفي ذلك تتجلى ظاهرتان : حصيلته اللغوية، ومقدرته الإبداعية ومدى استكماله للتجربة الوجدانية ومن هذا المنظور فإن شاعرنا قد وفق إلى حد كبير في انتقاء تعابيره .

إذا كانت الأساليب الإنشائية في هذه القصيدة ،أقل ، فإن مرجع ذلك إلى مواقف الشاعر ومقاصده ، إذ هو بصدد البوح بمشاعره وابتداع صور فنية لمشاهداته الماثلة أمامه والعالقة بمخيلته، وهذه المواقف لا تتلائم غالبا مع الأساليب الإنشائية، لأن الإنشاء في الأصل هو طلب أمر غير حاصل قبل زمن التكلم.

إن المتابعة المتأنية لتحليل أساليب التعبير، من شأنها أن تجلي لنا المعاني الكامنة وتكشف عن الخفي، ولما كان المجال هنا لايتيح لنا مثل هذه المتابعة فلا أقل من إيراد بعض النماذج على سبيل الاستئناس ، من ذلك مثلا ما يبدو في تراكيب القصيدة، من ظاهرة التقديم والتأخير. الملاحظ في البيت السادس والثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر، وفي البيت الخامس عشر والسادس عشر، والثامن عشر فتقديم المسند إليه في الأبيات المذكورة، إما لمزيد العناية به، أو لكونه حاضرا حضورا قويا في وجدان الشاعر، ولا سبيل أمامه لنقل هذا الإحساس إلى المتلقي إلا بلجوئه إلى أسلوب التقديم والتأخير. ومن المعلوم أن استخدام هذا الأسلوب من سمات اللغة الشعرية، وهو من الظواهر الانزاحية .

بما أن الوصف هو الموضوع المهيمن على القصيدة فلا مندوحة للشاعر عن اللجوء إلى توظيف النعوت وضروب أساليب التمييز والتوكيد والحال علاوة على التشبيهات والمجاز و الاستعارات بالإضافة إلى سلف ذكره آنفا. ولا أقل – لضيق المجال – من أن نكتفي بالإشارة المقتضبة إلى بعض الأمثلة، وفيها تحفيز للمتلقي على إمعان النظر في النص كله باعتباره نصا أدبيا يتطلب أفق انتظار مباين لطبيعة نص إخباري صرف أو نص تفسيري أو تحليلي ، ومن أمثلة ذلك: وصف الديار بكونها بيضاء في صدر البيت الأول ، هذا الوصف للتوضيح والبيان ، كما يدرك منه مايعرف ببراعة الاستهلال ومن ناحية أخرى يراد من الوصف إسم المدينة من باب التورية ، أما في صدر البيت الثالث فنلاحظ مناهجها الرحبية " فوصف المسالك والطرقات بالرحبية لإفادة المدح لأن الموصوف هنا معرفة ، وفي صدر البيت الخامس "وفكر صائب" الوصف هنا أفاد التخصيص، من جانب آخر نلاحظ ورود الحال أو التمييز بكيفية تضمنية. لإفادة البيان مثل : "فيها القصور تشيدت بفخامة " "فيها المآثر عمرت ببهاء " في البيت السادس .

ب– الصور

ليس خفيا أن الشعر ضرب من التصوير وجنس من التخييل ومن هذا المنطلق نلاحظ أن هناك تماسكا بين ما سبق من تراكيب وما تضمنته من صور قائمة على التشبيه والمجاز المرسل والاستعارة والكناية . وعلى الوصف النقلي .

من هذه الصور في القصيدة ماورد في عجز البيت الثالث " البهاء مسيجا بسناء "وكذلك ماجاء في عجز البيت الرابع " ومكانة تسمو على الجوزاء " وما جاء في صور البيت السابع " عرصاتها كجنان خلد بهجة " وفي البيت الخامس عشر . وكذا المصانع ناطحت بعلوها شم الجبال بنضرة ورواء "

بمتابعة أبيات القصيدة فإننا نجد أن جل الأبيات تتضمن صورا، كما في البيت السادس عشر والحادي والعشرين والثاني والعشرين والثالث والثلاثين، والسادس والثلاثين والسابع والأربعين والثامن والأربعين والخمسين والرابع والخمسين.

## حـ- المعجم

من فحصنا لمفردات القصيدة وجدنا أن المعجم اللغوي تهيمن عليه الألفاظ الدالة على العمران أو الواصفة له وما يرتبط بها من مفردات الطبيعة أو المصنوعات، ولبيان ذلك بكيفية مجملة نورد الجدول الآتي :

| الكلمات الدالة على العمران والأبيات التي وردت فيها | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| الكلمة | البيت | الكلمة | البيت | الكلمة | البيت | الكلمة | البيت |
| ديار | 1 | الملاجيء | 11 | الحمراء | 33 | منبره | 48 |
| | 28 | المصانع | 15 | الزهراء | 33 | عرش | 48 |
| | 33 | | | | 34 | | 49 |
| دور | 78 | المخازن | 16 | طرقاها | 35 | قبابه | 52 |
| | 82 | | | اسواقها | 36 | قوارة | 53 |
| | 2 | المسارح | 18 | القيسرية | 39 | بيلة | 55 |
| | 6 | | | | 44 | | |
| حماها | 6 | | | مبانيه | 44 | المنار | |
| القصور | 7 | الحدائق | 18 | الحمراء | 46 | | |
| المآثر | 8 | جنباها | 19 | الفيحاء | 57 | | |
| عرصاها | 30 | سياجه | | نقش | 46 | | |
| | 39 | | 20 | | 47 | | |
| المساجد | 9 | الرصيف | 20 | | | | |
| المسجد | 10 | | | صنعاء | 47 | | |
| | 11 | | | | | | |
| والمعابد | | عمراها | 22 | محرابه | | | |
| مكاتب | | بابل | 22 | ايوان | | | |
| المدارس | | بلد | 26 | كسرى | | | |
| صرح البريد | | القصر | 27 | | | | |
| نزل | 12 | | | | | | |
| بلد | 12 | مشيد | 29 | | | | |

بتأملنا هذا الجرد نخلص إلى النتائج الآتية:

1 – هناك الإحالة في القصيدة إلى بنايات تاريخية اكتسبت شهرة فائقة حتى عدت مثالا في الفخامة أو السعة أو التأنق المعماري الفني. وتبعا لذلك ما كان يسودها من حياة باذخة أو رواج تجاري وصناعي ونظام إداري، ولم تقع الإشارة إلا إلى مدينة واحدة لها شهرة حاضرة حديثة أكثر وهي مدينة باريس، أما الأخريات فهناك الحمراء والزهراء بالأندلس، وبابل عاصمة البابليين الذائعة الصيت واقعة في الجنوب الشرقي لبغداد . والفيحاء عاصمة الأمويين دمشق ، والزوراء عاصمة العباسيين – بغداد – إيوان كسرى بالمدائن عاصمة الفرس، صنعاء باليمن .

2- نلاحظ أيضا كلمات تعد مسميات مستحدثة وإن كانت ذات أصول قديمة – المكاتب (مكتبات) صرح البريد ،النزل ( الفندق) . الملاجىء –الرصيف – مكهرب .

من جهة أخرى نلاحظ ورود أسماء دالة على الطبيعة وهي تتكامل وتتناسق مع العمران :عرصاتها، جنان حدائق-أفنان – الأفياء-الجبال- الأنواء – ماء –القبة الزرقاء (السماء)- السحاب –الضياء – اللجين (الفضة ) الملوان (الليل والنهار) الغبراء –الجوزاء

يضاف الى ذلك المسميات الدالة على الصناعة والمصنوعات مثل : الأزياء – البواخر – حلة . التاج – المصانع – دواء –النقش –وشي –عرش –الثريات- فوارة – بيلة (وهي في الأصل اسم لسقاية بالقرويين وتعد معربة من الاسبانية – كما ذكر المرحوم عبد الله كنون ).

كما ورد في القصيد مايدل على العلم والثقافة والدين مثل : المسارح – علم –الإقراء –فكر –العلماء – الخبراء البلغاء – النبهاء.

كذلك هناك مسميات سياسية: دولة ، تلك، ملك، الملوك ، الحجاب ،الوزراء ، الناظر، النظارة .

## 4-مظاهر الوزن والإيقاع

بنيت القصيدة على روي الهمزة، وهي أول حروف الهجاء الألفبائي، وأول حروف الأبجدية في حساب الجمل، والهمزة من حيث الصوت، حرف حنجري غير مهموس ولا مجهور فإيقاع الهمزة مع ألف الردف قبلها ينشأ عنه صوت فيه تمدد خاصة أن قبل الردف حذو

مناسب بالفتح، والقافية في القصيدة مطلقة لأن الروي متحرك بكسرة مشبعة بالياء وهي حرف غير مكتوب ولكنه منطوق به.

إذا قطعنا البيت الأول في القصيدة تقطيعا عروضياسيكون الوزن كما يأتي:

عج بالديار ديارنا البيضاء          يا حادي الأظعان بالبيداء

- 0-0 --0/ ---0- - 0/ - 0 - 0 - 0 - 0

متفاعلـــــــــــــــــــــن

/متفاعلـــــــــــــــــــــن / متفاعل

- 0- 0 - - 0/ --- 0 - - 0/ - 0 - 0 - 0 - 0

- متفاعلـــــــــــــن          /متفاعـــــــــلن  /

متفاعــــــــــــل

يتبين من التقطيع أن القصيدة من البحر الكامل وهذا البحر حظي من لدن الشعراء بالإقبال عليه ، ويمتاز بكثرة إيقاعاته ، وملاءمته للموضوعات الوجدانية والفكرية خاصة .

لقد لجأ الشاعر محمد بن يحيى الصقلي، إلى استعمال جوازات في الوزن ، ومن ذلك أن تفعيلة متفاعلن مبدوءة بثلاث حركات مفتوحة في الأصل ، ولكن الشاعر سكن الحرف الثاني وهو زحاف الإضمار ، وبذلك تحولت متفاعلن – المسكنة التاء إلى مستفعلن ، وفي تفعيلة العروض سكن الثاني وتغيرت في الأخير فصارت متفاعل، وكذلك تفعيلة الضرب (آخر العجز) ومن الملاحظ أن هناك اتفاقا بين العروض والضرب. ومن المألوف لدى الشعراء جعل البيت الأول من قصائدهم على هذه الشاكلة ( مصرعا ) نظرا لما ينشأ عن ذلك من قوة الإيقاع ولطافته وتأثيره في السامع .

هناك ظاهرة إيقاعية لا تقل أهمية عن الوزن والقافية، وهي ما يعرف بالموسيقى الداخلية، ويكمن جدواها فيما تسهم به من إغناء القوة الإيحائية للمعاني والأخيلة والصور، التي تكشف عنها الألفاظ والتراكيب عبر أبيات القصيدة وتتحلى فيما نحن بصدده في عدة مظاهر، منها:

1 – تردد حرف الدال مرتين في صدر البيت الأول ومرتين في العجز، وتردد حرف الميم خمس مرات في البيت الثاني، وكذلك تردد حرف الهاء ثلاث مرات في البيت نفسه، وتردد

حرف الميم في البيت الرابع ثلاث مرات، وحرف العين ثلاث مرات كذلك، وهكذا لا يكاد يخلو بيت من القصيدة، من وجود أصوات متماثلة تسهم في إضفاء إيقاع خاص ، بالإضافة إلى إيقاع تفاعيل الوزن.

2 – هناك ما يزيد حضور الإيقاع، ويتعلق الأمر في وجود حروف مد بالفتح أو الضم أو الكسر ، ثم هناك تناغم بين حركات الإعراب من جر ورفع ونصب بتنوين او بدونه ، وصيغ المشتقات من اسم الفاعل والمفعول واسم مكان والزمان والصفة المشبهة باسم الفاعل واسم المرة والهيئة بالإضافة الى تنوع صيغ المصادر المختلفة والأسماء الجامدة وصيغ المفرد والجمع والتذكير والتأنيث ......

3 – اختلاف مخارج الحروف وتوافقها بينما هو مهموس ومجهور، وما هو حلقي، وما هو من حروف الإطباق...

تبين لنا من ثنايا ما تقدم أن اللغة الشعرية لقصيدة محمد بن يحيى الصقلي، قد تظافرت عدة عناصر لتحقيقها تتجلى في ما تضمنته من تقديم وتأخير أوذكر أو حذف في تراكيبها، وما ورد فيها من ضروب التشبيه والمجاز المرسل والاستعارة وما يكتنفها من أساليب إنشائية وخبرية ومظاهر إيقاعية.

## 5 – ملامح تقييمية

بعدما قدمناه من تحليل لقصيدة محمد بن يحيى الصقلي نلخص إلى تأكيد ملامح تقييمية وإن كان فيها تكرار وتتجلى في جانبين : أحدهما تاريخي، والآخر فني :

– الجانب التاريخي

يبدو هذا الجانب في كون القصيدة سجلا شعريا للتطور العمراني لأكبر مدينة مغربية ساحلية في العصر الحديث، إذ من المعلوم أن الدار البيضاء عرفت تغييرا ملحوظا من حيث سكانها وعمرانها وتبعا لذلك، دورها وما قام فيها من أنشطة ومشاريع تجارية وصناعية منذ أواخر العقد الأول من القرن العشرين، وتزامن ذلك – بصفة خاصة – بعد إقامة جاليات أروبية بها، وليس معنى هذا أن الدار البيضاء – آانفا– محدثة كليا في العصر الحديث، ولكن، الواقع أنها ضاربة في أعماق التاريخ إلا أنها في هذا الوقت عرفت تحولات جذرية من حيث

العمران والتجهيز والنشاط البشري ، جعل منها مدينة حديثة ، وقد استطاع الشاعر محمد بن يحيى الصقلي أن يرصد هذا التحول في حياة هذه المدينة .

ومن ثنايا قصيدته يبدو تصويره وتسجيله للمعالم الآتية:

1 – إنشاء القصر السلطاني، وهو من مفاخر المدينة، وقد شيد في ضاحية الأحباس( أشار الشاعر إلى ذلك في الأبيات 29،27،28)؛

2 – بناء الميناء مع رصيف وسياج يقي ساحل المدينة، إذ من المعروف أن البواخر كانت ترسو على بعد من الساحل، قبل ذلك، وقد وقعت حادثة دفعت إلى وضع تصميم هندسي من طرف الخبراء لاتقاء مخاطر الأمواج العاتية وما يعتري ساحل المحيط الأطلسي من تقلبات وما يفرضه من صعوبات أثناء القيام بشحن البواخر أو إفراغها، وفي ذلك عرقلة للحركة التجارية في التصدير والاستيراد، (أشار الشاعر في البيتين : 21،20)؛

3 – خص الشاعر المسجد المحدث بضاحية الأحباس في ذلك الإبان بأوفر نصيب من قصيدته من البيت 39الى 59)؛

4 – أشاد الشاعر بالسلطان مولاي يوسف الذي أرجع إليه الفضل فيما حصل في المدينة من تجديد وتشييد ونهضة ، ومدح وزيره في الأحباس وذكره بالإسم وهو السيد أحمد الجاي. ومدح أيضا ناظر الأوقاف بالمدينة في ذلك الوقت لما أبداه من إخلاص وجد وحزم . ( وكل ذلك من البيت 60الى 82).

بالنظر فيما حفلت به القصيدة من تلميحات وإشارات يتبين أن هذه القصيدة قد انفردت بتسجيلها لتنامي مدينة الدار الابيضاء في طرازها العصري الذي يتزايد مع مرور السنين، وهذا ما لا نكاد نجد له نظيرا في الإبداع الشعري المغربي في العشرينيات من القرن الماضي.

من جانب آخر يبدو أن الشاعر كان مغمور الوجدان حبورا وشعورا فياضا وعاطفة مشبوبة إعجابا بنهضة وطنه واعتزازا بمدينته ، واعتدادا بما تحقق فيها من إنجازات وتحولات إيجابية ، لم يسبق لها نظير في أية مدينة أخرى، ويمكن أن يعد إقباله على إبداع هذه القصيدة ، دليلا على صدق مشاعره الوطنية ، ومع أن ذلك قد تم في عهد الحماية البائد ، فإن الشاعر لم

يشر – ولو من طرف خفي – أن للاستعمار يدا فبالأحرى أن يكون له فضل فيما حصل ، ذلك أن الاستعمار لم يقدم على أي إنجاز متوخيا منه رفاهية المغاربة في الأصل ولكنه كان يهدف في المقام الأول إلى مصلحته هو، وفي كل ما أقدم عليه كان يسعى إلى توطيد نفوذه ورفاهيته والتمكين لجاليته وأتباعه الذين يعدون امتدادا له وأداة لتنفيذ سياسته. ولكن هناك ثلة من المغاربة العارفين بأبعاد الأمور، يدركون أن كل ما يقيمه الاستعمار من منجزات ويحققه من مشاريع، وإن انتفع واستثمر فإن مآل ذلك كله سيؤول لامحالة في خاتمة المطاف ، إلى المغرب والمغاربة مهما طال المدى، ومن هذه الزاوية يبدو من طيات القصيدة أن الشاعر في أعماقه كان جذلان ، وحمد للسلطان بعد نظره ، وأن ما حصل في عهده من مكتسبات للمغرب وما تحقق في الدار البيضاء من إنجازات مما يرقى بالأمة .

– الجانب الفني :

اتضح لنا من معجم القصيدة أن جل الكلمات التي يتكون منها هذا النص الشعري، مألوفة وملائمة للمقام وإن بدت بعض الكلمات المتضمنة للروي، متكلفة مثل ما في البيت الخامس، والثامن عشر والعشرين والثالث والأربعين والسابع والأربعين والواحد والخمسين ، والتاسع والخمسين والسادس والستين. كما أن الشاعر اضطر إلى بعض الكلمات المتضمنة للروي، في البيت الخامس والعشرين ثم في البيت الخامس والأربعين، هناك كلمات كتبت خطأ يرجح أنها مجرد أخطاء مطبعية ، في البيت الأول:ياحامي الأضعان ، والصواب حادي الأظعان.في البيت الرابع : ومكانة تسموا والصواب تسمو ، بدون ألف بعد الواو، وفي البيت السابع كذلك، وفي البيت العاشر أنشأت، والصواب : أنشئت، في البيت الحادي عشر : من يره، والصواب : من يراه ، لأن " من" هناك ليست شرطية ، ولكنها موصولية ، في البيت الرابع عشر : وكذا الملاجي . والصواب: وكذا الملاجيء بالهمز . ولا داعي، للحذف في البيت التاسع عشر : تسليه والصواب : تسله بدون ياء . لأن الفعل المضارع هنا جواب للشرط، فيجب جزمه بحذف حرف العلة.

و إذا نظرنا في موضوع القصيدة ككل ،وتوخينا إبراز ما فيه من اتباعية أو ابتكار ، فإننا نبادر الى القول بأن وصف المدن بكاملها غير شائع في الشعر العربي كشيوع وصف أجزاء

أو جوانب أو معالم خاصة كالقصور والدور والرياض والحدائق والبرك والجسور والقلاع ، وغير هذه من المنشآت العمرانية ، ونشير بجرد إشارة على سبيل المثال فقط ، إلى وصف إيوان كسرى ووصف بركة بقصر الخليفة المتوكل العباسي للبحتري ، ووصف قصر المنصور بن أبي عامر لابن حمديس الصقلي ، ووصف ابن الخطيب لمدينة مكناس، ووصف عبد العزيز الفشتالي للقبة الخمسينية التي بناها المنصور الذهبي ، ووصف الفقيه المغيلي لمدينة فاس ووصف أحمد شوقي لأبي الهول ([14]).

إذا نظرنا في هذا الكم من قصائد الوصف وتوخينا إقامة موازنة بينها وبين قصيدة شاعرنا فإننا سنخلص إلى النتائج التي سنوردها وشيكا، ولا يفوتنا القول هنا بأن الإبداع الصادر عن قريحة وطبع مهما كان متفردا لا يمكن أن يتخلص كليا من التناص مع ما سبقه من جانب أو آخر في بعض العبارات والتشبيهات أوالصفات ،من جملة النتائج المستخلصة :

1- لا يمكن الحكم بأن هناك تطابقا تاما أو محاكاة لشاعر بعينه من سابقيه؛

2- لا مندوحة عن الإقرار بأن بعض التشابه حصل من وجه أو آخر وذلك في تعابير وصور واستعمال مسميات والإحالة إلى ما طبقت شهرته الآفاق بصفة معينة أو ما صار مضرب المثل، فلا مناص أمام الشاعر – مهما بلغت درجة شاعريته – من الاتكاء عليه وإدراجه في إبداعه. ومن ذلك –على سبيل المثال لا الحصر – جعل الجنة مشبها به وذكر بابل وإيوان كسرى، كقول ابن حمديس في وصف قصر المنصور : ([15])

لو أن بالإيوان قوبل حسنه ما كان شيئا عنده مذكورا

وقول محمد بن يحيى الصقلي في البيت السابع والأربعين من قصيدته

محرابه يختال في حلل السنا إيوان كسرى جنبه كهباء

3 – يبدو واضحا أن الشاعر محمد بن يحيى الصقلي استمد أوصاف قصيدته مما عاينه مضيفا إليها من شاعريته بكل ما هي محملة به من مشاعر وعواطف وأخيلة تسعفه حصيلته المعرفية ومسخرا ما تأتى له استيعابه من قراءاته وما تمثله من إبداعات سابقية، دون طمس لشخصيته.

4- استطاع الشاعر أن يتخلص في قصيدته من التكلف والتصنع وأن يجعلها مكتسية حلة الطبع والصدق الفني والواقعي، وبذلك نأى عن المغالاة أو الإغراق في الخيال، وما استحضر من صور عليه مسحة القرب، ولا يعلو أن يكون تشبيهات واستعارات الغاية منها إبراز المعاني بلطف.

لعل ما اتسمت به قصيدة محمد بن يحيى الصقلي من اليسر وقرب المأخذ وبعد عن التعقيد مع جزالة وإحكام الصياغة وحسن التخلص ، ووفاء بالمراد ، يعد في زمانه مشروعا رائدا وطلائعيا ، خاصة إذا استحضرنا في الحسبان ما كان عليه الشعر المغربي في مستهل العشرينيات من القرن الماضي .

المصادر والمراجع


1- الخريدة الغيداء في وصف الدار البيضاء نظم محمد بن يحيى الصقلي الحسيني . مطبعة العرب . تونس . 1342هـ

2- التأليف ونهضته بالمغرب للعلامة عبد الله الجراري .ص 270 . مكتبة المعاريف بالرباط ، الطبعة الأولى 1985 .

3- الشعر المغربي –مقاربة تاريخية . للأستاذ محمد أديب السلاوي ص :214 . مطبعة إفريقيا الشرق . ط 1-1986.

4- المصادر العربية لتاريخ المغرب للبحاثة محمد المنوني منشورات كلية الآداب الرباط .ج 2-ط.1989 .ص: 278/252/238

5- المرجع السابق نفسه ج.2-ص:238

6- المرجع نفسه ج-2.ص: 252، 253.

7- نبذة الزهرائيات نظم محمد يحيى الصقلي الحسيني طبع مطبعة العرب ،تونس 1342 هـ ، مجموعة شعرية في 24 صفحة ، تضم أشعارا في الغزل ، وإخوانيات خاطب بها بعض أدباء عصره وما تلقاه من أجوبتهم ، بالإضافة الى تقاريظ بعض الأدباء .

8- المنشورات المغربية للأستاذة لطيفة الكندوز . ص : 352، 353 منشورات وزارة الثقافة . مطبعة دار المناهل 2004 .

9- المصادر العربية لتاريخ المغرب ج 2، لمحمد المنوني . ص: 278

10 الخريدة الغيداء في وصف الدار البيضاء لمحمد بن يحيى الصقلي ص : 2 – مصدر متقدم .

11- المصدر السابق نفسه . ص : 5 .

12- جواهر الأداب لأحمد الهاشمي .ص : 351. دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط 29-1983

13 - المرجع السابق نفسه .ص:401.

14 - انظر المرجع السابق نفسه . ص: 555 ،

انظر قصيدة ابن الخطيب في الروض المتون في أخبار مكناسة الزيتون لمحمد ابن غازي العثماني ، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور هامش ص : 9 الطبعة 3 . المطبعة الملكية الرباط ، 1999 ،وانظر قصيدة عبد العزيز الفشتالي في روضة الآس لأحمد المقري تصدير عبد الوهاب ابن منصور . ص : 138 .ط 2، المطبعة الملكية الرباط. 1983 . وانظر ما في النبوع المغربي لعبد الله كنون ج 3 . ص : 222 . دار الكتاب اللبناني بيروت ط 3 . 1975 وانظر قصيدة المغيلي في المرجع المذكور (النبوغ ) ص : 805 وانظر قصيدة المغيلي أيضا في الأنيس المطرب لعلي ابن أبي زرع الفاسي ، مراجعة عبد الوهاب ابن منصور. ص: 42.ط .2- المطبعة الملكية بالرباط . 1999 .

15 – جواهر الأدب لأحمد الهاشمي ، مرجع مذكور .ص:587.

من الشعر المغربي الواصف للعمران، الجدير بالذكر على هامش ما سبق . قصيدة سينيه لسيدي عبد الواحد الحسني، وكذا قصيدة حائية لأبي عبد الله محمد بن علي الفشتالي والقصيدتان وردتان في روضة الآس للمقرى . ص ،27،28،29 .

# ملامح من التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العهد اليوسفي من خلال كناشة الطيب بن خضراء

أحمد إيشرخان

الكلية المتعددة التخصصات تازة

تتعلق هذه المداخلة بموضوع حول ملامح من الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في عهد السلطان المولى يوسف، اعتمادا على مخطوطة غميسة وهي كناشة فريدة لجامعها الطيب ابن خضراء السلوي، وهو أحد الشعراء والكتاب المرموقين في العهد اليوسفي، وفضلا عن كونه فقيها وعالما من علماء المرحلة، فهو أحد الكتاب المخزنيين الذين كانوا قريبين من الأحداث الكثيرة والمتنوعة والسريعة التي عرفها المغرب تحت سيطرة الحماية، فهو الطيب بن عبد الله بن محمد الهاشمي ينتمي إلى أسرة بني خضرا أو الخضراويين وهي أسرة عريقة استوطنت سلا، وأصلهم من الساقية الحمراء بالصحراء المغربية، ورفع نسبهم إلى الشرفاء الحسنيين من طريق الأدارسة. وفي المغرب أسر من الخضراويين وخصوصا فاس ومكناس، غير أن أشهرهم هم القاطنون في سلا منذ منتصف القرن الثامن عشر. وفي هذه المدينة ولد شاعرنا على الأرجح عام 1305هـ/1887-1888م، وتدرج في مدارج العلم ومسالكه، مقتحما لججه و غوامضه، على يد شيوخها، ثم انتقل إلى فاس مع والده الذي عين قاضيا بها، واندمج في سلك القرويين فأخذ عن علمائها، ولما رجع إلى سلا أخذ عن أخيه الأكبر محمد الهاشمي. وضمن لائحة شيوخه لا يمكن التعرف على من أثر في مترجمنا حتى أصبح ذا نزعة أدبية، ولعل ذلك مرتبط بالأجواء الروحية التي كانت تعيشها مدينة سلا حيث تنشد الأشعار في المناسبات الدينية، أضف إلى ذلك سعة اطلاعه . وقد اجتمع بعلماء وأدباء حواضر الشام عند رحلته إلى المشرق، ومجاورته بالمدينة المنورة التي كانت مجمعا للعلماء والأدباء في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الأمة الإسلامية، وقد أجازه كل من محمد بن جعفر الكتاني، والأديب أحمد ابن الشمس الشنقيطي، ويوسف النبهاني. وعند رجوعه إلى المغرب طلب في قصيدة شعريه من السلطان مولاي يوسف أن يعينه كاتبا

بالحجابة فاستجاب السلطان لطلبه[1] ، ولنعلم مدى ارتباطه بالمولى يوسف نذكر أنه استقال من وظائفه المخزنية بمجرد وفاة السلطان حيث دخل إلى عالم التصوف وتدثر بغطاء الزهد والخلوة، إلى أن عينه السلطان محمد الخامس إماما بالمسجد الأعظم. وكان يتردد بين المسجد والزاوية التيجانية، مقبلا على تلاوة القرآن والذكر. مبديا مزيد عناية بليلة المولد النبوي الشريف، وقد نظم مولديات كثيرة، وله قصائد مطولة في مدح السلطان مولاي يوسف جلها بكناشته وبعضها في اليمن الوافر الوافي[2]. وتعتبر قصيدته الهمزية التي عارض بها همزية البوصيري أهم ما تفتقت عنه قريحته الشعرية حيث استدرك فيها عددا من أبواب السيرة النبوية لم يذكرها البوصيري مثل غزواته صلى الله عليه وسلم. وقد ظلت همزية الطيب بن خضرا من محفوظات مريدي الزاوية التيجانية ينشدها عقب همزية البوصيري على نفس المقامات والألحان. بالزاوية التيجانية بسلا وبضريح سيدي العربي بن السايح بالرباط. وقد توفي في مدينته سلا يوم الخميس 7 شوال 1337هـ/ 12 يوليوز 1951م. ودفن بالطالعة في ضريح سيدي مَحمد المفضل. وقد عاصر بذلك أهم الأحداث التي عرفها المغرب في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين[3].

– في تحقيق المصطلح: كناشة أم دفتر؟:

أول ما طرح علينا لعرض وتقديم هذا المخطوط المتعلق بالعصر اليوسفي هو المصطلح الذي عنون به، ففي أوله ذكر المؤلف أنه دَفتر يجمع الدرر المنيرة التي مدح بها السلطان وفي ختامه قال:« انتهى الكناش المبارك». فهل يتعلق الأمر بدَفتر أم بكناش؟وهل الكلمتان مترادفتان؟ مما دفعنا إلى محاولة تحديد المصطلح خصوصا وأن الفقيه المنوني سماه: دفتر قصائد مديحية وأدرجه ضمن قسم الكناشات[4] ، وهكذا بحثنا عن المصطلح وقد جاء في مختار الصحاح لأبي بكر الرازي: الدَّفْتَرُ الكراسة. والتفتر بالتاء لغة في الدفتر. والدفتر إذا دون فيه أهل العطاء والجيش سمي ديوانا. و في لسان العرب والكراسة سميت بذلك لتراكم ورقها بعضها فوق بعض وقيل لازدحام العلم فيها. أما مصطلح كناش وكناشة فلم نقف عليه في كتب اللغة غير ما ذكره المستشرق الألماني دوزي من كون كلمة كناش مغربية حيث كتب: « والكناشة عند

المغاربة مجموعة تدرج فيها قواعد وفوائد»[5]. وقد أورد الفقيه المنوني تعريفا للكناشة مؤكدا أنها صارت كلمة مغربية صميمة معتمدا على ما أشار إليه الشيخ مرتضى الزبيدي شارح القاموس عند قوله: « ومنه الكناشة: الأوراق تجعل كالدَّفْتَر، تقيد فيها الفوائد والشوارد للضبط، هكذا استعمله المغاربة، واستعمله شيخنا( محمد بن الطيب الشركي) ». وأكد العلامة المنوني أنه لا يعرف بالضبط تاريخ ظهور هذه التسجيلات بالمغرب، وأقدم كناشة مذكورة كانت لعبد الرحمان الجادري الفاسي المتوفى عام 818هـ/ 1416م. وقد استفاد من شوارده عدد من العلماء منهم الونشريسي في المعيار وأبو حامد العربي الفاسي في شرحه لدلائل الخيرات. ذكرنا هذا للدلالة على أهمية الكناشات وإفاداتها الغميسة وقد ذكر المنوني جملة من هذه الإفادات ضمن مقاله: الكناشات المغربية ودورها في الكشف عن الدفائن التاريخية[6]. وقد نبه الدكتور أحمد شوقي بنبين إلى أن الكناشه كلمة سريانية وأما الدفتر فكلمة يونانية[7].

إن الكناشة التي نحاول أن نستفيد من شواردها هي كناشة/ دفتر الطيب بن خضراء السلوي وهي من ربائد الخزانة الحسنية من الحجم الطويل تحت رقم 11686 مقاسها -32× 22 مسطرتها 34 عدد صفحاتها 163 ص. ورقها من النوع الحديث الراجع إلى بداية القرن، وقد أصابت غلافها والورقات الأولى منها أرضة بثقوب دقيقة و يستفاد أن هذه المخطوطة كانت ضمن مخطوطات الخزانة الزيدانية، خطها مغربي زمامي دقيق بين الحسن والمتوسط بصمغ أسود مجدول. انتهى من كتابتها المؤلف عام 1337هـ/ 1919م، وهي عبارة عن ديوان يضم مقطعات أشهر شعراء المرحلة الأولى من العهد اليوسفي، مع ذكر المناسبات التي أنشدت فيها، وهذه المناسبات هي التي اعتبرناها ملامح من تاريخ الدولة اليوسفية فهي تشير إلى مجموعة من الأحداث والتحولات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، بل يمكن أن نلمس من خلالها موقف النخبة العالمة في كثير من الأحداث السياسية، ونجمل أهم المحاور التي وصلنا إليها بعد القراءة والنظر والتحقيق فيما يلي:

1- الحركات السلطانية

تكشف الكناشة مجموعة من الحركات التي قام بها السلطان المولى يوسف خلال الفترة الأولى من حكمه، وتفصح عن الطقوس الإجتماعية التي تتم فيها الحركة خصوصا في الجانب

الاحتفالي المتمثل في حرارة الاستقبال من جانب الرعية، وحضور أعيان المدن والقبائل والنخبة العالمة وفي مقدمتهم الفقهاء والشعراء الذين ينشدون القصائد بين يدي السلطان للتنويه بخصاله وللتذكير بمآثره، وتحمل في جانب منها الدعوة إلى ضرورة الوحدة والتكتل واجتناب الفتن، فالفقيه الشاعر لا ينسى جانب الوعظ والإرشاد في مقطعاته.

ورغم رقابة سلطات الحماية فإن السلطان المولى يوسف حاول أن يعود بالحركة إلى مفهومها في العصر الحسني وهو قرب المخزن من الرعية، وكان الهدف من هذه الحركات هو نشر العدل والنظر في المصالح وانتشار الأمن في الأرض التي يحل بها الركب السلطاني، وكأنه يحاول أن يذكر بأمجاد المغرب في عهد المولى الحسن الأول، وهكذا حاول أن يسلك نفس المسالك وأن يترل في الترالات نفسها التي كان يترل فيها والده المولى الحسن الذي تمثل فيها هو أيضا بالسلطان المولى إسماعيل، كما ذكرنا في الندوة السابقة حول العهد الحسني[8] ، لكن الجديد الذي نكتشفه في هذه الكناشة و لم يكن معروفا عند المهتمين بالحركات هو دور البريد من خلال الرقاصين في نشر أخبار الحركة، فقبل وصول السلطان بأيام يكون الرقاص قد طاف بشوارع المدينة معلنا وقت وصول الحركة، وذكر وجوب الاستعداد لحسن الاستقبال وإقامة الاحتفالات بظاهر المدينة حيث نصبت الخيام. أما خريطة الحركة وسنواتها فيمكن استنتاجها من خلال الأشعار وتواريخ إنشادها. وهكذا نقف على حركة السلطان من فاس إلى مراكش عام 1330هـ، وقد شملت الحركة كل الديار الحوزية حسب تعبير العباس الشرفي[9] وفي القفول مر عبر الطريق الساحلي الصويرة[10] آسفي و الجديدة و الدار البيضاء الرباط، ويذكر أحمد بن المواز في قصيدة من بحر الخفيف تفاصيل حركة السلطان إلى فاس عام 1334هـ[11] . وهناك أيضا إشارات إلى تنقلات السلطان إلى الرباط وسلا[12].

## 2- إدخال المخترعات العصرية

من المواضيع التي نستطيع أن نستنتجها من الكناشة هو دور السلطان في نشر المخترعات العصرية التي لم يستأنس بها بعد المغاربة و لم يتعودوا عليها في معاملاتهم بما في ذلك وسائل النقل والتنقل، بل كانت لفئات عريضة منهم موقف باعتبارها بدعة أو باعتبارها من وسائل التغلغل الاستعماري ومن ذلك التلفون والتلغراف والسكك الحديدية والسيارة والدراجة

الهوائية[13]. وقصد رفع الحرج عن الأمة أمر السلطان ابنه سيدي محمد بالسفر ليلا من فاس إلى الرباط[14] عبر طريق معبد عام 1331هـ/ 1919م، ويظهر أن هذه المبادر لقيت استحسانا من طرف نخبة من الفقهاء والعلماء فنوهوا بها عبر قصائدهم التي تحمل الدعوة إلى التحديث والتجديد، ومنهم الفقيه عبد الله الفاسي الذي التمس من السلطان نشر الوسائل العصرية باعتبارها من وسائل الإصلاح والمعرفة، فالسلطان هو الخيط الرابط الذي ينتظم به جوهر الإصلاح الاجتماعي، بل هو الذي يجعل الإصلاح يظهر في أحسن صورة، فهو الذي تصدر عنه القيم وتسرع في الانتشار. أما الفقيه المؤرخ محمد الأعرج السليماني فقد اختزل أسباب الحضارة في استعمال المخترعات العصرية التي تقصر الزمان وتطوي المسافات، خصوصا القطار الذي يحمل الأطنان من السلع. ومن الطرائف التي نوه بها هي استعمال الدراجة الهوائية في أزقة فاس حيث أثنى على الدراجة النحلة التي تهب هبوب الريح بين فاس البالي وفاس الجديد. ويذكر محمد المعمري الزواوي في قصيدته المولدية بداية انتشار استعمال الكهرباء ولو بشكل محدود في بيوت النخبة المخزنية وهكذا استبدل نور الشموع بنور الكهرباء[15] خصوصا في الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف.

3- ضرب السكة وتغيير الراية المغربية

ضرب السكة اليوسفية من الأشياء التي خلفت انطباعا إيجابيا وسط المجتمع كما عبر عن ذلك الفقيه الشاعر إدريس بن خضراء فهي سكة فضية خالصة لا تعرف تخليطا ولا تدنيسا، وفي ذلك إشارة واضحة إلى انتشار النقود المزيفة واختلاطها وغلبة رواج العملة الأجنبية خصوصا الفرنسية والإسبانية في المعاملات بين المغاربة. ورغم كون العملة اليوسفية مضروبة بباريس فإنها ذات طابع مغربي لا من حيث العبارات المكتوبة فيها ولا من حيث خطها المغربي المجوهر الذي كتبت به عبارة السكة العلوية[16]. مما جعلها حسب رأيه في الحسن كالبدر تنشرح عند رؤيتها النفوس وقد فضلها المغاربة واستبدلوا بها العملة الأجنبية، وقد اعتبر النقود من مظاهر السلم الاجتماعي بل هي من وسائل الدولة الحديثة حسب رأي الفقيه غريط[17].

ومن الأشياء التي نقف عليها في الكناشة أن راية السلطان المولى يوسف كانت في السنوات الأولى من بيعته راية بيضاء مطرزة بالوشي مرقمة[18]، لكن بعد ثلاث سنوات من

حكمه أصدر ظهيرا أبرز فيه أن الراية من رموز السيادة والتميز عن بقية الدول خصوصا بعض الدول الإسلامية التي تشبه راياتها راية المغرب في اللون والرموز لذلك أصدر أمره الشريف بما يلي: «فصل رايتنا بجعل خاتم سليمان المخمس ذي اللون الأخضر وسطها» وجدير بالذكر هنا أن مجموعة من الأحداث والوقائع التي عرفها عهد السلطان محمد الخامس كانت بوادرها في العصر اليوسفي، ومن ذلك قضية الراية كرمز لسيادة الأمة أحدثت تفاعلات سياسية واجتماعية منذ تغيير شكلها ولونها من طرف السلطان المولى يوسف إلى أن احتفل المغاربة في عام 1366هـ/ 1947م بيوم الراية المغربية في سياق الحركة الوطنية[19].

وفي الكناشة أيضا ذكر بعض دواعي اختيار مدينة الرباط عاصمة للمملكة بدل مدينة فاس، وقد لخصها محمد السليماني بكون مدينة الرباط مدينة بحرية تستفيد من الميناء المليء بالسفن والبواخر، بالإضافة إلى اتساع الأراضي وجودتها مع ما تشهده من نهضة عمرانية ومنها بناء المدارس والمعاهد ومن ذلك مدرسة العلوم ومقر الحكومة والديوان والإقامة العامة، بالإضافة إلى بناء حي القبيبات لأعوان السلطة، فضلا عن المآثر التاريخية التي تزخر بها المدينة وقربها من مدينة الدار البيضاء، وتفصح القصائد عن الرغبة الملحة للنخبة الرباطية والسلوية في استقرار المولى يوسف بالرباط بدل فاس[20].

5- علاقة السلطان بالعلماء.

اشتهر المولى يوسف بعلاقة وطيدة بالعلماء الذين اعتبروه سلطان العلماء وعالم السلاطين فقد جمع بين العلم والسياسة[21]، وتجلت هذه العلاقة في المجالس العلمية التي كان يعقدها طيلة ثلاثة أشهر وهي رجب وشعبان ورمضان[22]، وكان له حرص كبير على حضور ختم صحيح البخاري وصحيح مسلم و الموطأ للإمام مالك وكتاب الشفا للقاضي عياض[23].

ويظهر من خلال الكناشة انتعاش الحركة العلمية في العهد اليوسفي، وقد انعكس ذلك إيجابيا على العلماء والشعراء بسبب السخاء الحاتمي الذي أظهره السلطان اتجاه هذه الفئة التي كانت تعاني أزمة مالية واجتماعية بسبب كثرة الفتن، فنجد قصائدهم تحمل شكاوي من البطالة، وغلاء الكراء واحتكار البضائع وانعدام القوت، وهو تعبير عن حالة اجتماعية أصبحت تعاني منها الفئة العالمة فضلا عن العامة[24]. ولقد شبهوا أزمة المغرب بالأزمة التي عاشها أهل

البوادي في عهد النبي يوسف بن يعقوب، لذلك التمسوا من المولى يوسف أن يرثي لضعف الرعية، وقد أملوا أن تزدهر في عصره الصنائع التي تزدهر بالعدل الذي هو أساس الملك، والمولى يوسف حسب علماء عصره يتصف بالعدل والشفقة والرحمة والبشاشة، لكنه شديد الشكيمة على أهل الزيغ والفساد، وعلى المتهاونين من حاشيته.

ومن العلماء الذين استفادوا من الهبات السلطانية نذكر: الفقيه محمد بوجندار، الفقيه محمد حركات السلاوي، الطيب عواد، الفقيه محمد بن عبد الرحمان، القاضي العباس بن إبراهيم، الفقيه المفضل غريط، الفقيه محمد قصارة، والشاعر أحمد النميشي، والمؤرخ عبد الرحمان بن زيدان. بل اتصل به علماء من المشرق الذي اشتهرت فيه الأعطيات السلطانية اليوسفية، ومنهم الفقيه الشاعر ابن مسعود المدني الذي شد الرحال من المدينة المنورة للاستفادة من الأريحية اليوسفية[25].

وسنعرض إلى بعض مضامين هذه القصائد، لنتعرف على المواضيع التي شغلت بال هؤلاء العلماء ففجروها في بحور الشعر وتفتقت قرائحهم في البسيط والكامل، وعبروا عن ما يشغلهم بالطويل والوافر، للإشعار بأمر قد قدر، ولا خلاص منه إلا بالنهوض حسا ومعنا، وهكذا نجد في قصيدة الشاعر العالم الداعي إلى الإصلاح العباس الشرفي التي هنأ فيها السلطان بالملك وبفتح مراكش وحلوله بثغر الرباط سنة 1330هـ، وهي رائية من بحر الكامل عدد أبياتها 62 بيتا نظمها في العام نفسه، وقد نوه فيها بالسلطان ووصفه بأخلاق الكريمة وبالشهامة والغيرة، وولوعه بالمصالح وهو جم المآثر خبير بالأمور المتعلقة بالملك، وهو ذو هيبة ومجادة وفخامة، ليث هصور في الحروب وبحر للندى. وقد استبشر الشاعر ببيعته التي استهلت بالتأييد والفتح والتيسير، وهو الذي بطلت بهمته أعمال اعتبرها الشرفي من عمل السحر والتزوير و لعل في ذلك إشارة واضحة إلى عقد الحماية، الذي تحوم الشكوك حول عقده وتوقيعه، ويختم بتهنئة السلطان بمناسبة وصوله لرباط الفتح، وقد نشطت ببيعته أمة الإسلام التي ستعرف النجاح بفضل بيعة هذا السلطان وربط ذلك بواجب القيام بشكره والتنافس في طاعته، ويتساءل الشاعر إلى متى ستظل هذه الأمة لا تستجيب لداعي الهدى ليزول عنها الصغار والاحتقار، و متى ستنهض من سبات الغباوة والردى، وحب السكون ونقض غزل السلف من طرف الخلف،

فشاب صفوفهم التكدير، فهذا زمان سعادة وتقدم يقتضي ويوجب حسن النظر والتقدير، والتسلح لذلك بالمعارف بقيادة أمير المومنين مولاي يوسف الذي وجب اتباعه وعدم الالتفات إلى غيره وترك ما سواه، أي الإجماع وعدم الاختلاف.

وفي قصيدة الفقيه أبي بكر حركات السلاوي وهي رائية من بحر الكامل عدد أبياتها 125 بيتا. منذ مطلعها يخبرنا هذا العالم أنه بمبايعة السلطان مولاي يوسف أقبلت الخيرات والخصب مع الحظ والسعد الوافر، وقد زال عن الأمة المغربية ببيعة هذا الأمير العناء واستقام الزمان. هذه نظرة مخالفة لما يراه الآخر، أو قل نظرة من الداخل نظرة علماء رأوا في سلطانهم اليوم كسلطان الأمس العزة والمنعة، وتوسموا فيه حل المشاكل وقد حان وقت تحقيق الآمال وما كان ينتظره جيل من العلماء، وقد عزموا جميعا على لقائه لما شاع من محبته في القلوب وزاد من ذلك خفض جناحه والعفو عن المسيء وحلو شمائله وحسن خلقته وخلقه، وقد أمل الشاعر جمع الشمل وفتح البلاد ونصرة الإسلام، وهو ينتظر أعمال مثل إحياء دروس العلم وإقامة الدين ويرجو الـــتأمين من الخوف والذعر[26] ، ونشر الفنون . واشتكى من احتكار السلع والقوت. ويختم قصيدته بالوعظ والإرشاد ووجوب سيادة الود والمحبة بين الناس ونصحهم.

ونختم هذا المحور بذكر ملاحظة يمكن استنتاجها من خلال الكناشة أن العلماء كانوا منقسمين إلى ثلاثة أقسام: قسم مع الحماية باعتبارها سبب من أسباب الإصلاح، فعبروا عن ميلهم إلى سلطات الحماية باعتبارها تعمل على إدخال الإصلاحات والمخترعات العصرية والسلم والتهدئة كما عبر عن ذلك بوضوح الوزير الشاعر محمد غريط ومحمد المعمري الزواوي والمؤرخ الأعرج السليماني وغيرهم[27].وقسم ضد الحماية ومنهم إدريس بنعبد الله بن خضراء الذي دعا السلطان المولى يوسف وهو في السنة الأولى من بيعته إلى السعي للتحرر من سيطرة الأجنبي[28] وقسم يعتبر نفسه من الحزب اليوسفي ومنهم جامع الكناشة الطيب بن خضراء.

### 6- الاحتفال بعيد المولد النبوي وزيارة الصالحين

من المظاهر الاجتماعية التي حاول المولى يوسف العودة بها إلى العصر الحسني هي الاحتفال بالأعياد والمواسم الدينية باعتبارها مناسبات تمكن من الاتصال والتواصل بين السلطان والرعية، وفي مقدمة هذه المناسبات الاحتفال بعيد المولد النبوي[29] والاحتفال بعاشوراء، والحرص على طقوس الموكب السلطاني في عيد الأضحى وعيد الفطر. وفي كل هذه المناسبات تنشد الأشعار خصوصا في ليلة المولد النبوي الذي تنشد فيه المولديات وتختم فيه كتب السير وتشنف فيه الآذان بالألحان والأسماع بالسماع[30] . وقد حرص السلطان المولى يوسف على زيارة الأضرحة كما هي عادة والده المولى الحسن ومن ذلك زيارة المولى إدريس الأزهر بفاس .

## خـــاتمة

في الخاتمة يجب التنبيه إلى أهمية الكناشات ضمن المصادر الدفينة لتاريخ المغرب بما تتضمنه من معلومات وإفادات غميسة، وكناشة الفقيه الشاعر الطيب ابن خضراء ، يمكن أن ندرجها ضمن المصادر المرجعية لجوانب من تاريخ المغرب في عصر السلطان مولاي يوسف، فهي تطلعنا على تنقلات السلطان في أطراف مملكته خصوصا في السنوات الأولى من حكمه، وعلى اهتمامه بالعلم والعلماء والنهوض بالتدريس من خلال تأسيس المدارس والمستشفيات التي ما تزال تحمل اسمه. وتمكننا هذه الكناشة من جرد أسماء علماء وشعراء عاشوا في العصر اليوسفي وساهموا بالقول والفعل من أجل إحياء أمجاد الأمة المغربية والعودة بها إلى تاريخها المجيد. وهناك مجموعة من المواضيع التي تطرق إليها المؤلف عرضا، مثل ضرب السكة اليوسفية، وعلاقة السلطان بشريف مكة وطقوس احتفاله بالأعياد الدينية، ومحاولته إدخال بعض المخترعات العصرية. وأدرج قصائد أشهر العلماء والشعراء الذين حاولوا إيقاد روح الحماسة في الخاصة والعامة، ونتعرف على أعلام منهم مثل أبو بكر حركات السلوي ومحمد بوجندار ومحمد المفضل غريط، وعبد الله القباج. فالكناشة زاخرة بالمعلومات التي يجب العودة إليها ومن ذلك جوانب اجتماعية كثيرة بما في ذلك الأثر الذي خلفته وفاة لالة آمنة التركية والدة السلطان المولى يوسف عام 1336هـــ، والابتهاج الذي ساد المغرب إثر الحفل الذي أقامه السلطان

بمراكش أواخر عام 1337هـ بمناسبة تزويج ابنتين من بناته، ونقف فيها أيضا على السنوات التي مرض فيها السلطان وتفاعل المغاربة مع شخصه، مما يساعدنا على كتابة البيوغرافية القريبة من الواقع البعيدة عن النظرة الاستعمارية، وكل ذلك يدل على أن السلطان المولى يوسف كان مندمجا في المجتمع منه ينطلق وإليه يعود رغم وصاية سلطات الحماية. وفي خاتمة الكناشة نحس بأنه صحيح أن الاستعمار سيطر على المادة لكنه لم يستطع أن يسيطر على الروح والمشاعر ومنها الجانب الديني، فقد كانت للنخبة وسائل اتصال لم نستطع أن تدركها الاستعلامات الفرنسية، فهناك روابط روحية وعاطفية وتاريخية تواصل بها السلطان المولى يوسف مع النخبة والرعية، قد تكون هي الأصول الأولى للوطنية.

[1] – الكناشة، الورقة9 .

[2]– عبد الرحمان ابن زيدان، اليمن الوافر الوافي في امتداح الجانب المولوي اليوسفي، مطبعة المكينة المخزنية، فاس 1342/ 1924. في جزأين.

[3] – أنظر ترجمة ومصادر ترجمته في معلمة المغرب.

[4]– محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، ج.2، ص.255.

[5] – دوزي، ملحق المعاجم العربية، ج.2.ص.294.

[6] - منشور في مجلة المناهل عدد 30 سنة 1984 وقد أعيد طبعه ضمن كتاب قبس من عطاء المخطوط المغربي، ج.1، صص.245، 314.

[7] - أحمد شوقي بنبين ومصطفى طوبي، معجم مصطلحات المخطوط العربي ( قاموس كوديكولوجي)، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى 2003، ص. 106. وص. 201.

[8] – أحمد إيشرخان، ملامح من سيرة السلطان مولاي الحسن، ضمن أعمال جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، مركز الدراسات والبحوث العلوية- الريصاني 1997، ص.27.

[9] – الكناشة، الورقة. 12.

[10] – الكناشة، الورقة 10.

[11] – الكناشة، الورقة 23.

[12] – الكناشة، الورقة 12.والورقة13.

[13] - الكناشة، الورقة 17.

[14] - الكناشة، الورقة 15.

[15] - **الكناشة، الورقة 65.**

[16] - انظر أيضا دانييل أسطاس، الجامع في المسكوكات العلوية، صص 475- 488، مع صور السكة اليوسفية في ص. 469.

[17] - الكناشة، الورقة 15/ب ومابعدها.

[18] - الكناشة، الورقة 13.

[19] - لمعرفة هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى ماكتبه الفقيه محمد المنوني حول تاريخ الراية المغربية، وعبد الله الجيراري في كتابه شذرات تاريخية من 1900 إلى 1950.

[20] - الكناشة، الورقة 5.

[21] - الكناشة، الورقة 20 .

[22] - يمكن الرجوع أيضا إلى آسية الهاشمي البلغيثي، المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة الشريفة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1416- 1996، ج.1، صص 108- 112.

[23] - الكناشة، الورقة 63 وما بعدها.

[24] - الكناشة، الورقة 11.

[25] - الكناشة، الورقة 30.

[26] - الكناشة، الورقة 29.

[27] - الكناشة، الورقة 21 وما بعدها.

[28] - الكناشة، الورقة 5.

[29] - الكناشة، الورقة 19.

[30] - الكناشة، الورقة 19 ومابعدها.

# الجوانب الاقتصادية ببلاد تافيلالت
## من خلال وثائق تجارية محلية في عهد السلطان مولاي يوسف

محمد لمراني العلوي
كلية الآداب- مكناس

تندرج هذه المداخلة المتواضعة التي بين أيدينا ضمن اهتمامنا بتاريخ بلاد تافيلالت وتاريخ مدينة الريصاني على وجه التحديد الذي يحتاج إلى المزيد من البحث التاريخي لكل أوجهه الحاملة للتعدد والتخصص وذلك من أجل إحداث التراكم اللازم والممكّن من محاولة إعطاء مقاربة تاريخية محلية للأوضاع الاجتماعية لبلاد تافيلالت وما يرتبط بذلك من علاقات شائكة وجد معقودة بسلطات المستعمر الفرنسي المتحكم في هذا المجال الفلالي القريب جغرافيا من قواعده العسكرية ببلاد الجزائر المحتلة منذ أكثر ما يقارب قرنا من الزمن، والتي حاولت من خلالها سلطات الحماية انتهاج سياسة الاستمالة والاستحواذ في أفق الضبط الكلي والشمولي للخريطة العسكرية.

ومهما يكن في الأمر، فإن مداخلتنا هاته ستتركز على الجوانب الاقتصادية المرتبطة ببلادنا تافيلالت في علاقاتها التجارية المحلية والوطنية والدولية خاصة ما ارتبط ببعض الحواضر الفرنسية أو الإنجليزية بما في ذلك بعض الحواضر الخاضعة للاستعمار الفرنسي وذات العلاقة بهذه المنظومة التجارية بشكل أو بآخر. لقد اعتمدنا في البناء المعرفي لهذه المداخلة على وثائق محلية تجارية ذات حمولة وصفية لهذه الحركية التجارية في كل محطاتها الأساسية كما أن هذه الوثائق هي وثائقة تكميلية لما سبق أن اعتمدناه في مداخلة سالفة لهذه الجامعة العلمية المحترمة وهي أيضا، أي هذه الوثائق متميزة بتأريخ مغاير وبحمولة معرفية مختلفة وعاكسة لأحداث ووقائع تأريخها بشكل متداخل ومتقاطع ومتكامل وأيضا مغاير في بعض الجوانب المرتبطة بعوامل كثيرة.

## الدراسة النقدية للوثائق:

تغطي هذه الوثائق التي بين أيدينا الفترة الزمنية الممتدة ما بين سنوات 1336 و 1337 و 1339هـ.وقياسها بالنسبة لبعض أوراق هذه الوثائق ما بين 30،5 سنتم على 21 وأيضا 27،5 سنتم طولا على 22 سنتم عرضا وكذلك 21،5 سنتم طولا على 14 سنتم عرضا.

كما أن عدد الأسطر المتواجدة يصل إلى 41 سطرا فضلا عن التذييل بسطرين، ثم 38 سطرا أيضا 17 سطرا وأربعة عشر سطرا وكذلك خمسة عشر سطرا مكررة وأربعة عشر سطرا مكررة وأيضا ثمانية أسطر وستة أسطر كذلك.إضافة إلى مراسلة مكتوبة باللغة العبرية ويبلغ عدد أسطرها 10 أسطر.

تتميز هذه الوثائق في أسلوب كتابتها بالخط المغربي المعهود في كتابة الكثير من الوثائق المعاصرة للفترة المدروسة التي تعتمد مداد الصمغ المعروف لدى جمهور الفقهاء على وجه الخصوص.

### المجموعة الأولى

وتبتدئ هذه الوثائق بالحمدلة والصلاة والسلام على النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه وتنتهي بختم مميز شبيه بالأختام العدلية وبالدعاء والصلاة على خير البرية الرسول سيدنا محمد (ص).

وتشمل هذه الملاحظة كل وثائق المراسلات ومراسلات التوصل والإجابة مهما كانت حمولتها المعرفية والشكلية أي عدد أسطرها.

### المجموعة الثانية:

وهي تشمل الوثائق الرسمية للمقاولة التجارية:

إخوان الحاج محمد والحاج عبد الغني الكوهن بفاس وتافيلالت

**E Khouan Hudj Mohamed et Hudj Abdelghni Elkohan**
**Commerçants – Fès Katuni 46 et Tafilalet Aboham.**

وهي وثائق متميزة باختصار مضمونها وبمؤشراتها الرقمية المتعلقة بالديون أو الواجبات المرتبطة بسلع التجارة أو المستحقات المتبقية أو المبلغ المالي الموضوع في إحدى الحسابات المصرفية

وبعض المعلومة المركزة كما هو الأمر بالنسبة لأسماء رجال التجارة أو الوسطاء المشرفين على بعض جوانب هذه التجارة من حيث تبليغ واستيلام البضاعة أو الأموال.

**المجموعة الثالثة:**

وثائق الحماية الفرنسية المتعلقة بمراقبة الممرات وتفتيش السلع في القسم الاقتصادي المخصص لهذا الغرض ثم أيضا الوثيقة المرتبطة بأحد الذميين أي يهود تافيلالت وتعتمد هذه الوثائق التأريخ الميلادي وليس الهجري.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن أسلوب كتابة هذه الوثائق المعتمد هو أسلوب للغة عربية فصيحة، يتخلله في بعض الأحيان كلمات عامية وعجمية ترجع للنطق واللسان الفلالي وكذلك مصطلحات البنك والبوسطا والديوانة وغير ذلك، إضافة إلى طغيان أسلوب التعميم كالتوصل بالبضاعة شراء البضاعة شحن البضاعة وما شبه ذلك من مصطلحات شبيهة وشاملة.

وعلى أية حال فهذه الوثائق تغطي الفترة التاريخية الممتدة من 1336 إلى 1339هـ بشكل متسلسل ومجسد لوتيرة هذه المراسلات تبعا للظروف العامة المرتبطة بالجوانب الاقتصادية والسياسية كما هو الأمر بالنسبة للحركية التجارية ومدى الطلب على السلع التجارية وأيضا العوامل الأخرى المرتبطة بظروف الاحتلال الاستعماري المراقب لكل المجالات التي تمر منها الحركية التجارية ككل.

وتتضح هذه الملاحظات بشكل جلي في المراسلات المؤرخة في أول الشهر ووسطه وآخره كما هو الأمر بالنسبة لمراسلات شهر محرم الحرام من سنة 1337هـ التي سجلت كثافة المراسلات التجارية من خلال الشهر المذكور. وهذه المراسلات أيضا سجلت استمرارية شهرية في سنة 1336هـ في أشهر ربيع الأول وربيع الثاني وأشهر جمادى الأولى وجمادى الثانية وذو الحجة ومحرم من نفس السنة أي 1336هـ.

وفي اعتقادنا فإن هذه المراسلات تعتمد عملية الاستدراك ونسخ بعضها البعض بدليل وجود عبارة "وإن ظهر هناك خلاف فلا عمل عليها والعمل على هـذه وأشهد عليه ..." رغم أن هذه العبارة يمكن إعطاؤها تأويلا آخر بالمرونة المتبادلة في إطار تثبيت الثقة المؤطرة لهذه

التجارة البعيدة المدى. وهذا ما تجسده مراسلة 16 محرم الحرام عام 1337هـ.يقول نص هذه المراسلة:

"إلى صاحبنا السيد اعلى وهامي وعليك السلام فقد خرجنا عليك الإطرة قدرها اثنين وأربعون ريالا في ورده قد ابى بقدور بعد الوصول بشهرين وإن ظهرت إطرة خلاف هاذه فلا عمل عليها والعمل على هاذه واشهد عليه بالتوصل وذلك مما لنا عليك أخانا بتفلالت والسلام عبد ربه إدريس الكوهن وفقه الله".

إضافة إلى ذلك فإن هذه المراسلات رغم كثرتها وتسلسلها هي مراسلات إيحائية وانطباعية أيضا تدل على الكثرة من حيث المواد السلعية المرسلة والموجهة لمختلف أماكن الإرسال والاستلام وكذلك أيضا من حيث عدد الأشخاص التجار المراسلين إضافة إلى المؤسسات بمختلف أقسامها والمرتبطة بالحركية التجارية ككل كما هو الأمر بالنسبة "للديوانة" أي الجمارك وإدارة البوسطة "أي البريد والإدارة الأمنية والترابية المكلفة بإعطاء التساريح ثم إدارة التجار الوسطاء المكلفين بعملية التنسيق الشمولي العام من مراقبة وتسليم وتوزيع واستيراد وتصوير. إضافة إلى حضور المعطى الرقمي العام والغير المفصل والذي يفيدنا بزخم هذه الحركية التجارية بصفة شمولية انطلاقا من الحواضر الأوروبية في اتجاه حواضر بلاد المغرب المرتبطة بهذه التجارة الدولية.

إن هذا الجانب الإيحائي والانطباعي كذلك لهذه الحمولة المعرفية التي شكلت البناء الفكري لمضامين نصوص هذه المراسلات في مجموعها الكلي وقضاياها الكبرى الغير المفصلة لا يقتصر فقط على حمولة السلع المفرغة والموضوعة في أهرية موانئ الرسو كتجارة جملة وكمحطة إفراغ أولي قبل التوزيع على التجار المعنيين وإنما يشمل كذلك المحطات الموالية والموزعة على مختلف المراكز كما هو الأمر بالنسبة لبعض مواد هذه التجارة الموجهة من فاس إلى تافيلالت كما عكستها مراسلات الحاج محمد بناني والحاج عبد الغني الكوهن والحاج إدريس الكوهن إلى المتعاقدين معهم من الزبناء التجار بتافيلالت خاصة أهل أبو عام. يقول نص إحدى المراسلات المبعوثة إلى بلاد تافيلالت بتاريخ 18 محرم 1337هـ:

وعلى صاحبنا التاجر الأبر الأرضى السيد اعلي وهامي وعليك السلام ورحمة الله وبعد فقد خرَّجنا عليك هذه الإطرة (الواجب من المال) قدرها تسعون ريالا فدفعها في ورده حامله اعلي ولد اغزال من أولاد معمر بعد الوصول بثلاثون يوما عدة ثلاثة أيام ترانى توصلت بها هنا من عند حامله اعلى ولد اغزال المذكور اعلاه وأشهد عليه بالتواصل رعاك الله وعلى المحبة والسلام، عبد ربه ادريس الكوهن بالتاريخ أعلاه لطف الله به أمين.

جزاك خيرا وعافية وصاحب الإطرة رجع عن الصغار لطرافكم وجلس هُنا والقدر المذكور اعلاه ادفعه قدور بن البخاري المعمري والإطرة بعد الوصول بشهرين أيام 60 يوما والسلام.

عبد ربه ادريس الكوهن

وفقه الله أمين .

إن هذا الاختزال الإيحائي والانطباعي لنص المراسلات التجارية هامّة حاضر بشكل ملحوظ في المراسلات التأكيدية الاستطرادية والاستدراكية كذلك.

"وبعد لا زايد على ما تقدم لكم منا خلافه لما فيه كفاية بعده، وصلنا مقابله على يد أخيكم السيد إدريس بواسطة البنك بتاريخ 20 الجاري 400 شلين تم يومه حضر منه بواسطة البنك المذكور مائتين أبرة الجميع عمرناه بحسابكم الجاري وأما البضاعة والله أخي لم يعينا ندركك منها شيأً وبقينا في غاية الحجل من عدم ما توجه إليكم بشهادة الله ولو أن العذر واضح نعم ها نحن مبالغين غاية المجهود وإن يسر الله وطلع إلينا شيئا من الورد ندركك إن شاء الله، ادعو الله لنا بالتيسير وأما ثمن من زايد القرعة اليوم هنا بسوم 32 شلين واعلمناك لتكون على بال ودمتم في حفظ الله وعنايته والسلام".

العربي بوعياد

لطـــف الله به

إن دراسة هذه الوثائق المرتبطة بحركية وزخم المراسلات التجارية بين بلاد تافيلالت ومختلف حواضر أروبا من منشستر Manschester ومرسيليا مرورا بحواضر الجزائر ووهران عبر الحاضرة الإدريسية الأكثر ترددا في الوثائق قد مكننا – ولو بشكل محدود – من ملامسة

هذه الظاهرة الاقتصادية المرتبطة بمجال بلاد تافيلالت التي تعرف استمراريتها التاريخية رغم كثرة وتنوع العراقيل المرتبطة بظروف الإدارة الاستعمارية، لأن رجال هذه التجارة خبروا هذا الميدان واكتسبوا صنعة أهلتهم ومكنتهم من كل حيثيات وآليات التعاملات بصفة أشمل كما هو الأمر بالنسبة لوسائل الاتصال والتواصل من تمكن من لغات وغيرها وكذلك من حيث أدوات التعامل من حسابات بنكية وإدارات بريدية وعملات مصرفية أوروبية، وتلغراف....

كما أن هذه الخنطة أعطت لهؤلاء التجار الصنعة التي مكنتهم من أحوال هذه التجارة التي تحتاج بدورها إلى قاطرة تحركها والمتمثلة في رأس المال الواجب توفره لولوج هذه الأسواق الأوروبية في كبريات حواضرها خاصة وأن هذه التجارة فيها مخالطة كبيرة ورواج أموال كثيرة حسب التعبير المخزني المحلي لبلاد تافيلالت.

وفي اعتقادنا فإن هذه التجارة الموجهة إلى بلاد تافيلالت لا تمثل إلا جزءا قليلا ويسير من خير كثير وعميم إذا ما أخذنا في عين الاعتبار بأن هذا المجال الفلالي لا يشكل إلا رفعا من فروع هذه الشبكة التجارية. إضافة إلى ذلك فإن هؤلاء التجار المتعاقدين مع أهل صنعتهم الفلاليين لا يقتصرون فقط على إرسال السلع المجلوبة من البلاد الأوروبية بل يرسلون لهم سلعا مغربية أخرى من منتجات الحياكة والأقمشة والأحذية والجوارب والبلاغي "بَلْغَاتْ" وهو الشيء الذي أعطى لهذه التجارة زخمها المجالي الخاص بها.

ومن بين السلع المجلوبة من البلاد الأوروبية نجد هناك أنواعا كثيرة من الكتان والمليفة على وجه التحديد والشاي والأواني المنزلية بمختلف استعمالاتها والملابس والأقمشة والقهوة والسكر وأدوات الخياطة من آلات وخيط وغيره من القماش الأسود المعتمد ببلاد تافيلالت خاصة بالنسبة للمرأة الفلالية.

إضافة إلى الوشاحات والمناديل وأغطية الرأس والأحذية والأحزمة والبرانس وكتان الحايك والجلباب وغير ذلك من منتجات حاضرة فاس.

إن هذه السلع التجارية المستجلبة هي سلع جديدة في مسار التجارة وحركيتها بصفة أشمل وهو بوابة تحول في استهلاك مواد جديدة. لكن هل هذا التحول كان عاما وشاملا؟

لا نعتقد ذلك باعتبار أن التحول يحتاج إلى مسارات مرتبطة بعوامل متعددة.

# التحولات الاجتماعية على عهد السلطان المولى يوسف من خلال بعض وثائق القاضي محمد بن ادريس العلوي

عبد الله دادة

طالب باحث بكلية الآداب– الرباط

## تقديم

إن كل ما يخترق المجتمع المغربي من قيم وقواعد وسلوكات وممارسات، ومن فاعلين، يعد جزء لا يتجزأ من الإمكان البشري. كما أنه يشكل المكون النوعي لهذا الإمكان، ومن الملاحظ أن الدينامية الداخلية للمجتمع المغربي، تعرف تحولات عميقة، فهو مجتمع في طور التمدين، وأنماط عيشه تتغير، على هذا الأساس يعتبر موضوع الندوة " التحولات الاقتصادية والاجتماعية على عهد السلطان المولى يوسف" من المواضيع الهامة التي تطرح نفسها بحدة، لكونها تتخذ مظاهر وأبعاد متعددة إبان فترة الحماية[362].

لذلك نتساءل عن أبرز التحولات الاجتماعية في مغرب ما بعد 1912، وهل يمكن الفصل بين ماهو سياسي اقتصادي للبحث فيما هو اجتماعي ؟

هذه الأسئلة وغيرها هي ماتحاول هذه المداخلة الإجابة عنها مستندة على قراءة وثائق الفقيه القاضي محمد بن ادريس العلوي، من خلال رصد الظاهرة الاجتماعية، وبنائها السياسي، وأنماط الإنتاج السائدة، عبر المحاور التالية :

- دراسة الوثائق؛
- الوضعية الاجتماعية قبل تولي السلطان المولى يوسف الحكم؛
- بعض التحولات التي تكشف عنها الوثائق المدروسة؛
- خلاصة.

---

[362]- فيما يخص بعض الدراسات التي تناولت جوانب من التحولات على عهد السلطان المولى يوسف، نذكر :

- OURDIGHI Abderrahim lyautey au l'Etat moderne Marocaine (1912-1925).
- RIVET Daniel, le Maroc de luautey, le double visage, Paris, 1999.

الوثائق قيد الدراسة، منسوبة إلى الفقيه القاضي محمد بن ادريس العلوي، فمن هو هذا الأخير ؟ محمد بن ادريس العلوي الحسني، من شرفاء مكناس ... تولى القضاء بمدينة سلا مدة، ولما أراد جلالة الملك إضافة قاضي ثان بالدار البيضاء بدرب السلطان منها، لاتساعها وكثرة عمارتها، ورأى أن قاضيا واحدا ليس بكاف عينه بها...[363].

أما عن نوعية الوثائق المدروسة، فهي عبارة عن وثيقتين قضائيتين :

* الأولى صادرة عن المحكمة الشرعية بالزاوية الإدريسية، وتتضمن عقد زواج السيد محمد بن الجلاني العماري، على السيدة طام بنت المعطي الجيلاني[364]، وما يرافق الزواج من مشاكل مادية واجتماعية بين الأزواج.

* أما الثانية فهي عبارة عن نظائر وكالات ودعاوي بشأن بعض الوكلاء[365].

وقبل الحديث عن بعض التحولات الاجتماعية التي يمكن أن نستشفها من وثائق الفقيه القاضي المذكور، ماذا عن الوضعية الاجتماعية للمغرب قبل تولي السلطان المولى يوسف الحكم ؟

## 2– الوضعية الاجتماعية للمغرب قبل السلطان المولى يوسف

لعل أهم ما يمكن الرجوع إليه في هذا الموضوع، ما أفادنا به الناصري في قوله : " واعلم أن أحوال الجيل الذي نحن فيه، قد باينت أحوال الجيل الذي قبله غاية التباين، وانعكست **عوائد الناس** فيه غاية الانعكاس، وانقلبت أطوار التجارة وغيرها من الحرف في جميع متصرفاتهم ولا في سككهم، ولا في أسعارهم، ولا في سائر نفقاتهم، بحيث ضاقت وجوه الأسباب على الناس، وصعبت عليهم سبل جلب الرزق والمعاش، حتى لو نظرنا في حال الجيل الذي قبلنا، وحال جيلنا الذي نحن فيه، وقايسنا بينهما لوجدناهما كالمتضادين، والسبب الأعظم في ذلك

---

[363]- للمزيد من التفصيل يرجع إلى : موسوعة أعلام المغرب : تنسيق محمد حجي، ج9، ط. 1996، حيث يورد صاحب الموسوعة أنه من وفيات 1370هـ/1949م، ص 3262، وكذلك ما أفادتنا به ابنته بدر السعود العلوي مشكورة.

[364]- صحيفة 330 نمر 824 كناش 21، وما بعدها من صحائف (خمسة أحكام قضائية، صادرة بتاريخ 1339هـ/1918م.

[365]- الوثيقة الثانية صادرة سنة 1342 هـ/1921 م بالدار البيضاء.

ملامسة الفرنج وغيرهم من أهل أوربا للناس، وكثرة مخالطتهم لهم وانتشارهم في الآفاق الإسلامية، فغلبت أحوالهم وعوائدهم على عوائد الجيل وجذبتهم إليها جذبة قوية[366]..

يتضح من هذا النص أن المغرب شهد تحولات جذرية غذاة احتكاكه بدول أوربا على اختلاف جنسياتهم[367]، مما خلف تغيرات في البنية الاجتماعية، فماهي إذن أبرز التحولات على عهد السلطان المولى يوسف (1912-1927)؟

وضعت فرنسا أسس سياسة جديدة، بعد توقيع معاهدة الحماية، إذ احتل فيها الجانب الاجتماعي أهمية كبيرة، ذلك أنها بدأت تحتك بالمغاربة بعدما كان احتكاكها بصاحب السلطة الشرعية.

ويمكن أن نرصد بعض جوانب الموضوع من خلال مراحل تأسيس أجهزة الحماية وتطورها اعتمادا على أجهزة الحماية وتطورها وكذلك الشخصيات المعاصرة، فقد كان اليوطي أكثر الناس المقيمين العامين محاولة لفهم السكان [368] فهما يساعده على أن يعمل بأقل ما يمكن من المصاعب[369]، وبذلك حافظ على الحكم بواسطة المخزن لا ضده[370]، ورغم ثنائية إدارة الحماية حيث تعتبر الدولة الحامية مصدر السلطة والسلطة الشريفية، يعتبر السلطان- المولى يوسف- مصدر السلطات[371].

إذن ماهي أبرز التحولات الاجتماعية التي تكشف عنها وثائق القاضي محمد بن ادريس العلوي؟

تتأطر زمنيا وثائق القاضي من الفترة الممتدة لحكم السلطان المولى يوسف، إلى حدود خلفه محمد بن يوسف (1927-1961) إلا أننا اعتمدنا في استنتاج بعض التحولات الاجتماعية

---

[366]- الناصري، الإستقصا، ج9، وزارة الاتصال، ط.2005، ص 221 وكذلك موسوعة مذكرات من التراث المغربي، ج5، ط، 1985، ص 24.

[367]- يقصد بالفرنج الفرنسيين، الإسبانيين، البرتغاليين....

[368]- تم تأسيس العديد من الأجهزة، كان من أبرزها مديرية الشؤون الأهلية التي كان يترأسها ميشوبلر.

[369]- محمد خير فارس، تنظيم الحماية الفرنسية بالمغرب (1912-1939)، ط، 1982، ص 132.

[370]- م، ن : ص 135.

[371]- م، ن : ص 143.

خلال عهد السلطان المذكور على وثيقتين أساسيتين، يرجع تاريخهما إلى سنتي(1918-1921). والواضح أن المغرب عرف خلال هذه المرحلة تحولات كبيرة حيث يؤكد Rivet Daniel على أن " الحماية كانت بمثابة الخمر الذي ينضاف إلى الطعام، لقد سببت حياة اجتماعية، وسياسية متناقضة في الوسط المغربي، ذلك أن الاحتكاك الأوربي، غير في العمق وبشدة من المجتمع إن على مستوى الأشخاص في المدن تقريبا أو الضيعات الاستعمارية، أو جيوش الاحتلال[372].

كما أن عهد السلطان المولى يوسف، عرف تأجيج المقاومات التي همت المجال المغربي من أجل الدفاع عن وحدة البلاد، فبعد انطلاق هذه العمليات في الجنوب، امتدت إلى الشمال إذ تعتبر سنة 1921 من أهم سنوات المقاومة الريفية بالشمال.

علاوة على هذه التحولات الكبرى، يمكن رصد بعض التحولات الجوهرية المتمثلة أساسا فيما يلي: وصول الأجانب إلى المغرب، وعلى اختلاف مناطق نفوذهم، انعكس على مستويات التعامل فيما بينهم، سواء على المستوى الاجتماعي أو التجاري أو القضائي، إذ أصبح الفرنك الفرنسي يزاحم الريال المغربي في المعاملات التجارية وكذا في الوثائق (دفع ما مقداره بالفرنك)[373].

– ظهور العديد من المنازعات بين المغاربة أنفسهم وبين الأجانب، أفضى إلى ظهور سلطات قضائية جديدة : المحاكم الشرعية وغيرها ...

– إلى جانب القاضي المكلف بالنظر في القضايا المرفوعة له كان يعينه في عمله موظفين أجانب، وذلك حسبما هو مبثوث في وثائق محمد بن ادريس العلوي[374].

– رغم تطبيق معاهدة الحماية، فإن المحاكم على عهد السلطان المولى يوسف كانت تحكم بالشرع الإسلامي.

---

[372] - Rivet Daniel, le Maroc de Lyoutey à Mohamed V, p 304.

[373] - راجع الوثيقة المؤرخة لسنة 1339هـ/ 1918م.

[374] - وثيقة بسجل محكمة الدار البيضاء، صحيفة 90، عدد Le receveur 931 مثلا.

- استفادت سلطات الحماية من التجربة الاستعمارية في كل من الجزائر وتونس، ذلك أن من أكبر الأخطاء التي ينبغي تجنبها في العمل، الرغبة في العمل بصورة موحدة دون اعتبار لتنوع العناصر وفسيفساء القبائل[375].

وخلاصة هذه المداخلة بالتأكيد على أن المغرب عرف تحولات اجتماعية واقتصادية هامة على عهد السلطان المولى يوسف التي تزامنت مع فترة الحماية، ذلك أن دراسة الوثائق ومن بينها وثائق القاضي محمد بن ادريس العلوي، تتيح إمكانية كشف النقاب عن بعض من هذه التحولات والأمل معقود على اكتشاف وثائق أخرى، تغطي تاريخ المغرب عامة، وفترة ما قبل الاستقلال تحديدا، حتى نتمكن من ضبط بعض مجريات الأحداث والوقائع التاريخية التي يشهدها المجال المغربي.

---

[375]- محمد خير فارس، تنظيم الحماية الفرنسية، ص 244.

# الفهرس

المحور الثاني : التحولات الاقتصادية

**المحور الثالث : وثائق ونصوص**


Bibliotheca Alexandrina
11473301